ابن رشد في أدبه

للدكتور عبد الكريم خليفة
رئيس المجمع

مقدمـــة

تهدف هذه الدراسة الى القـاء الضوء على جانب مهـمّ من جوانب انتاج عَلَـمٍ من اعلام الفكر في حضارتنا العربية الاسـلامية ؛ وهذا الجانب يتمثل في « ادب » ابـن رشد ، وهو واحد مـن اشهر الكتّاب ومن اكثرهم خصبا وانتاجـا .

وان هـذه الدراسة شائكة في نظرنا ، وذلـك لصعوبة الفصل بين مجال الفكـر والفلسفة من ناحية،والادب مـن ناحية اخرى . فان مفاهيم الادب وتعريفاته تتعـدد وتختلف باختلاف الاتجاهات الفكريـة والثقافية والاجتماعية عنـد الباحثين . وربما كان اهـمّ من ذلك كلّه ان نصل الى مفهـوم الادب عند الكاتب ذاته . ليس مـن السهل ان تحدد مفهوم الادب عند ابن رشـد ، دون النظر في فلسفته وفـي مفهوم الادب عند معلمـه الاول « ارسطو » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اليس من الخطـأ ان تعتبر مفهوما واحدا للأدب ، تحـاول إقحامه على جميع انشطة الفكـر الانساني ؟ ... الا تتداخل مفاهيـم الادب هذه بالوانه ومذاهبـه ؟ ..

لا شكَّ ان هنالك فرقـاً كبيراً بين ادبٍ واقعيٍّ تحتل فيـه جدّيّة الفكر مكانة ممتـازة ، وادبٍ لاهٍ يُضفي عليه الاديب رونق النكتة والظرف .

فقد كان ابن رشـد جادّاً ، وكانت الدراية اغلب عليه من الرواية . وبلغت جِدّيّته الى الحـد الذي عبَّر عنه صاحب كتاب التكملـة بقوله : « ... وعُنِيَ بالعلم مِـن صغره الى كبره،حتى حُكيَ عنـه انه لم يدع النظر ولا القراءة منذُ عَقِلَ الا ليلة وفـاة ابيه ، وليلة بنائه على اهله ... وانه سَوَّدَ في مـا صنَّفَ وقيَّدَ وألَّفَ وهذَّب واختصر نحـواً من عشرة آلاف ورقة . ومال الـى علوم الأوائل،فكانت لـم فيها الامامة دون اهل

عصره » (١) .ونحن لا يهمّنا في هـذا المجال مدى دقة هذه الرواية ، ولكنّ ما توحي بـه من نظرة ابن رشد الجادّة الى الحياة وتحكيمه العقل ، وذلـك بغلبة الدراية عنده على الروايـة ...

فاذا نظرنا مثـلا الى المساجلة الفكرية باعتبارها احـد الفنون الأدبية الراقية ، الا يحقُّ لنـا ان نُصَنِّفَ في اطارها تلـك المساجلة التي دارت بين ابن رشـد والغزالي ؟ فقد وصفها العقـاد بقوله : « فلـم يحفظ لنـا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قـوة المساجلة التي دارت بـين ابن رشـد والغزالي،ومضاء سلاحها،ونفـاذ حججها وبراهينهـا ... » (٢) .

وهنـا يشير الكاتب في الواقع الـى معركتين فكريتين مـا زال اثرهما العميق في التفكير الفلسفي الاسلامي . فقد اثـار الأولى الغزالي في كتابه : « تهافـت الفلاسفة » واثـار الثانية ابن رشـد بكتابه : « تهافـت التهافـت » .

وبالرغم من أن ابن رشـد قد ذاع صيته لـدى الافرنج في مجالين اساسيين من المعرفـة ، هما الطبّ والفلسفة ، فـانّ جوانبه الفكريّة والثقافية الأخرى لـم تكن أقل إشراقا ؛ فهو على حـد تعبير بعض الروايات ، كمـا سنرى فيما بعد : « كـان يُفْزَع الى فتواه في الطـبّ كما يُفْزَع الى فتواه في الفقه ، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » (٣) .

وإنّ الدارس للحركة العلميـة في ذلك العصر ، لا يَعجَب من هـذا كله،فقد عاش ابن رشـد في بيئة علمية عاليـة جمعت مشاهير عصره ، يعينه في ذلك طبـعٌ مؤاتٍ واستعداد فطريّ اصيـل .

امّـا في مجال الحركة العلمية فـي الأندلس ، ورغبةِ اهلهـا في العلم ، فنحن نستذكر مـا اورده المقّري ، اذ قال : « وامّـا حال اهل

---

(١) التكملـة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٢) العقـاد ، ص ٥٥ .
(٣) فـرح ، ص ٢٧ .

الأندلس في فنون العلـــم ، فتحقيق الانصاف في شانهم في هـــذا الباب ، انهم احرص النـــاس على التميّز : فالجاهل الذي لم يوفّقه اللـــه للعلم يجهد ان يتميّز بصنعـــه ، ويربأ بنفسه ان يُرى فارغـــا عالة على الناس ، لأن هـــذا عندهم في غاية القبح؛والعالـــم عندهم معظَّمٌ من الخاصـــة والعامة ... فالعالم منهـــم بارع ، لأنه يطلب ذلك العلـــم بباعث من نفسه ، يحمله علـــى ان يترك الشغل الذي يستفيد منـــه ، وينفق ما عنده حتى يعلـــم . وكلّ العلوم لها عندهم حـــظّ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم ، فان لهمـــا حظًّا عظيما عند خواصّهم ، ولا يُتظاهَر بهـــا خوف العامة . فانّه كلَّمـــا قيل « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغـــل بالتنجيم » أطلقت عليه اســـم زنديق ، وقيّدَت عليه انفاسه . فـــان زلّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبـــل أن يصل امره للسلطان ، أو يقتلـــه السلطان تقرُّبًا لقلوب العامـــة.وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتـــب هذا الشأن اذا وجـــدت ... » (٤) .

إنّ ظاهرة التضييق علـــى حرية الفكر ، التي اشـــار اليها المقّري ، قد أصابت بلهيبها ابن رشـــد ذاته في محنته التي حلّت بـــه في أُخريات عمره ؛ وإنَّ هـــذه الظاهرة لم تكن في الحقيقة لتقتصر علـــى الأندلس ، بل امتدّت من مشرق دار الاســـلام الى مغربه الأقصى ، وذلـــك في فترات معيّنـــة .

ولـــو القينا نظرة علـــى أحداث الفترة الزمنية التي لقي بها ابـــن رشد محنته ، لوجدنا امثلـــة كثيرة في هراة وواسط ودمشق وبغداد (٥) .

اسمه ونسبـــه وكنيته :

هو محمـــد بن ابي القاسم احمـــد ابن ابي الوليد محمـــد بن احمد بن رشد ، يكنى أبـــا الوليد . وهو حفيد قاضـــي الجماعة بقرطبة . (٦) .

---

(٤) النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
(٥) انظـــر العبـــر ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .
(٦) النباهي ، ص ١١١ . انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٠ ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

ولـد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ١١٢٦ م. وأدرك مـن حياة جَدّه شهرا سنة عشريـن (٧) . وقد اشتهر في أوروبـا في القرون الوسطى باسـم AVEROES (٨) .

نشأ ابـن رشد في بيت علـم وفضل ، وكان ابوه أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد ابـو القاسم ، قد تولّى القضاء (٩) . وتتحدّث المصـادر عن نشأة ابي القاسم هذا ، فتقول : « إنه من أهل بيت فقـه وعلم » (١٠). وربما ساهمت شهرة ابـن رشد الحفيد وابن رشد الجَـدّ ، في قلّة المعلومات التي وصلتنا عن ابـي القاسم . وتوفي والـد ابن رشد سنة ٥٦٣ هـ. (١١) . وهـذا يعني أن الأديب الفيلسوف ابن رشـد ، قد ذاعت شهرته العلميـة في حياة والـده .

أما جَدُّه محمـد بن أحمد بن أحمد بن رشـد (١٢) فيُروَى ان أصلـه من بلـدة سرقسطة (١٣) . وكان قاضـي الجماعة بقرطبة ، وصاحِبَ الصلاة بالمسجـد الجامع بها ، يكنى أبـا الوليد ... وكان قطبها ، عالما حافظا للفقـه ، مقدَّمًا فيه على جميع أهـل عصره ، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابـه ، بصيرًا بأقوالهم واتّفاقهـم واختلافهم ، نافذا في علـم الفرائض والأصول ، من أهـل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الديـن والفضل والوقار والحلم والسمت ، والهدي الصالح .

ويستمرّ صاحب كتـاب الصلة فيقول : "سمعت الفقيه ابـا مروان عبد الملك بـن مسرة صاحبنا اكرمه اللـه ، ومكانه من العلم والفضل والثقة مكانه ، يقـول : شاهدت شيخنا القاضي ابـا الوليد ، رحمه اللـه ، يصوم يوم الجمعة دائمـا في الحضر والسفر" (١٤) .

---

(٧) العبـر ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ ، شذرات الذهـب ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ .

(٨) Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٩) المصـدر نفسـه .

(١٠) بغيـة الملتمس ، ص ١٥٦ .

(١١) المصـدر نفسـه .

(١٢) النباهـي ، ص ٩٨ .

(١٣) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، مـن هامش الأصل ، قـال عمر بن دحية : أصله من بلـدة سرقسطة .

(١٤) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ : النباهـي ، ص ٩٨ .

ولـد أبو الوليد ابن رشد (الجـد) في شوال سنة ٤٥٠ هـ. (١٥) . وقد روى عن ابـي جعفر احمد بن رزق الفقيه ، وعـن أبي مروان ابن سراج ، وأبي عبد اللـه بن خيرة ، وأبي عبد اللـه محمد بن فرج ، وأبي علـي الغساني ، وأجاز لـه أبو العباس العذري ما رواه (١٦) .

وتَقلَّد ابـو الوليد القضاء بقرطبة ، وسار فيه، على حـدّ تعبير الروايـة، بأحسن سيرة واقوم طريقة ، ثـم استعفى عنه فأعفـى ؛ ونشر كتبـه وتواليفه ومسائله وتصانيفه (١٧) . ومـن تواليفه كتاب المقدمـات الأوائـل كتب المدوَّنـة ، وكتاب البيان والتحصيل لمـا في المستخرجة من التوجيـه والتعليل ، واختصار المبسوطـة ، واختصار مشكل الآثـار للطحاوي، الى غير ذلك من تواليفه . ويعقّـب على ذلك صاحب كتاب الصلـة بقوله : « سمعنا عليـه بعضها ، وأجاز لنـا سائرهـا » (١٨) .

ومن مؤلفاته ايضـا ، « الفتاوى » (١٩) . فقد جمـع ابن الفران، شيخ الجامع الكبير فـي قرطبة، فتاوى ابي الوليد ابـن رشد (الجدّ) ، في كتاب خَطّـي (٢٠) . ولا شك أن هذه المكانـة العلمية الرفيعة التي كان يشغلها الجـد ، قد كان لها آثارهـا العميقة وطوابعها الواضحة في شخصية ابـن رشد (الحفيد) وتكوينه العلمـيّ والثقافيّ . وتوفي ابو الوليد ابن رشد (الجـد) ، ليلة الأحد ، ودفـن عشي يوم الأحد الحادي عشر مـن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائـة ، ودفن بمقبرة العباس ، وصلّى عليه ابنه ابـو القاسم ، وشهده جمـع عظيم من الناس ؛ وكـان الثناء عليه حسنا جميلا (٢١) . وهكذا فقد ولـد أبو

---

(١٥) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٦) المصـدر نفسـه .
(١٧) النباهـي ، ص ٩٩ ، الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٨) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٩) الأعـلام ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .
(٢٠) يوجد هـذا المخطوط ، على حـد رواية الجامعة / فرح انطون ، ص ٨ في مكتبة باريس وقد نقـل اليها من دير سان فيكتور فـي اسبانيا .
(٢١) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

الوليد ابن رشـــد (الحفيد) سنة ٥٢٠ هـ. بقرطبة ونشـــأ فيها ، في بيت علـــم وفضل، ممّا كان له أكبر الأثر في تكوينـــه الفكري والثقافي .

مجريـــات حياتـــه :

ولـــد ابن رشد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ، ونشأ فيهـــا حيث درس الفقه والطبّ وعلـــوم الأوائل ، وتتلمذ على مشاهير علمائهـــا ... وفي سنة ٥٤٨ هـ. نـــراه في مراكش ، حاضرة الدولـــة الموحّديّة التي بسطت سلطانها علـــى الأندلس والمغرب . وربما كان ابـــن طُفيل ، المفكّـــر المشهور ، وطبيب البـــلاط الموحّدي، هو الذي أشـــار عليه بالقدوم الى عدوة المغرب ؛ اذ قـــام ابن طُفيل بتقديم « ابن رشـــد » الشاب الى أبي يعقوب يوســـف سلطان الموحّدين ؛ وتروي لنـــا المصادر قصّة هذه المقابلة التي كـــان من نتائجها حثّ ابن رشـــد بوضع شروحٍ مُيَسَّرة لأرسطـــو ... (٢٢) .

وتعاقبت الأحداث في حياة ابن رشـــد ... ففي سنـــة ٥٦٥ هـ. تولّى القضاء باشبيلية ، وبعـــد ذلك بسنتين أصبح قاضي قرطبـــة . وبالرغم من مشاغله الكثيرة ، فقـــد ألّف أهمّ كتبه في هـــذه الفترة ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي سنة ٥٧٨ هـ. استدعاه يعقـــوب المنصور، الذي خلف أبـــاه يوسف، لكي يصبح طبيبـــه بمراكش ، فقد تقدمت السن كثيرا بابن طفيل . ولـــم يلبث ابن رشد طويلا في البـــلاط الموحّدي ، اذ نـــراه بعد فترة قصيرة يعود الـــى قرطبة ، لكي يشغل فيها منصـــب قاضي القضاة .

كان ابن رشـــد ذا حظوة عند خليفة الموحّدين ، يعقـــوب المنصور، في بداية الامر، ثـــم مالبث ان نقم عليه ، بعـــد ان اتُّهم بالزندقة . فأمر الخليفة باحراق كتـــب الفلسفة ، ما عدا كتب الطـــبّ والحساب ، وفرض على ابن رشـــد أن يقيم في « اليسانة » وهي بلـــد قريب من قرطبة ، كانت أولا لليهود ، وأن لا يخـــرج عنها (٢٣) . وقد نقم السلطان أيضـــا

---

(٢٢) انظـــر : Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٢٣) انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

على جماعة أخرى من الفضلاء الأعيان ، وأمر ان يكونوا في مواضع اخر ، واظهر انه فعل لهم ذلك بسبب ما يُدَّعَى فيهم انهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل . وهم ابو جعفر الذهبي، والفقيه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم، قاضي بجاية، وابو الربيع الكفيف ، وابو العباس الحافظ الشاعر القرابي (٢٤) .

وفي الحديث عن نهاية محنة ابن رشد ورفاقه يقول ابن أبي اصيبعة : « وبقوا مدة، ثم ان جماعة من الأعيان باشبيلية شهدوا لابن رشد انه على غير ما نسب اليه ، فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وجعل ابا جعفر الذهبي مزوارا للطلبة ومزوارا للأطباء (٢٥) .

وقد أورد « رينان » قطعة من سيرة ابن رشد للأنصاري (وفق مخطوط المكتبة الامبراطورية ملحق عربي سنة ٦٨٢ ، ص ٧) جاء فيها عن محنة ابي الوليد : (٢٦)

« فكمدت سوق السعايات ، وضرب عن كل طالب ومطلوب ، والأعداء كانوا لا يسأمون من الانتظار ، ويرقبون أوقات الضرار ، فلما كان التلوُّم من المنصور بمدينة قرطبة ، وامتدّ بها أمد الاقامة ، وانبسط الناس لمجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آفاقهم ، وقوي تالبهم واسترسالهم ، فأدلوا بتلك الالقيات، وأوضحوا ما ارتقبوا فيه من شنيع السوءات ، الماحية لأبي الوليد كثيرا من الحسنات . فقُرِئت بالمجلس، وتُدووِلَت اغراضها ومعانيها، وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلَّت عليه اسوأ مخرج . وربما ذيَّلها مكر الطالبين ، فلم يكن عند اجتماع الملأ الا المدافعة عن شريعة الاسلام ؛ ثم آثر الخليفة فضيلة الابقاء ، وأغمَد السيف التماس جميل الجزاء ، وامر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه مُرِقَ من الدين ، وانه استوجب لعنة الضالين . واضيف اليه القاضي أبو

---

(٢٤) المصدر نفسه .
(٢٥) انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .
(٢٦) انظر : رينان ، ص ٤٣٨ ـ ٤٤٤ .

عبد اللـــه ابن ابراهيم الأصولي في هـــذا الازدحام ، ولُفَّ معه في حريق هذا الملام ، لأشياء ايضـــا نقمت عليه في مجالس المذاكرة ، وفي اثنـــاء كلامه مع توالي الأيـــام ... » ثم يستمر الانصاري في الحديـــث عن الاجتماع بالجامع الأعظم بقرطبـــة ، الى أن يقول : « فنالهم مـــا شاء اللـــه من الجفاء ، وتفرّقوا علـــى حكم من يعلم السرّ واخفى ؛ ثـــم أمر ابو الوليد بسكنى اليسانة ، لقول من قال : انه ينسب في بني اسرائيل ، وانه لا يُعْرَف لـــه نسبة في قبائل الأندلس ... » ثـــم يتابع الحديث عـــن ابن رشد وصاحبه الذي لفـــه الحريق معه فيقـــول الانصاري « وليس في زمانهما مـــن بكمالهما ولا من نسج علـــى منوالهما ، وتفرق تلاميذ ابي الوليـــد ايدي سباء » (٢٧)

ومـــن الواضح انَّ هنالك اسبابـــاً خفيَّة قد دفعت الى نكبـــة ابن رشـــد : فالأنصاري مثلا يواصل حديثـــه فيقول : « ويذكر ان من اسباب نكبته هـــذه اختصاصه بأبي يحيى اخـــي المنصور والي قرطبة » . وقد أورد ابن ابـــي اصيبعة اسبابا اخرى . قـــال القاضي ابو مروان : « وممّا كان في قلـــب المنصور من ابن رشـــد انه كان متى حضر مجلس المنصور ، وتكلّم معـــه او بحث عنده في شيء مـــن العلم يخاطب المنصور بأن يقول : تسمع يـــا اخي . وايضا فان ابن رشـــد كان قد صَنَّف كتابا في الحيوان ، وذكـــر فيه انواع الحيوان ، ونعت كل واحد منهـــا . فلما ذكر الزرافة وصفها ثـــم قال : « وقد رايت الزرافة عنـــد ملك البربر »، يعنـــي المنصور . فلما بلـــغ ذلك المنصور صعب عليه ، وكان احـــد الأسباب الموجبة في انـــه نقم على ابن رشد وابعده ... (٢٨) .

وكانت هذه المحنـــة التي اصابت ابـــا الوليد ، مناسبة اغتنمها خصومه للتشنيع عليـــه (٢٩) .

وبعـــد عودة الخليفة المنصور الـــى مراكش ، ما لبث أن عفـــا عن ابن رشـــد ورفاقه واستدعاه اليهـــا . ولكنْ ما لبث ابن رشد أن

---

(٢٧) انظـــر : المصدر نفسه .

(٢٨) ابن ابـــي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

(٢٩) انظـــر : النباهي ، ص ١١١ ، رينـــان ، ص ٤٣٧ — ٤٤٤ .

توفي فيها ، بعد ذلك بقليل ؛ فكانت وفاته كما اوردها الانصاري ، ليلة الخميس التاسعة من صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بموافقة عاشر دجنبر . ودفن بجبانة باب تاغزوت . وبعد ثلاثة اشهر حمل الى قرطبة ، فدفن بها في روضة سلفه بمقبرة ابن عباس (٣٠) .

شخصية ابن رشد واثرها في ادبه :

كان لشخصية ابن رشد اثرها العميق في ادبه، فقد طبعته بطابَع العمق والجدية ، ونأت به عن الفنون الأدبية التقليدية ؛ ولا عجب اذا راينا العقلانية والواقعية تطبعان ادبه وانتاجه الفكري في جميع فنون المعرفة ، ولذا كانت الدراية اغلب عليه من الرواية (٣١) .

عُني ابو الوليد ابن رشد بالعلم من صغره الى كبره ، وكانت لهذه الحياة الجادّة آثارها في تكوين شخصيته . فكان على حد تعبير بعض الروايات ، على شرفه ، اشدَّ الناس تواضعا واخفضهم جناحا (٣٢) . ويورد ابن ابي اصيبعة حديثا للقاضي ابي مروان الباجي يقول : « كان القاضي ابو الوليد ابن رشد حسن الراي ، ذكيًّا ، رثّ البزّة ، قويّ النفس ، .. » (٣٣) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان لهذه المقومات الشخصية اثرها البعيد في حياة ابن رشد ، وما تركته من طوابع مميّزة في ادبه . فكان الى جانب السيرة الحميدة ، قد وهب ذاته للعلم والمعرفة ، وقَصَرَ حياته على خدمة وطنه .

فهذا صاحب التكملة يتحدث عن هذه الجوانب في شخصية ابن رشد فيقول : « وولي قضاء قرطبة بعد ابي محمد بن مغيث فحمدت سيرته ، وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة ، لم يصرفها في ترفيع حال ، ولا جمع مال ، انما قصرها على مصالح اهل بلده خاصة ، ومنافع اهل الاندلس عامة (٣٤) . وكان الى ذلك كلّه ،

---

(٣٠) انظر : رينان ، ص ٤٤٢ .
(٣١) انظر : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٣٢) المصدر نفسه .
(٣٣) ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣١ .
(٣٤) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

سمحا كريم النفس،فكـــان يبذل العطاء لقُصّاده ، ويُلام احيانـــا على البذل لمـــن لا يُحبّونه ولا يُكفّون عـــن اتّهامه فيقول : إنَّ اعطاء العدوّ هو الفضيلة ، امـــا اعطاء الصديق ، فلا فضل فيـــه . وقد اعطى مرة رجلا اهانه ، وحذّره من فعل ذلك بغيره لانـــه لا يأمن بوادر غضبه (٣٥) .

واذا كـــان ابن رشد متسامحا في امـــر نفسه ، فانه لـــم يكن متسامحا في امـــر غيره ؛ ومن ذلك قصّته مع الشاعـــر ابن خروف حين هجا ابـــا جعفر الحميري العالم المؤدب ، فقـــد اوجع الشاعر ضربا، وانذره ألاّ يعود لمثلهـــا .

كانت شخصية ابن رشـــد مطبوعة على مزاج الفيلســـوف الحكيم ، تنأى بـــه عن الاتجاه الى تلك الفنون الادبيـــة والفنية ، في الظرف والنغم والايقاع ، كما كـــان الشأن مع جلّة حكماء ذلك العصر واطبائه ، مثـــل ابن طفيل،وابن باجة،وابن زهـــر،وغيرهم . وهكذا كان ابن رشـــد يحسن المساجلة ولا يحســـن المنادمة . ولا يبالي تزييف لغـــة « البلاط » في سبيل تحقيق لغـــة العلم،ورفع الكلفة مـــن مجالس الباحثين فيه (٣٦) . وربما كانت هـــذه الصفات من الأسباب الخفيّة التي ادّت الـــى التنكيل بهذا المفكر الاســـلامي العظيم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد اجمع اكثـــر الدارسين لابن رشـــد على وصفه بانه « اكثر شُرّاح مؤلفات ارسطو عمقـــا » (٣٧) . كان ابن رشـــد معجبا الاعجاب كله بالمعلم الاول « ارسطـــو » .

ولكن يبقى الســـؤال الضخم امام دارس ادب ابـــن رشد ، وهو : الى اي حـــدّ تاثر ابن رشد شخصيا بآراء ارسطـــو وفلسفته في الاخلاق والسياسة والخطابة والشعـــر ؟ وبعبارة اخرى فنحن نتساءل الـــى اي حـــدّ نستطيع ان نعتبر هذه الآراء تمثّـــل فلسفة ابن رشد واتجاهاتـــه في فهـــم العلوم والآداب ؟

---

(٣٥) انظر : العقـــاد ، ص ١٩ .
(٣٦) انظر : العقـــاد ، ص ٢٦ .
(٣٧) انظر : بين الديـــن والفلسفة ، ص ٢٨

ومما لا شك فيه أن هنالك عاملين اساسيين أثّرا في مفهومه المتميّز للأدب ، وهذان العاملان هما شخصيّته الجادة ، وتكوينه الثقافي ، واشتغاله بعلوم الأوائل بانصرافه الى دراسة ارسطو والتعمّق بشرح فلسفته وآرائه .

وان نظرة شاملة في مؤلفات ابن رشد (٣٨) تظهر لنا الطابع العقلاني لأدب أبي الوليد : فمؤلفاته بصورة عامة يمكن تقسيمها الى أربعة اقسام : فهنالك شروح او مصنّفات فلسفية وعلمية ، وشروح أو مصنفات طبية ؛ وكذلك هنالك مصنّفات كلامية وفقهية ، ومصنّفات ادبية ولغوية .

وكان مجال التأليف عند ابن رشد قد تأثر بطبيعة نظرته الفلسفية ؛ فقد حرص دائما على تأكيد ذلك المذهب الفلسفي الذي تميّزت به الفلسفة العربية في الأندلس خاصة ، والفكر العربي بصورة عامة ؛ ونحواه تقسيم الأقيسة الى ثلاثة أصناف : برهانية وجدلية وخطابية . وبناء على ذلك يقسم الناس الى فئات أو طبقات ثلاث متقابلة : هم أهل البرهان ، فالجدليون ، فالخطابيون . وهو يعني بأهل البرهان الفلاسفة أو الخاصة ، وبالخطابيين جمهور الناس الغالب أو العامة ، وبالجدليين طائفة من الناس هي دون الفلاسفة مرتبة ، الا انها مع ذلك تتميّز عن الجمهور ، هم المتكلمون (٣٩) .

وربما يُسْهُل على دارس مؤلفات ابن رشد ، بعد هذا ، أن يصنّفها وفق هذه الأقيسة . فنحن نعتقد مثلا أن كتابة « تهافت التهافت »

---

(٣٨) في مؤلفات ابن رشد انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، التكملة ج ٢ ، ص ٥٤٤ ـ ص ٥٥٥ ، الذهبي ، ص ، رينان ، ص ٧٩ ـ ٩٣ وهما من اكثر القوائم ضبطا وتفصيلا ؛ وهناك نشرة الأب « بونج » عن مخطوطات ابن رشد الموجودة في انحاء العالم . وقد اشارت المصادر ايضا الى تلك القائمة المهمة التي تحوي مؤلفات ابن رشد في المخطوطة رقم (٨٨) بمكتبة الأسكوريال باسبانيا .

(٣٩) انظر : فخري ، ص ٣٣ .

هو مساجلة أدبيـــة قام باثنائها بفحص دقيق،وتأويل عميق متبصّر لكتـــاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي . فهـــو ينعي بحرارة على الغـــزالي حين يصرّح بأنه لـــم يقصد من تهافته بيان الحقّ في نفســـه ، وانما قصد التشويش على الفلاسفـــة ، ونزع الثقة بهـــم ... (٤٠) . وكذلك تستطيع أن تدرج في إطـــار الأدب ، وفق مفهوم ابن رشـــد ، كتابه الذي سمّاه « فصل المقـــال فيما بين الحكمة والشريعة مـــن الاتصال »، وكتاب "منهاج الأدلة في علـــم الأصول"... وغيرها ، دون أن نضـــع حـــدًّا فاصلا بين علم الكلام واثره فـــي الأدب .

امـــا في مجال اللغة ، فقد اشارت المصادر الـــى « كتابه في العربية الذي وسمـــه بالضروري » (٤١) . وكذلك كتابـــه في الكلام على الكلمة والاسم المشتق (٤٢) . وهكـــذا نستطيع القول إن مجالـــه الأدبي قد اتّسم بتلك المعركـــة الفكرية التي تركت أثـــرا عميقا في التفكير الاسلامي ؛ هذا مع العلـــم ان الفلسفة الأدبية لم تشغل ســـوى حيّز صغير فـــي مذهب هـــذا الفيلسوف ، بازاء فلسفته المـــادية . فقد كان الخلاف ، بينه وبين المتكلمين في الفلسفة الأدبيـــة،شبيها بالخلاف بينه وبينهـــم في فلسفتـــه الطبيعية (٤٣) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقـــد كانت شخصية ابن رشـــد واضحة متميزة في أدبـــه،وفي اجتهاده الفكـــري،وفي فلسفته . وإنّ تصانيفـــه التي وسمها بالشروح ، كانت على مستويات مختلفـــة من حيث المنهج والغاية التـــي يرمي اليها . وهو في ذلك كلّـــه كان يميز احيانا ، حتى في هـــذه الشروح ، بين رأيـــه ورأي المتن الذي يشرحـــه .

وهكذا فان شخصية هـــذا القاضي الفيلسوف ، التـــي طُبِعت على الجِـــدّ ، قد تركت آثارها العميقة فـــي مفهومه للأدب . فقد كان

---

(٤٠) انظر : بين الديـــن والفلسفة ، ص ١٩٧ .
(٤١) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٤٢) انظر : رينـــان ، ص ٩٠ .
(٤٣) انظر : فـــرح ، ص ٥٨ .

يتعفّف عن حضور مجالس اللهو والطرب ، مما استباحه جملة من علماء عصره وحكمائه . وقد بلغ من تعفّفه عمّا لا يراه خليقا بعلمه ومكانه من القضاء انه ، « احرق شعره الذي نظمه في الغزل أيام شبابه » . وبذلك ، مع الأسف ، حُرِم الدارسون من مصدر مهم من مصادر دراسة ادبه وحياته .

وفي هذا الاطار العقلاني لمفهوم الأدب ، وتغليبه هذا الجانب على الجانب الفني ، نورد الرواية التالية :

قال ابو الفضل التفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه ابي الوليد ابن رشد والرئيس ابي بكر ابن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما ادري ما تقول ، غير انه اذا مات عالِمٌ باشبيلية ، فأُريدَ بَيْعُ كتبه، حُمِلَت الى قرطبة حتى تُباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأُريدَ بَيْعُ آلاته، حُمِلَت الى اشبيلية (٤٤) .

ارتباط الأدب عند ابن رشد بالحقيقة والمعرفة :

نظر ابن رشد الى الأدب نظرة شاملة وعميقة ، وقد فهم رسالته الأدبية من خلال اتجاهين اساسيين استغرقا حياته الأدبية كلّها . وهذان الاتجاهان يتميزان بالبحث عن الحقيقة وواجب الوجود، من ناحية ، وعن المعرفة التي هي عبادة للخالق ؛ ويلتقي ابن رشد في ذلك مع الفارابي وغيره من المفكرين الاسلاميين الذين يعتبرون البحث عن المعرفة عبادةً للهِ سبحانه وتعالى وتسبيحا له في ملكوته . ولنستمع الى ابن رشد في هذه العبارة التي حُذِفَت على حد تعبير « رينان »، من شرح ما بعد الطبيعة في الطبعات اللاتينية ، وقد ترجمها مسيو « منك » من العبرية .

قال ، قال ابن رشد : « يقوم دين الفيلسوف الخاص على دراسة ما هو كائن ؛ وذلك لأن ارفع عبادة يمكن أن يعبد الله بها ، تقوم

---

(٤٤) النسخ ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

على معرفة ما صنع ، لما يؤدي اليه هذا من معرفتنا اياه على حقيقته كلها . وهذا هو أصلح الأعمال عند الله ... » (٤٥) .

اتجه ابن رشد الى البحث عن الحقيقة ، تاركا لنا في ذلك نتاجا خصبا وادبا رفيعا يقع، على حد تعبير بعض الروايات، في حوالي عشرة آلاف ورقة .

وهو في بحثه عن الحقيقة ، كان له موقف متميّز عن المسائل الكبرى التي اثارت الجدل في عصره وفيما تلاه من القرون الوسطى . فقد ثار الجدل حول مسألة قِدَم العالم ، ومسألة علم الله بالجزئيات ، ومسألة النفس وبقائها ؛ هذا فضلا عن مسألتين أُخريين ، ثار حولهما الجدل واحتدم، وهما : مسألة الصفات الالهية، ومسألة الحقيقتين . والمسألة الاخيرة مؤداها ان حقيقة الشرع وحقيقة العلم والحكمة شيء واحد، يختلف في العبارة ولا يختلف في الجوهر . وقد شَغَلَت هذه القضية اقلام الكتّاب والمفكرين في ذلك العصر . فوضع ابن طفيل قصّته المعروفة « حي بن يقظان »، ووضع ابن رشد كتابه الموسوم « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . فالفكرة التي املت على ابن طفيل قصته ، هي ذاتها التي املت على ابن رشد كتابه . وان الفرق بين الأسلوبين يعود الى الفرق بين شخصيّتَي الكاتبين .

فابن طفيل ، كما يبدو من أخباره وآثاره ، صاحب مزاج طريف ، يُحسن فنَّ المنادمة والمسامرة ، في حين ان شخصية ابن رشد الجادة ، ونظرته العقلانية الى الأشياء ، قد تردد اصداؤها في ادبه ، مما حدا بمن ترجموا له بوصفه بأن الدراية كانت اغلب عليه من الرواية (٤٦) . وكان وصفه هذا في مجال الفقه ، ولكنه ينسحب بطبيعة الحال على حياته الثقافية والفكرية كلها . فقد تميز ابن رشد منذ وقت مبكر في

---

(٤٥) رينان ، ص ١٧٦ .

(٤٦) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

مجال الفقـــه ، بالنظرة العقلية والقياس في الأحكـــام . هذا مع العلم أن محصوله في الروايـــة كان واسعا . وان المصـــادر تُحدّثنا مثلا بأنه كان يحفظ الموطّـــأ عن ظهر قلب (٤٧) .

وان نزعة التوفيق بـــين الشريعة والفلسفة تُعتَبَر معقـــد الأصالة والطرافة في تفكيره . امـــا في مجال المعرفة ، فـــلم يَتوانَ ابن رشد في البحـــث والتنقيب عن جميـــع المعارف الانسانية دراسة وتدقيقـــا وشرحا ، وفي مختلـــف الحقول ، في الطـــب والمنطق والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها مـــن صنوف المعارف الانسانيـــة .

فالبحث وراء المعرفـــة ، في نظر ابن رشد يُقرّبُه الى فهـــم حقيقة الخالـــق ؛ فهو عبادة وتسبيح للّـــه في ملكوته ، وبالتالي فان هـــذا المسرى يؤدي بـــه الى فهم جوهر الدين وحقيقته، حيث يُتمّـــم « الوحي » ما عجز عنه العقـــل . وهكذا فان الأدب ونتاج الفكـــر الانساني يرتبط في نظر ابن رشـــد بالحقيقة والمعرفة من حيث الغايـــة والهدف .

الخطابة عند ابـــن رشد :

وفي هذا الموضوع لا بُـــدَّ لنا أن نقف عند كتـــاب « تلخيص الخطابة »، حيث يبدأ ابن رشـــد الكلام فيه في كل فقرة بقوله : « قال » ثـــم يورد بضع كلمات من أوائـــل الفقرة، ويمضي بعد ذلك فـــي الشرح ، دون أن يتميز مـــا لأرسطو مما لـــه هو ذاته ، ويستطرد أحيانا ويأتي بكثير من الأمثلة من عنـــده، ولكنه في هذا كلّه يتابع ترتيـــب النص الاصلي لأرسطو ويتقيّد بـــه . ويتوسع أحيانا ، فيزيد كثيرا عـــن حجم نص أرسطو (٤٨) . وقد فرغ ابن رشـــد من كتابه هذا يـــوم الجمعة الثالث من شعبان من عـــام سبعين وخمسمائة ، بقرطبـــة (٤٩) .

وقد تَوسَّع ابـــن رشد في ايضاح معاني أرسطـــو التي يذكرها النص ؛ وهو يعترف فـــي نهاية الكتاب أن ما سَجَّله لـــم يتعدَّ فهمه

---

(٤٧) انظر : رينـــان ، ص ٦٣ .
(٤٨) انظر : تلخيص الخطابـــة ، ص ر .
(٤٩) تلخيص الخطابة ، ص ٣٣٢ .

واستيعابه لهذه النصوص ، اذ يقـول : « وقد لخصنا منها مـا تأدى الينا فهمه،وغلب على ظننا انـه مقصوده ؛ وعسى اللـه أن يُمنّ بالتفرغ التام ، للفحص عـن نص أقاويله في هذه الأشيـاء (٥٠) .

وان هذا الاتجاه يحملنا على الاعتقاد بطابع ابن رشـد وشخصيته في هذه الشروح ، ولا سيمـا في « تلخيص الخطابة »؛فتراه مثـلا يستبدل في كتابه هـذا بالأمثلة اليونانية نظائرها في اللغـة العربية ، متلائما مع البيئة العربية الاسـلامية التي يكتب لها ويعيش فيهـا ؛ فيورد شواهد من الفقـه والتاريخ الاسلامي واللغة العربية . وقد نجـح ابن رشد نجاحا كبيرا فـي تطبيق القواعد والنماذج التي يذكرها ارسطو ، على اللغة العربية وتراثهـا ، ولا سيما في المقالة الثالثة : أقسام فـن الخطابة ، في صفات الأسلوب ... الـخ (٥١) .

فان ابن رشـد يتبنّى مذهب « المعلم الأول » ارسطـو في الخطابة، كما يتبناه في الشعـر ، كما سنرى فيما بعد.« فصناعة الخطابـة » تناسب صناعة الجـدل ، وذلك أن كلتيهما تؤمّان غاية واحـدة وهي مخاطبة الغير ... ويوجـد استعمالهما مشتركا للجميع ؛ اعنـي أن كـلّ واحد من الناس يستعمـل، بالطبع، الأقاويل الجدليـة والأقاويل الخطابية ... (٥٢) . وفي موضع آخـر يقول : « وكلّ واحد مـن الناس يوجد مستعملا لنحو مـا من انحاء البلاغة ، ومنتهيا منها الـى مقدار ما ، وذلك في صنفـي الأقاويل اللذين احدهما المناظـرة،والثاني التعليم والارشاد . واكثر ذلـك في الموضوعات الخاصة بهـذه الصناعة،وهي مثل الشكاية والاعتذار وسائر الأقاويل التي في الأمور الجزئية ... (٥٣) .

فالكلام عنده علـى مذهب ارسطو ، مركّب مـن ثلاثة : من قائل ، وهو الخطيب؛ومـن مقول فيه ، وهو الذي يعمل فيـه القول ؛ ومن

---

(٥٠) تلخيص الخطابة ، ص ٣٣٢ .
(٥١) انظر : تلخيص الخطابة ، ص ٢٤٨ ـ ٣٣٢ .
(٥٢) تلخيص الخطابـة ، ص ٣ .
(٥٣) تلخيص الخطابـة ، ص ٤ .

الذين يوجه اليهم القول ، وهم السامعون . والغاية بالقول انما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين . والسامعون لا مَحالة إمّا مُناظِر ، وإمّا حاكم ، وإمّا المقصود اقناعه ... والحاكم في الأمور المستقبلة ، هو الرئيس ، والحاكم في الأمور الكائنة هو الذي ينصبه الرئيس مثل القاضي في مدننا هذه وهي مدن الاسلام . واما الناظر فانما يناظر بقوة الملكة الخطابية (٥٤) .

ولنستمع لابن رشد كيف يطبّق نظريات أرسطو في تفصيل الأقاويل الخطابية على نصوص من اللغة العربية ، بل يستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم . قال : والمكرور والمعاطف في الأقاويل الخطابية ، هو ان يكون أول القول وآخره بلفظ واحد، أو قريب من الواحد .وهذا مثل قولهم : « القتل انفى للقتل » ، ومثل قوله تعالى (الحاقة ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة) .. (٥٥) .

وهنالك امثلة كثيرة ؛ بل ان المقالة الثالثة كما أشرنا سابقا ، هي محاولة جادَّة من ابن رشد ، لكي يتمثَّل نظريات أرسطو في الخطابة ويطبقها على اللغة العربية وآدابها . ولنستمع اليه يقول :

« واما الأسماء المترادفة ، فصالحة جدًّا لصناعة الشعر ، وقد تصح ايضا لصناعة الخطابة . والشاعر يستعمل هذا الصنف لأسباب أخصّها به استعمالها لتصحيح الوزن والقافية ، مثل قوله :

« وهِنْدٌ اتى مِن دونها النأيُ والبُعدُ » (٥٦) .

فابن رشد يشير بهذا النص الى بيت للحطيئة من داليّته المشهورة التي يمدح بها بغيض بن عامر ، ومطلعها :

« الا طَرَقَتْنا بَعدما هجعوا هِندُ ــ وقد سِرْنَ خَمساً وآتلأبَّ بنا نَجدُ » .

وتمام البيت الذي استشهد به ابن رشد هو :

---

(٥٤) تلخيص الخطابة ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .
(٥٥) تلخيص الخطابة ، ص ٢٨٨ .
(٥٦) تلخيص الخطابة ، ص ٢٦٣ .

ألا حَبّذا هِندٌ وأرضٌ بها هِندُ : وهِنْدٌ اتي مِن دونها النأى والبعد

وفي حديثه عن توابع الالفاظ ، يقول :

« وينبغي أن تعلم أن الأخذ بالوجوه (٥٧) ليس له غناء في الخُطَب المكتوبة، وانما غناؤه في المَتْلُوّة ؛ وان عادة العرب في استعمالها قليلة . وأما من سلف من الأمم ، فربما أقاموها في الأشعار مقام الالفاظ ، أعني التشكيلات ، ويحذفون اللفظ الدالّ على ذلك المعنى إما ارادة للاختصار ، وإما طلباً للوزن والالذاذ ؛ وهذا لم تجر به عادة العرب . ولهذا صار ما يقول ارسطو في كثير من هذه الأشياء ، كما يقول ابو نصر ، غير مفهوم عندنا ولا نافع . والأخذ بالوجوه انما هو نافع أكثر في الخطب التي تتلى على جهة المنازعة ، لأنه انما يحتاج الى الاستعانة بجميع الأشياء المقنعة في موضع المنازعة لتحصل الغلبة .

وأمثال هذه الخطب هي الخطب التي كانت بين علي ومعاوية . وأمثال ذلك في الأشعار ، كالأشعار التي كانت بين جرير والفرزدق (٥٨) .

وهكذا فقد أضاف ابن رشد اضافات أصيلة في الشروح التي وضعها على مصنّفات ارسطو . ولم يكتفِ بالنقل ، بل ترك آثار عبقريته الفذّة على تلك النظريات والآراء ، التي قامت بدور مهمّ في النهضة الأدبية فيما بعد .

ابن رشد والشعر :

لم يكن ابو الوليد ابن رشدا شاعرا ولا ذا طبيعة شعرية ؛ فان اتجاهه الفكري ، وما جُبِل عليه من جدّية في التفكير والسلوك ، كانا ينأيان به عن حياة الفن والشعر .

ولم يكن ابن رشد في عالم الشعر، مع ذلك كله ، بأقل من أولئك النجباء ، الألبّاء من نظرائه من كبار الفلاسفة ، والأطباء والفقهاء ،

---

(٥٧) وقد عرّف « الأخذ بالوجوه » بقوله : « الأمور المستعملة مع الالفاظ على جهة المعونة في جودة التقسيم وايقاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود » . انظر : تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٠ .

(٥٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

كابن سيناء وابـــن حزم وغيرهما ، في المشرق ، كما هـــو في المغرب والأندلس ؛ وقد كان الشعر في الأندلس،على حـــد تعبير بعض الروايات ، سائرا على جميع الألسنـــة في الأندلس : فالشعر يجري علـــى ألسنة الرجال كما يجري على ألسنـــة النساء ، ويجري على ألسنـــة الشعراء كما يجري على ألسنـــة الفقهاء والعلماء . ولكنَّ شعـــر هؤلاء العلماء لم يكن ليتجاوز النظـــم والتاليف المحكم بين المقاطع والالفاظ . ونحـــن اذا استثنينا بعض الأمثلـــة القليلة ، فاننا نستطيع القـــول : إن جميع هؤلاء العلماء قـــد نظموا الشعر وانتحلوه ، دون أن يكونـــوا ذوي شأن في مجال الغنائية أو الفـــن ، ولكنه حلية يتَّصف بها كـــل نجيب . وكان ابن رشـــد من كبار هؤلاء النجباء الألبّاء ، فلا بـــدّ من أن يضيف الشعر الى جملة علومـــه وكفاياته .

فهذا ابـــن الأبار يصفه فيقـــول :

« وكان يُفزَع الـــى فتواه في الطب كما يُفزَع الـــى فتواه في الفقه ، مع الحظّ الوافر مـــن الاعراب والآداب . حَكَى عنـــه ابو القاسم بـــن الطيلسان انـــه كان يحفظ شعر حبيب والمتنبـــي ، ويُكثر التمثّل بهما في مجلسه ، ويورد ذلك أحســـن ايراد » (٥٩) .

ويحدّثنا ابـــن سعيد ، صاحب المغرب ، وقد كـــان قريب عهد من الفترة التي عاش فيها ابـــن رشد ، فيقول : « ادركه والدي وقـــرأ عليه ، وقال في وصفـــه الشقندي : « فقيـــه الأندلس ، وفيلسوفها الـــذي لا يَحتاج في نباهته الى تنبيـــه » . وانشد من شعره قولـــه :

مـــا العِشـــقُ شأني ، ولكـــنْ لستُ أُنكِرُهُ
كـــم حَـــلَّ عقـــدةَ سلوانـــي تَذَكُّـــرُهْ

مـــن لـــي بِغَضِّ جفوني عـــن مخبِّرة الـــ
أجفـــان قـــد اظهَرَتْ مـــا لســـتُ أُضْمِرُهْ

---

(٥٩) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

لــولا النُّهــى لأَطعْــتُ اللَّحْــظَ ثانِيــةً
فيمــــن يَــرُدُّ سِنــــا الالحــاظ مُنْظَــرُهُ

مـــا لابْــنِ سِتّــينَ قادَتْــه لِغايَتِــهِ
عشريــــةٌ فنــــأى عنــــه تَبَصُّــــرُهُ

قــد كــان رضوى وقــاراً فهــو سافيــةٌ
الحُسْنُ يــورِدُه ، والهون يُصــدِرُهُ (٦٠) .

وفي هــذا الموضوع ، يتحدث الفيلســوف الفرنسي المشهور ، ارنست رينــان،فيقول :

« ونعلم من ليــون الافريقي أن ابن رشــد كان قد نظم عدة قصائد خلقية وغزلية ، فأحرقهــا في مشيبه ؛ وينقل ليون الينا قطعة منهــا تجعلنا نفترض بالحقيقــة ، كون الحكمة ، من بعض النواحي ، لــم تأت ابن رشد الاّ مــع السنين .. (٦١) . ومهما يكن من أمــر ، فقد راض ابن رشد نفسه علــى التوقّر فبالغ في رياضتهــا ، وربّما دفعه ذلك الى حرق أشعــارٍ نظمها في صباه ؛ وبذلك،مع الأســف، فَقَدْنا لونًا مهمًّا من نتاج عبقريته ، يمكــن أن يُلقي ضوءا على حياته الخاصــة ونتاجه الأدبــي .

لــم يكن ابن رشد ممن نَظَــم الشعر وانتحله ، على مذهب نظرائه من العلماء والفلاسفة،ولكنه كان لــه موقف من الشعر ، بصورة عامــة ، يتداخل مع موقف ارسطــو ونظريته في الشعر . والواقــع أن تلخيصه « فــن الشعر » لارسطو يشهد بعلوّ كعبه في الادب العربــي ، ولا سيما شعر مــا قبل الاسلام .

وتجــد في كل صفحة من هذا الكتاب ، على حــد تعبير المستشرق الفرنسي ارنست رينــان ، استشهادا بعنترة وامرىء القيس والأعشــى والنابغة وأبي تمــام والمتنبي وكتاب الأغانــي ... (٦٢) .

---

(٦٠) المغــرب ، ج ١ ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .
(٦١) رينــان ، ص ٦٢ ــ ٦٣ .
(٦٢) انظر : رينــان ، ص ٦٣ .

ويربط ابن رشد بين الموسيقى والشعر ، كما هو الأمر عند ارسطو ؛ فالموسيقى بنظره تُعْنَى بتثقيف النفس وتمريسها على الفضائل الخلقية . وهو يعني بالموسيقى الأقاويل المحلية ذات اللحن ، على حد تعبيره . فكانت بهذا الفن خادمة لصناعة الشعر الذي يؤثر في الصِبْيَة والأحداث اكثر من الخطابة والبرهان — وهما ضربان من ضروب الاقناع — . فاذا رقوا عن هذا الطور استُعمِلَت معهم الأقاويل الخطابية والجدلية ، وفي الطور الأخير البرهانية التي يراد بها الفلاسفة او الحكماء خاصة (٦٣) .

فابن رشد ينظر الى الشعر وفق نظرة ارسطو ، وذلك من خلال وظيفته في التربية وتأثيره في الناشئة ؛ ومن ناحية اخرى فانه يرى فيه صنفا من صنوف الاقناع ؛ والاقناع احد سبيلين رئيسيين لغرس الفضائل في نفوس سكان الدولة . فالأقاويل الخطابية والشعرية يخاطَبُ بها الجمهور ، وقد اعتمدها ايضا افلاطون في « الجمهورية » (٦٤) .

فابن رشد يقف من الشعر من خلال وظيفته التربوية موقفا هادفا ؛ فمن القصص التي ، كما يقول ، ينبغي نبذها ما كان حاثًا على طلب اللذة او على ابتغاء المال ، لانها تحول دون التمرُّس بحياة الجندية . وهذه المفاسد ، كما يقول ابن رشد ، يكثر ذكرها في اشعار العرب ، « فلم يكن اضر من تلقينها للصبية منذ نعومة اظفارهم » ؛ وهو ما درج عليه معلموهم منذ القدم (٦٥) .

لا شك أن ابا الوليد يقف موقفا انتقائيا من الشعر العربي في مجال التربية . وهذا أمر ينسجم والأهداف التربوية السامية ، التي رسمها منذ البداية ، من وجوب غرس الفضائل في نفوس ابناء المدينة الفاضلة . ولا يمكن ان يكون هذا الموقف حُرْها للشعر العربي

---

(٦٣) انظر : فخري ، ص ١٢٣ .
(٦٤) انظر : فخري ، ص ١٢٣ .
(٦٥) انظر : فخري ، ص ١٢٦ .

بصورة عامة ، وهو الذي كـــان يحفظ شعر حبيب والمتنبـــي ، ويُكْثِر التمثل بهمـــا في مجلسه .

كان لابن رشـــد باع في قول الشعر ، ولكنّه لـــم يكن يمثل جوانب عبقريته المشرقة ؛ وكانت لـــه آراء ونظرات فنية ونقدية فيـــه امتزجت بآراء ارسطـــو ونظرته للشعر امتزاجا كلّيّـــا . ونحن نعتقد أن ابـــن رشد قد حالفه التوفيـــق في مجال الشعر كما حالفه في مجـــال الخطابة ، من حيث محاولتـــه لتطبيق نظريات ارسطـــو على نماذج اصيلة في اللغة العربية وآدابهـــا ، شعرا ونثرا ...

ادب ابـــن رشد ونزعته الانســـانية والاجتماعية :

لقـــد ذاع صيت ابن رشد بين « اللاتين » الأمريـــن ، لكونه طبيبا وكونه شارحا لأرسطو ؛ بيـــد أن فخره شارحا أعظم من فخـــره طبيبا بمراحل . فمهما يكـــن من شهرة نالتها « الكليات » لـــم تبلغ ما ناله « قانون » ابن سيناء مـــن اعتبار بالغ (٦٦) . وانما انتهـــى بشرحه الأكبر الى تكوين قطب ثبـــت في الفلسفة ، « فالطبيعة تفسر بارسطـــو، وارسطو يفسر بابـــن رشد » (٦٧) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وألّفَ ابن رشد، عـــدا هذه الشروح ، عددا كبيرا مـــن الكتب يُعْسُر احصاؤها تماما . وقـــد شَمَلَت مؤلفاته مختلف مجـــالات المعرفة الانسانية : في الفلسفة ، وعلـــم الكلام ، والفقه ، والفلك ، والطـــب ، والنحـــو ، واللغـــة .

ونحن اذا تجاوزنـــا مفهوم الأدب من حيث هو نتاج فكري هدفـــه التسلية والموعظة الى مفهوم أعـــمّ ، وذلك من حيث هـــو نتاج فكري يؤثر الكاتب من خلاله فـــي القارىء ويحركه نحو الأفضـــل ، نكون قد اقتربنا كثيرا لكـــي نصنّف في هذا الاطار مجموعة مـــن مؤلفات ابن رشد الأدبيـــة ، وأهمّهـــا :

---

(٦٦) انظر : رينـــان ، ص ٧٣ .
(٦٧) المصـــدر ذاتـــه .

١ ــ كتاب « تهافت التهافت » ، وقد وضعه ابن رشد لكي يدحض به كتاب الغزالي الذي عنوانه « تهافت الفلاسفة » .

٢ ــ كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وقد حاول فيه ابن رشد أن يوفّق بين الشريعة والفلسفة .

٣ ــ كتاب « الكشف عن مناهج الأدلّة » .

ولكي نستطيع أن نفهم اتجاهات ابن رشد في مصنّفاته المختلفة ، لا بُدَّ لنا أن نتعرف على نظرة ابن رشد للكاتب ، من ناحية ، ولنوعية الجمهور الذي يكتب اليه من ناحية اخرى . فالناس في نظره مختلفون حسب استعداداتهم وقدراتهم ، ومن هذا التفاوت في الفِطَر والعقول ، جعل الناس على حد تعبيره طوائف ثلاثا :

١ ــ الخطابيّون ، وهم الجمهور الغالب الذي يصدق بالأدلة الخطابية .

٢ ــ أهل الجدل ، ومنهم رجال علم الكلام ؛ وهم الذين ارتفعوا من العامة ولكنّهم لم يصلوا لأهل البرهان اليقيني .

٣ ــ البرهانيون ، بطبعهم وبالحكمة التي أخذوا أنفسهم بها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبناء على ذلك يقول ابن رشد بانقسام الشريعة الى ظاهر له اهله ، وهم العامة واشباههم ، وباطن له اهله ، وهم ذوو البرهان (٦٨).

وان نظرية ابن رشد في التعلُّم تقوم على هذه الفروق الفردية ، اذ كان ينادي دائما « بأنَّ جَعْلَ الناس شرعا واحدا في التعلُّم خلاف المحسوس والمعقول » ؛ هذه النظرية التي كانت معروفة جيدا عند الكثير من الفلاسفة قبله ، مثل الفارابي وابن سيناء وغيرهما ...

كان ابن رشد يرى وجوب تقيد الكاتب بنوعية الجمهور الذي يكتب اليه . فقد حرم مثلا الحديث مع الجمهور في علم الله على النحو

---

(٦٨) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ٩٣ .

الفلسفي . وقد اخذ على الغزالي اثباته التأويل في غير كتب البرهان ، وتقديمه ذلك الى جمهور الناس . وشجب المتكلّمين ، وبخاصة المعتزلة ، انهم بتأويلهم التي صَرَّحوا بها للجمهور ، أوقعوا الناس في شتات وتباغض وحروب ، ومزقوا الشرع (٦٩) .

ولكننا نجد ابن رشد يقع في مثل هذا الطبع ، فيعتذر بأن الجمهور قد عرف من اولئك الذين يلومهم هذه التأويل . فكان لا بدَّ له ان يتكلم فيها ، وذلك لبيان الحق من جهة ، ولدفع الأذى عن الجمهور من جهة اخرى .

وان هذا اللون من الكتابة التي خرج بها من اطار كتب الخاصة ، اهل البرهان ، الى نطاق العامة ، اهل الجدل والخطابة ، ليست في جوهرها سوى مساجلات ومناظرات كتابية ، يحاول الكاتب دحض آراء خصومه ، واصلاح ما أفسدته ، على حد تعبيره ، لدى الجمهور . بل ينصّ احيانا ان بعض الأفكار ، لا سبيل الى انشائها في هذا الكتاب ، مما يؤكد ان كتاب « تهافت التهافت » ، ليس من الكتب التي تُدَّخَر للخاصة،وانما هو كتاب للعامة،على حَدّ مفهومه ؛ اذ يقول احيانا في مناقشة بعض الموضوعات : ، « وهذا العلم لا سبيل الى انشائه في هذا الموضع.» (٧٠) .

وان اسلوب ابن رشد في « تهافت التهافت » ، يبتعد كثيرا عن الأساليب البرهانية ، فقد خرج به من هذه الدائرة من حيث الهدف ، ولكنه يتلوَّن احيانا بانفعالية تُخرج الكاتب عن وقاره وموضوعيته الى السباب والتهكم اللاذع .

فيشير الى أبي حامد الغزالي فيقول : « فاتيانه بمثل هذه الأقاويل السفسطائية قبيح ، فانه يُظَنُّ به انه ممن لا يذهب عليه ذلك ، وانما أراد بذلك مداهنة اهل زمانه » (٧١) وهذه تهمة ، ولا شكَّ ، خطيرة يوجّها ابن رشد الى أبي حامد . وفي موضع آخر يقول :

---

(٦٩) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٧٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٢ .
(٧١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٣ .

« قلت : هذا الكلام ،الذي هو جواب عن الفلاسفة ، في نهاية السقوط » (٧٢) . وفي مكان آخر « قلت : هذا كله سفسطائي خبيث » (٧٣) . وكذلك : « هذا بَيِّن بنفسه ؛ وقائل هذا ، هو الملبس ، لا الفلاسفة ، فان الملبس هو الذي يقصد التغليط لا الحق . واذا اخطأ في الحق فليس يقال فيه : انه ملبس » (٧٤) . وفي تعليق له حول بعض الأفكار يقول : « وهذا كله عند الفلاسفة هوس وتخليط » (٧٥) . وكثيرا ما يَتَّهم ابنُ رشد ، ابنَ سينا وشيعته فيقول : « فانظر هذا الغلط ، ما أكثره على الحكماء ؟ فعليك أن تتبين قولهم هذا : هل هو برهان أم لا ؟ أعني في كتب القدماء ، لا في كتب ابن سينا وغيره ، الذين غيَّروا مذهب القوم في العلم الالهي ، حتى صار ظنيا » (٧٦) .

ويتهم أحيانا ابن سيناء،والفارابي أحيانا ، بعدم فهم مذاهب قدماء الفلاسفة ، فيقول : « قلت : هذا كله تَخَرُّص على الفلاسفة من ابن سيناء وأبي نصر ، وغيره ... (٧٧) . وقد يهاجم الغزالي بعنف ، مع دحضه لآراء ابن سينا اذ يقول : « وأما الكلام فيما صدر عنها (أي العقول) فانفرد ابن سينا بالقول الذي حكاه (أي الغزالي) من الفلاسفة وتَجَرَّد هو للرد عليهم ، ليوهم انه ردّ على جميعهم .

وهذا ، كما قال ،"تَعَمُّق ممَّن قاله في الهوس » (٧٨) . وها هو أيضا ينعي على الفارابي وابن سينا مقالهما ، اذ يصيح مندهشا : « والعجب كلّ العجب ، كيف خفي هذا على أبي نصر وابن سينا ، لأنهما أول من قال هذه الخرافات،فقلَّدهما الناس ، ونسبوا هذا القول الى الفلاسفة ... » (٧٩) .

---

(٧٢) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
(٧٣) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .
(٧٤) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .
(٧٥) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .
(٧٦) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠١ .
(٧٧) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠٦ .
(٧٨) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .
(٧٩) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

وان مثل هـذه الاشارات التي تنم عن اسلوب انفعالـي كثيرة جـدا . وهو في اسلوبه هذا قد يَعْنُف الى حـدّ السباب،ويهزأ الى حـد السخرية اللاذعة . ففي مناقشته لبعض آراء أبـي حامد يقول : « فهو صادق في ذلـك ، اذ لم يبلغ الرجـل المرتبة من العلـم المحيطة بهذه المسالة . وهذا هـو الظاهر من حاله فيما بعد .. » (٨٠) .

وقد وقع أبـو حامد الغزالي في تيّار السباب والعنف ايضـا ؛ ولنستمع الى الغزالي وقد جاوز حـدّ الانفعال الى السباب تقريبا اذ يقول :

« قال أبـو حامد رادًّا على الفلاسفـة :

« قلنا : مـا ذكرتموه تحكُّمات ، وهي علـى التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لـو حكاه الانسان عن منام رآه ، لاستدلّ بـه على سوء مزاجـه ، أو أورد جنسـه في الفقهيات ، التي قصارى الطلب فيهـا تخمينات ، لقيل : إنهـا ترّهات ، لا تفيـد غلبة الظنون » .

فهي على حـدّ تعبير أبي حامد ، تحكّمـات ... وظلمـات ... وترّهات ... الـخ . وعندما يناقشه ابن رشد ، يقابله انفعالا بانفعال ، وانتقاصـا بانتقـاص .

يقول ابن رشـد في الرد على الغزالي،بعد أن أورد مـا حكاه سابقا : « قلـت : « لا يبعد أن يعرض مثل هـذا للجهال مع العلماء ، وللجمهور مـع الخواصّ ، كما يعرف ذلك لهـم في المصنوعات ؛ فان الصُنّاع ، اذا أوردوا صفـات كثيرة من مصنوعاتهم على العوام،وتضمنوا الأفعال العجيبة عنهـا ، هزىء بهم الجمهور ، وظنوا انهـم مبرسمون ، وهـم في الحقيقة الذين ينزلون منزلة المبرسمين مـن العقلاء ، والجهال من العلماء . وأمثال هـذه الأقاويل لا ينبغي أن نتلقى بها آراء العلمـاء وأهـل النظـر » (٨١) .

---

(٨٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

(٨١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

وهكذا فنحن نستطيع أن نصنّف كتب ابن رشد هذه خارج دائرة الخاصة ، وانها موجهة الى العامة من القراء،وهي بذلك تخرج من ميدان البحث الفلسفي الرصين ، الى ميدان المساجلات الأدبية واساليبها ... لقد كتب ابن رشد مؤلفاته هذه وقد وجهها الى العامة ، وفق مفهومه ، يريد اصلاح ما افسدته أقوال السابقين . فهو يحاول اصلاح ما افسده سابقوه بالتصريح بآراء مُفسِدة ، وتآويل ضالة ، تلقفها غير اهلها ، فعمَّ بذلك ضررها ... (٨٢) .

وفي هذه المساجلة الفكرية ، يقول العقاد : « فلم يحفظ لنا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قوة المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي ، ومضاء سلاحهما،ونفاذ حججها وبراهينها ... » (٨٣) .

ولم يكن ابن رشد في شروحه المشهورة وفي تصانيفه ، العلمية منها والفقهية والأدبية ، سوى مفكّر عظيم يُوَجِّهُ جميع طاقاته وجهة انسانية رفيعة ، هَدَفُها الأسمى تنمية الفضائل لدى افراد الأمة ، وخلقُ مجتمع اسلامي قويم .

ونحن نلمس هذه النزعة الواقعية في مختلف مصنفاته،الى جانب تلك النزعة الانسانية السامية .

ونحن،اذا استثنينا بعض الاشارات المقتضبة الى قضايا اخلاقية وسياسية ، نلمحها في بعض مؤلفاته ، كتهافت التهافت ، والكشف عن مناهج الأدلة،وسواها ؛ فقد اقتصر ابن رشد في تآليفه في الاخلاق والسياسة ، على شرح الأخلاق الى نيقوماخس . وجوامع سياسة افلاطون ... (٨٤) . وقد فَصَّل ابن رشد في شروحه هذه ما فعله في شرح الخطابة والشعر . فهو لا يكتفي بشرح الجمهورية ، بل يعمد الى تطبيق بعض مبادئها على الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد الاسلامية آنذاك ، وخاصة الأندلس والمغرب .

---

(٨٢) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٨٣) العقاد ، ص ٥٥ .
(٨٤) انظر : فخري ، ص ١١٨ .

فصلاح المجتمع وسعادته ، هو الهدف الأسمى ، الذي كان يرمي اليه ابن رشد في جميع مصنفاته ، العلمية منها والفلسفية واللغوية ؛ فقد ختم كتابه المشهور في ميدان الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، بقوله :

« وينبغي قبل هذا أن يُعْلَم أن السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية ، فمنها ما يرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه ، وشكر من يجب شكره،و في هذا الجنس تدخل العبادات ... ومنها ما يرجع الى الفضيلة التي نسميها « عفّة » ... ومنها ما يرجع الى طلب العدل والكفّ عن الجور ... ومنها السنن الواردة في الأعراض ، ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويمها ، وهي التي يُقصَد بها طلب الفضيلة التي تسمَّى السخاء،وتجنُّب الرذيلة التي تسمى البخل ؛ والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه، وتدخل في باب الاشتراك في الأموال ؛ وكذلك الأمر في الصدقات .

ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط في حياة الانسان وحفظ فضائله العلمية والعملية ... ومن السنن المهمّة في حيّز الاجتماع السنن الواردة في المحبّة والبغضة والتعاون على اقامة هذه السنن ؛ وهو الذي يسمَّى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ... الخ .. » (٨٥) .

فمن الواضح أن ابن رشد يرى أن الدين يرمي بشعائره وأوامره الى غايات انسانية واجتماعية رفيعة ، هَدَفُها صلاح المجتمع وسعادته . وكان لابن رشد ، من خلال ادبه،موقف واضح من أهم القضايا الاجتماعية والسياسية ؛ فقد كان له راي واضح في السياسة، والاجتماع،والتربية،والمراة،وحرية الانسان ؛ ففي مجال السياسة ، فان نظرته كانت مبنية على فلسفة افلاطون ، وقد بسطها في شرحه « جمهورية » هذا الفيلسوف وجوهر تعاليمها ، أنه يجب القاء

---

(٨٥) انظر : بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

زمام الأحكام الى الشيوخ والفلاسفة ليديروها بقسط وعدل . ويجب حث الناس على الفضائل بتعليمهم البيان والعلوم التي تثقف العقل (٨٦) .

ويتناول ابو الوليد ثلاث قضايا هي بمثابة المدخل الى علم السياسة ، وهي :

أولا ـ ما هي الشروط التي ينبغي أن تتوافر لكي توجد هذه الفضائل المشار اليها ... اذ ليس الغرض من هذا العلم معرفة ماهية هذه الفضائل ، كما يقول ارسطو ، بل العمل بها .

ثانيا ـ كيف يمكنُ غرسُ هذه الفضائل في نفوس الاحداث ، بحيث تنمو تدريجيًّا ، وكيف تصان بعد أن تبلغ مرتبة الكمال ؟ وكيف يمكن استئصالُ الشر من نفوس الاشرار .

ثالثا ـ ما هي الصفات والفضائل التي تشتدُّ اذا اقترنت بفضيلة ما ، وتضعف اذا اقترنت بفضيلة اخرى ؟ اي كيف تؤثر هذه الفضائل احداها في الأخرى (٨٧) .

وكان ابن رشد يكره الاستبداد العسكري والاقطاعات العسكرية ، ويرى استغناء الدولة عن القضاة والأطباء ، دليلا على انتظام شؤونها . ويقوم مثل الدولة الأعلى على عدم الاحتياج الى قاض ، ولا الى طبيب ؛ وليس على الجيش واجب غير السهر على حرس الأمة . وما يحدث لو اكلت كلاب الراعي غنمه ؟ وتُعَدُّ إقطاعات الجيش آفة الدول (٨٨) .

وقد رأى ابن رشد أن الحاكم الظالم هو ذلك الذي يحكم الشعب من أجل نفسه لا من اجل الشعب . وأنَّ شرَّ الظلم ظلم الكهنة ؛ وان احوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح ، « فكأنما وصف أفلاطون حكومتهم ، لما وصف في « جمهوريته » الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالا لجميع الحكومات » .

---

(٨٦) انظر : رينان ، ص ١٧٠ ، فرح ، ص ٥٦ .

(٨٧) انظر : فخري ، ص ١٢٢ .

(٨٨) رينان ، ص ١٧٠ ، وهذا النص أورده عن طبيعيات ص ٣١ ـ PRIHERM

ولكنَّ معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم ، واقام مكانه دولة بني امية وسلطانها الشديد ، ففتح بذلك بابا للفتن ما تزال الى الآن قائمة قاعدة حتى في بلادنا هذه (اي الأندلس) . » (٨٩) . أما موقفه من المراة فهو يساوي بين المراة والرجل من حيث الطبيعة فيقول : وتختلف النساء عن الرجال درجة لا طبيعة ، وهنَّ أهل لكل ما يفعل الرجال من حرب وفلسفة . الخ ... ، ولكن على درجة دون درجتهم . وهنَّ يُفقْنَهم احيانا، كما في الموسيقى ، وذلك مع كون كمال هذه الصناعة يقوم على التلحين مِن قِبَل رجل والغناء مِن قِبَل امراة . ويدلُّ مثال بعض الدول الافريقية على استعدادهن الكبير للحرب ؛ ولا يُعَدُّ من الخوارق امكان انتهائهن الى الحكومة الجمهورية . اولا يرى ، كما هو الواقع ، ان اناث الكلاب تحرس القطيع كما تحرس ذكورها ؟ والى هذا اضاف ابن رشد قوله :

« لا تَدَعُنا حالنا الاجتماعية نبصر كل ما يوجد من امكانيات في المراة ؛ ويظهر انهن لم يخلقن لغير الولادة وارضاع الأولاد" .

وقد قضت هذه الحال من العبودية فيهن على قدرة القيام بجلائل الاعمال.ولذا فاننا لا نرى بيننا امراة مزيَّنة بفضائل خلقية . وتمرُّ حياتهن كما تمرُّ حياة النباتات ، وهن في كفالة ازواجهن انفسهم . ومن هنا ، ايضا ، اتى البؤس الذي يلتهم مدننا ؛ وذلك لأن عدد النساء فيها ضعف عدد الرجال ، ولا يستطعن كسب الحاجيّ بعملهن . » (٩٠) .

وتَطَرَّق ابن رشد الى حرية الانسان ، ووصل هذا المفهوم الانساني الرفيع بما ورد عنه في آي القرآن الكريم . فالانسان غير مطلق الحرية تماما ولا مقيَّدُها تماما . وذلك انه اذا نُظِر اليه

---

(٨٩) انظر : رينان ، ص ١٧١ .

(٩٠) رينان ، ص ١٧٠ — ١٧١ وقد نقل النصوص من « طبيعيات » ص ٢١ (PRIHERM) ، ص ٤٨ .

من جهة نفسه وباطنه ، فهو حُرٌّ مطلق لأن نفسه مطلقة الحرية في جسمه . ولكن اذا نُظِر اليه من جهة حوادث الحياة الخارجية ، كان مقيَّدا بها ، لما لها من التأثير على أعماله . « وهو يقول : "ان هذا هو السر في أن القرآن يجعل الانسان تارة مختارا وتارة مقيَّدا . » (٩١) .

ويسير ابن رشد على منوال افلاطون في قضايا التربية ، فيحذِّر في مجال تربية الصغار من التمثيل بالحكايات الكاذبة « أي الأساطير » التي ترسخ في اذهانهم فتُفسِد سريرتهم (٩٢) . وهو على مذهب افلاطون بالتربية الجماعية ، وحاجة الفرد لأقرانه . فقد تبيَّن أن اكتساب المرء لأي من هذه الفضائل دون معونة الأقران مستحيل ، إذ أن الانسان يحتاج الى من عداه ، في اكتساب الفضيلة ؛ فهو كائن مدني بالطبع (٩٣) .

وفي حديثه عن الخصال المكتسبة التي ينبغي على الحاكم أو الرئيس أن يتصف بها ، يرسم ابن رشد منهاجا تربويا واضحا ، فيما يتعلق بالرئيس ، من الطفولة الأولى حتى يبلغ سن الخمسين ، لأنه على حَدّ تعبيره، يجب تفويض الحكومة الى الشيوخ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فبعد أن يتحدث عن الطفولة الأولى للحاكم أو الرئيس ، يقول : ومنها ، اي من الخصال المكتسبة ، الاقبال على العلوم المختلفة والتوفُّر على دراستها . وتبدأ هذه الدراسة بعلم الحساب ، فالهندسة ، فعلم النجوم ، فالموسيقى ؛ وهي علوم لا تُطْلَب من اجل الكمال الانساني ، شيمة الطبيعيات والالهيات ، بل من اجل إعداد الفكر للاقبال على هذين العلمين ... وحين يبلغ الحكّام سنّ السادسة عشرة أو السابعة عشرة ينبغي ان يُقبلوا على تعلم الفروسية حتى سن العشرين ، وعندها يأخذون بتعلم الفلسفة حتى سنّ الثلاثين . فاذا بلغوا الخامسة والثلاثين دُفِعت لهم رئاسة الجيش ، طوال

---

(٩١) انظر : فرح ، ص ٥٨ .
(٩٢) انظر : فخري ، ص ١٢٤
(٩٣) فخري ، ص ١٢٠ .

خمس عشرة سنة ؛ فاذا بلغوا سن الخمسين ، باتوا قادرين على الاضطلاع بمهام الرئاسة وادارة شؤون الدولة ...

أما التربيةُ الأخلاقيةُ لجميع المواطنين ، فهي تقوم،في نظر ابن رشد ، على تلقينهم الفضيلة بتعليمهم الخطابة والشعر والجدل . ولا شكَّ ان فيلسوفنا يقصد الانتقاء في مجال الخطابة والشعر والجدل ، فهي وسائل من أجل تربية الفضيلة في نفوس جميع المواطنين . ومن هنا نستطيع ان نفهم قوله عندما يُعقّب على ذلك قائلا : « والشعر مفسد ، ولا سيما شعر العرب » (٩٤) . فان ابن رشد لا ينال من قيمة الشعر الفنية ، ولم يهدف ان ينتقص من شعر العرب من حيث هو ، ولكنه يرى ان يختار المربي من هذه الاشعار ما يكفل بتلقين الفضيلة ، وتربيتها في نفوس المواطنين .

العلاقة بين الشكل والمحتوى :

يشغل الجدل ، بصورة عامة،مكانة مهمة من مؤلفات ابن رشد . وهو على حد تعبير رينان : « يدخل اليه من الرشاقة ما هو ممتع . ومما كان يقع احيانا ، أن يرتقي بحماسته العلمية ، وكَلَفِه بالفلسفة الى نبرة من الخلقية ، بليغة الى الغاية . ويسود الاسهاب شروحه، ولكن بلا جفاف . وتتجلى شخصية المؤلف فيما يعرف ان يسوقه الى المواضع المهمة من استطرادات وتأملات ... » (٩٥) .

والحقيقة ان هذه الاشارات تُكَوِّن اهم خصائص ابن رشد في اسلوب كتابته . أما جفاف اسلوبه فلا بد لنا ان نستذكر حقيقة مهمة ، حيث ان طبعات كتبه في الحقيقة لا تعرض في نصوصها العربية سوى شرح قام على ترجمة عربية من ترجمة سريانية من اصل يوناني . اما في نصوصها باللغات الأجنبية فهي تقوم على ترجمة لاتينية من ترجمة عبرية . هذا مع العلم ان كثيرا من مصنفاته قد فُقِدَت أصولها العربية .

---

(٩٤) انظر : رينان ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٩٥) رينان ، ص ٦٧ .

وان الدارس لأدب ابـــن رشد ومصنّفاته يمكن ان يلمـــح ركائز يمكن ان تُميِّز نظـــرة ابن رشد في أسلوبه،من ناحية،وفي فـــن الكتابة،من ناحية اخرى . فهنالـــك طبيعة الجمهور الذي يكتب اليـــه الكاتب ؛ وهذه النظرة رايناهـــا واضحة تماما في ابحاثنا السابقة ؛ فهـــو ينادي بأن على الكاتب ان يكون علـــى بصيرة من نوعيـــة الجمهور الذي يكتب اليـــه ، وبالتالي بنوعية الأفكـــار وطبيعة الأبحاث التي يقدمها الـــى قرائه ، والا وقع في خطيئة كبـــيرة،وأدّى جهده الى الافســـاد . « فليس كل صنف من أصناف النـــاس ينبغي ان يُسْتَعْمَل معهـــم البرهان ، في الأشياء النظرية التي يراد منهـــم اعتقادها . وذلك إمّـــا لأن الانسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحـــقَّ ، فاذا سلك بـــه نحو الأشياء التي نشأ عليها ، سَهُل اقناعـــه ، وإمّا لأن نظرته ليست مُعَدَّة لقبـــول البرهان اصلا ، وإمّـــا لأنه لا يمكن بيانه لـــه في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منـــه وقوع التصديق فيـــه ... » (٩٦) .

فهو في ذلك يقـــول بوجود علاقة وثيقة بـــين طبيعة الجمهور وحقائق المعرفة التـــي يمكن ان تُعْرَض عليهم . هـــذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، يجعـــل للانفعالات النفسيـــة دورا مهمًّا نحو استمالة الحكام والناظرين ، حيـــث يقول : ... الأشياء المعينـــة في وقوع التصديق ، مثـــل التكلم في الخوف والرحمـــة والغضب،وما اشبه ذلك من الانفعالات النفسانية التـــي ليست مُعَدَّة نحو الأمـــر المقصود تبيينه أولا وبالذات ، وانمـــا هي مُعَدَّة نحو استمالة الحكـــام والناظرين ، ولذلك كانت كأنهـــا مُوطِّئَة للتصديق لا فاعلة لـــه ... (٩٧) .

ويجعل ابن رشـــد للألفاظ مكانتها في زيـــادة التصديق ؛ وإن هذه المكانة تختلـــف باختلاف طبيعة المعارف ، وذلك على حـــد تعبير ابن رشد،لأن للألفاظ في ذلـــك معونة في زيادة التصديق الحاصـــل عن

---

(٩٦) تلخيص الخطابـــة ، ص ١١ .

(٩٧) تلخيص الخطابـــة ، ص ٥ .

البرهان وقوته ، كالحال في الصنائع الأخرى ، فانها يلفى لها معونة في ايقاع التصديق المستعمل فيها وان كانت في ذلك تختلف .

فأقلُّها حاجةً في ذلك صناعة الجدل ، ثم من بعدها صناعة السفسطة ، ثم من بعدها الخطابة ، ثم من بعدها صناعة الشعر . فهاتان الصناعتان أكثر حاجةً الى ذلك ...

وانما صارت الألفاظ والأصوات تفعل في هاتين الصناعتين هذا الفعل من اجل انها تخيل في المعنى رفعة أو خسة ، وبالجملة امرا زائدا على مفهوم اللفظ ، مثل غرابة اللفظ ، فانها تخيل غرابة المعنى ، ولذلك فخامته تخيل فخامة المعنى . والنغم كذلك يفيد فيه هذا المعنى ... وليس يُقْصد ذلك احد عندما يتكلم على طريق الهندسة ولا على طريق العدد (٩٨) .

فقد ادرك ابن رشد العلاقة الوثيقة بين الشكل والمحتوى ، وقد اقترب في مفهوم ذلك الى المدى الذي لا يرى منه الشكل منفصلا عن المحتوى ، بل ان الصورة مرتبطة ارتباطا عفويا مع المادة . فابن رشد يرى مع ارسطو أن الكون هو تغير في الجوهر ، وانه لا يتكوّن شيء من لا شيء ، بل من موضوع . وهذا على حدّ تعبير ابن رشد في تفسير ما بعد الطبيعة حيث يقول : "... المذهب الذي اخذناه عن ارسطو ، وهو ان الفاعل انما يفعل المركب من المادة والصورة ، وذلك بأن يحرك المادة ويغيرها حتى يخرج ما فيها من القوة الى الفعل ... » .

ان هذه النظرة الفلسفية للعلاقة بين المادة والصورة قد انعكست تماما في موقف ابن رشد من الأدب بصورة عامة ، حيث يرى المادة متصلة اتصالا عفويا بالشكل،وليست منفصلة عنه . وهي النظرة التي يأخذ بها النقد الأدبي في مناهجه الحديثة .

---

(٩٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ .

وربما كانت هـذه النظرة الى العلاقة بـين الشكل والمحتـوى ، بين المـادة والصورة ، وتطبيقها علـى الأدب ، وفق مفهومه العقلاني لـه ، اهمّ قضيّتين يمكن أن يطرحهما الدارس لأدب ابـن رشد . أما القضية الأخرى ، فقـد أشرنا اليها فيما سبق،وهـي ارتباط الأدب بالحقيقـة والمعرفة ، في نظـر ابن رشد ...

ابن رشد في مجـال اللغة والبلاغة والنحـو :

كان للُّغة أثـر كبير في تحديد فكر ابن رشـد ، وتطويع نظريات ارسطو* وفلسفته الى واقـع الحضارة العربية الاسلامية بمفاهيمهـا وعقيدتها ، بـل الى لغتها وأدبهـا .

فقد اعتذر ابن رشـد عن ذكر الأمثلة اليونانية لأنه رآهـا مجهولة تماما لدى القارىء العربـي الذي يتوجّه اليه ، ولا تتـلاءم أيضا مع الجـوّ الاسلامي الذي يكتب لـه ويعيش فيه ؛ على أنـه استبدل بهذه الأمثلة اليونانية نظائرهـا في الاسلام ، فاستشهد بشواهد من الفقه والتاريخ الاسلامي واللغـة العربية ... حيث أراد أن يطبّـق القواعد والنماذج التي يذكرها أرسطو على اللغة والأدب والخطب العربية .. (٩٩).

وكان ابن رشـد يقول منذ البداية ، بأن الشريعـة الاسلامية تحضُّ من خلال الآيـات القرآنية والحديث على النظـر الفلسفي . وهـي توجب استعمال البرهـان المنطقي ، على حـد تعبيره ، لمعرفة اللـه تعالى وموجوداته . ويستشهد على ذلـك بآيات من القرآن الكريم ، فيورد مثلا الآية الكريمة : « فاعتبروا يـا أولي الأبصار » (١٠٠) . ويبيّن أن الاعتبار هنـا ليس الا استنباط المجهـول من المعلوم ، وهو القياس الفلسفي او المنطقـي المعروف (١٠١) .

وبنـاء على هذا الاتجاه ، فقـد استخدم ابن رشد امثلة عربية واسلامية كثيرة في كتـاب « تلخيص الخطابة » وفي كتـاب « الشعر »

---

(٩٩) أنظر : مقدمـة تلخيص الخطابـة ، ص ي .
(١٠٠) صـورة الحشر ٢/٥٩ .
(١٠١) أنظر : بين الدين والفلسفة ، ص ٩١ .

ايضا . وبالرغم من انهـا شروح لكتب ارسطو ، غير ان ابـن رشد في التلخيص او التحليل يتكلّـم باسمه الخاص دائما ، فيعرض مذهـب الفيلسوف مضيفا ، حاذفـا ، باحثا في الرسائل الاخرى ما تكمل بـه الفكرة، متّخِذًا ترتيبـا ومنهاجا من اختياره ؛ وهكذا على حـدّ تعبير الفيلسوف الفرنسي « رينـان » : « فان التخليصات رسـائل حقيقية كرسائل أرسطو » (١٠٢) . ففـي حديثه مثلا عن الأمور المستعملة مـع الألفاظ على جهـة المعونة في جودة التقسيم وايقاع التصديـق وبلوغ الغرض المقصود ، وهي على حـدّ تعبير ابن رشـد نفسه ، التي جرت عادة القدماء ان يُسَمُّوها الأخـذ بالوجوه . فيقول : « وذلـك ان هذه الأشياء ، لمـا كان من شأنها ان تميل السامعين الـى الاصغاء والاستماع والاقبال على المتكلم بالوجـه ، وتفريغ النفس لمـا يورده ، أُستُعير لها هذا الاسم . وهذه الأشياء صنفان : إمّا اشكال ، وإمّا اصوات ونغم ...

والأشكال، بالجملة ، يقصد بها أحـد أمرين : إمّا تفهيم المعنـى وتخييله الموقع للتصديـق ، كما روي عن النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، انـه قال في آخر خطبة : « بُعِثتُ أنـا والساعة كهاتين » واشـار باصبعيـه يقرنهمـا ... (١٠٣) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتراه يخرج في شروح الـى دراسات مقارنـة ، فيتحدث عن موقع بعض النظرات البلاغيـة في اشعار الأمم ، ويقارنها بما هـو في لغـة العرب وآدابها . فنرى ابن رشـد يتحدث في موضع آخر مـن « تلخيص الخطابة » فيقـول : « وفيها ايضا انهـا تُستَعمَل بضرب من الوزن في الكلام الخطبـي ... وهذا الضرب من النغـم ضروري في أوزان اشعار من سلـف من الأمم ما عدا العرب ؛ فـان من سلف من الأمم كانوا يزنون ابياتهـم بالنغم والوقفات ، والعـرب تزنها بالوقفات فقط . ومنها ايضـا ان تُستَعمَل اشعارا في افتتاح القـول وختمه ومواضع الوقـف ... » (١٠٤) .

---

(١٠٢) رينـان ، ص ٧٤ .
(١٠٣) انظر : تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥٠ .
(١٠٤) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥١ .

وقد نَظَر الى البلاغة بهذه النظرة المبدعة ، حيث استطاع ان يتمثَّل نظريات ارسطو من خلال نثر اللغة العربية وشعرها ... ويستخدم،بطبيعة الحال ، الاصطلاحات البلاغية التي سبقه اليها البلاغيون الأعلام قبله ؛ اذ يقول مثلا : « والاستعارة التي تكون من هذا النوع كثيرة موجودة في اشعار العرب وخطبها ، والأقاويل التي يخصّها اهل لساننا من الناظرين في الشعر والبلاغة بالاستعارة هي داخلة في هذا الجنس ، ولذلك يقولون : إن المجاز استعارة وتشبيه » (١٠٥) .

وكان لابن رشد مجال واسع في التعريب ، وكيفية استخدام الألفاظ للدلالة على معان مستجدَّة ؛ وكذلك توليد الكلمات عن طريق الاشتقاق وغيره . فقد ذُكِرَتْ لنا المصادر المختلفة بين قائمة كتبه ، كلاما له على الكلمة والاسم المشتق (١٠٦) .

ففي حديثه عن تأثير الألفاظ والأصوات في الاقاويل يقول : « والذين وقعوا أولا على تأثير هذه الأحوال من الألفاظ والاصوات في الأقاويل هم الشعراء ، وذلك ان هذا المعنى اظهر ما يكون في الأقاويل الشعرية ، مع أن الوقوف على الأقاويل الشعرية هو متقدم بالزمان على الأقاويل البلاغية ... » (١٠٧) .

ويُعَمِّق نظرته في استعمال الألفاظ في لغات مختلفة ، فيقول : « وأما اللغات فهي صنفان،احدهما ... مثل ان يستعمل الحجازي لغة حِمْيَرِيّة ؛ والصنف الثاني ان يستعمل في مخاطبة امة ما ، لفظا ليس من الفاظ اهل لسانهم ، وانما هو من لسان امة اخرى ، مثل ما يوجد في لسان العرب الفاظ كثيرة من الفاظ الفرس والأمم المجاورة لها . وهذا يُستَعمل على وجهين : احدهما ان يأتي بذلك اللفظ بعينه من غير ان يغيِّر بنيته وتركيبه : والوجه الثاني ان يُغَيِّره تغييرًا يقرب

---

(١٠٥) تلخيص الخطابة ، ص ٢٩٤ .

(١٠٦) انظر : القائمة التي أوردها رينان ، ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧ . وفق مخطوط الاسكوريال .

(١٠٧) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

من الأبنيـــة المستعملة في لسانهم ليسهل بذلـــك عليهم النطق بـــه، مثل : السِّجِّيل وغير ذلك مما هـــو موجود في كتب اللغـــة (١٠٨)

فابن رشد يقف هنـــا موقفاً واضحاً ومتميزا ، تجـــاه قضية التعريب ، سواء أكـــان ذلك بإحياء ألفاظ ميتة ، مثـــل استعمال الحجازي الفاظا حميرية ، أم استعمـــال اللفظة الأجنبية ، كما هي ، وادخالهـــا الى العربية، من ناحيـــة، أو ادخالها بعد اضفاء رونـــق العربية عليهـــا ... وقد أورد لفظـــة « السجّيل » وهي لفظة قـــرآنية ... وهنالك ايضا الفاظ موضوعة ، يحدّدها ابـــن رشد من خلال شرحه فيقـــول : « وهي الألفاظ المخترَعة في لســـان جنس ما ، يُخترِعها أهل ذلك اللســـان ، على نحو التركيب الـــذي لحروفهم » (١٠٩) . ويبحث « تلخيص الخطابـــة » اللفظة من حيثُ أصـــوات الحروف وتناسقها أو عدمـــه . وهنا ايضا ، تمتزج آراء أرسطـــو بآراء شارحه ابن رشـــد ، الى الحد الذي تَرى فيه شخصية الشـــارح واضحة بارزة ، وذلك من خـــلال تقصّياته وإيراده الأمثلة في نطـــاق العربية وحروفها وأصواتهـــا، اذ يقول :

« وأمـــا المغلّطة فهي الألفاظ التي يعسر النطق بهـــا ، وذلك يعرض لأسباب : منها أن تكون تلـــك الحروف حروفا يُعْسُر النطق بهـــا ، وإن كانت قليلة ؛ ومنها أن يكـــون سبب العسر فيهـــا كثرة الحروف التي رُكِّبت منها ، والتـــي يعسر النطق بها ، إمّـــا أن يكون من أجل مخرج الحرف نفسه وأن ينطق بـــه وحده ، مثل كثير من حروف الحلـــق ، وإمّا أن يكون العسر يحدث لـــه عند تركيبه مع غيره ؛ وذلك إمّـــا لتقارب مخارجها ، وهذا هـــو سبب الادغام في لســـان العرب ، وإما لتكرارها ، مثل قولهـــم : « قصصت أظفاري » . ولذلك بعض العـــرب يبدلون احدى الصادين « يـــاء » في مثل هذا . وربما كـــان السبب في ذلك تضادّ المخارج . ولذلك قَـــلَّ في لسان العرب اســـم يوجد على وزن

---

(١٠٨) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٧ .

(١٠٩) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٦ .

« فِعلى » الا مـــا حكوا من « الدِفلى » . وأكثر الانقلابـــات والتغيُّرات التي يضعها النحاة هـــذا هو سببها (١١٠) .

وهنـــا نستبين خصائص نظرة ابن رشـــد في النحو ، وقد كانت لـــه مساهمة فيه . ولا عجب من ذلك ، فالنحو عنـــد أهل الأندلس ، على حـــد تعبير المقّري « في نهاية من علـــوّ الطبقة ، حتى انهم في هذا العصر فيـــه كأصحاب عصر الخليـــل وسيبويه ، لا يزداد مـــع هرم الزمان الا جِدَّة ؛ وهـــم كثيرو البحث فيه ، وحِفْظ مذاهبـــه كمذاهب الفقه . وكلُّ عالِمٍ في ايّ علـــم لا يكون متمكنا من علـــم النحو ، بحيث لا تخفى عليـــه الدقائق، فليس عندهم بمستحقّ للتميُّز ، ولا سالـــم من الازدراء ... » (١١١) .

ولـــم يخرج ابن رشد عن هـــذه القاعدة ، فقد أسهم في هـــذا المجال بكتاب سمـــاه « الضروريّ في النحو » (١١٢) . وان هذه التسمية ، تذكّرنا بكتاب أبي بكـــر الزبيدي القرطبي الذي وضعه قبـــل ذلك بحوالي قرنين من الزمـــن واطلق عليه « الواضـــح » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذكرت اكثر المصـــادر التي اوردت مصنّفات ابن رشـــد ، كتابه هذا في النحـــو ، ولكن مع الأسف لم يصل الينـــا ، ولا نعرف عنه شيئا ؛ فربما ما زال تائها فـــي بعض الأقبية او زوايا المكتبات ، وربما فُقِـــدَ الى الأبد كمـــا فُقِدت مصنّفات كثيرة من هـــذا التراث الضخم ، نتيجةً النكبات والحروب ومـــا حلَّ بالأندلس مـــن استئصال لجذور حضارة عربية اسلامية اصيلـــة . وإنَّ التسمية بحـــدّ ذاتها « الضروري في النحو » توحي لنـــا باتجاهه العملي ، في استخـــدام ما هو ضروري من قواعد النحـــو ؛ وهذا الاتجاه ينسجم تماما مع طبيعة فلسفـــة ابن رشد العقلانية والواقعيـــة ... وهو في ذلك استمرار لهـــذه المدرسة

---

(١١٠) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٨ .

(١١١) انظر : النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١١٢) انظر : قائمة كتـــب ابن رشد التي اوردهـــا ريتان ، ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧ وفـــق مخطـــوط اسكوريـــال .

القرطبية ، التي اتّجهت اتّجاها عمليا مناهضةً لتعقيدات النحاة ، وانشغالهم بجزئيات لا فائدة منها .

وجملة القول، فقد كانت لابن رشد جهود طيّبة في مجال البلاغة والنقد ، وفي مجال النحو والاشتقاق، والترجمة والتعريب والشرح ؛ وان هذه المجالات لتستحقّ الدراسة المتعمقة في مصنفات هذا الفيلسوف الاسلامي، الذي كان على حد تعبير ابن الأبار : « كان يُفْزَع الى فتواه في الطب كما يُفْزَع الى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » ...

خاتمة

ربما كان ابن رشد من المفكّرين القلائل في الدنيا ، الذين اهملتهم أمّتهم وعُنيت بهم أمم أخرى ؛ لقد تجاوزت مصنفات ابن رشد حدود الزمان والمكان ، وكانت ركيزة اساسية في النهضة الأوروبية فيما بعد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عَرَفت أوروبا القرون الوسطى ابن رشد باسم (Averroes) وطارت شهرته لديها بالطبّ، من ناحية، وبالفلسفة من ناحية اخرى . وربما كان من الطبيعي ان لا يُعْنَى الفرنج بالجوانب الاخرى في فكر ابن رشد ، في مجال الفقه واللغة والأدب . وقد بقيت جميع هذه الجوانب ، مع الأسف، في زوايا الاهمال والنسيان ... ولا شكَّ ان العصور المظلمة التي توالت على الأمة العربية والاسلامية ، كانت تقف وراء هذا الاهمال .

لم يكن ابن رشد فيلسوفا وطبيبا فحسب ، بل كان فقيها مجتهدا ، كما ينمُّ عليه كتابه « بداية المجتهد » ؛ كما كان اديبا كاتبا، يعالج أهم القضايا السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي تَمَسُّ كيان أمته . وقد سار على درب صديقه « ابن طُفيل » وكثير من الفلاسفة المسلمين الذين سبقوه ، في محاولة التوفيق بين الحكمة والشريعة ، وبين ما يصل اليه من طريق الوحي والرسل ...

ولـذا فنحن نستطيع أن نعتبر بحـقٍ ما كتبه في « تهافت التهافت » وفي كتابه « فصل المقـال » ... وكذلك في « كشف مناهج الأدلّـة ... » وغيرها ، من الأدب العقلاني الرفيـع الذي يحاول الكاتب فيـه معالجة قضايا انسانيـة واجتماعية واخلاقية وسياسيـة ، يهدف من ورائها اصلاح ما فسـد في بنيان هذه الأمـة .

ولم يقف ابن رشـد عند هذه الحدود من الأدب ، بـل تَعدَّاها الى قول الشعر ، والإسهـام في البحوث اللغوية والبلاغية،ولا سيمـا في مجال النحو والتعريـب والاشتقاق والنقد ... الـخ ... وإنَّ شروحه لمصنّفات أرسطـو لم تكن لتقعد بـه عند حد النقل ، بل كانت تتعداه الى حـد الابداع في فهم فكر « المعلم الأول » وتَمثُّلـه ، وتطبيقه على بيئته العربية الاسـلامية.ولا أدل على ذلـك من تعقيبه في خاتمة كتـاب « تلخيص الخطابـة » بقولـه : « وهنا انقضت معاني هـذه المقالة الثالثـة ، وقد لخَّصنا منها مـا تأدى الينا فهمه،وغلب على ظَنّنا انـه مقصـوده ... » (١١٣) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١١٣) انظر : تلخيص الخطابـة ، ص ٣٣٢ .

المصـــادر والمراجـــع

ابـــن الأبـــار : ابن الأبار القضاعي البلنســـي ، التكملة لكتـــاب الصلة ، ج ١ ــ ٢ ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م .

ابن ابي اصيبعة : موفق الديـــن ابو العباس احمد بن القاسم بـــن خليفة بـــن يونس السعدي الخزرجـــي المعروف بابن ابـــي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقـــات الأطباء ، بـــيروت ، ١٩٥٦ م .

ابـــن الأثـــير : عـــز الدين ابو الحسن علي ابن ابـــي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحـــد الشيباني المعروف بابن الأثـــير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ــ ١٢ ، بـــيروت ، ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٦ م .

ابـــن بشكـــوال : ابـــو القاسم خلف بن عبـــد الملك ، الصلـــة ، مصـــــر ، ١٩٦٦ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابـــو المحاسن يوســـف تغرى بردى الأنابكي ، النجـــوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ــ ١٢ ، القاهـــرة .

ابـــن رشـــد : ابـــو الوليد محمد بن احمـــد بن محمد بن احمد بن رشـــد القرطبي ، بداية المجتهـــد ونهاية المقتصد ، ج ١ ــ ٢ ، القاهـــرة .

" " : ابـــو الوليد ابن رشد ، تلخيص الخطابـــة ، تحقيق عبـــد الرحمن بدوي ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

" " : ابـــو الوليد ابن رشـــد ، تلخيص السفسطـــة ، تحقيق محمـــد سليم سالم ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابـــن رشـــد : أبـــو الوليد محمد بن رشـــد ، تهافت التهافت ، ج ١ ــ ٢ ، تحقيـــق الدكتـــور سليمان دنيـــا ، القاهـــرة ، ١٩٦٤ م .

ـــ ـــ : أبـــو الوليد محمد بن أحمد بن محمـــد بن رشد القرطبي ، رسائـــل ابن رشد ، حيدر أبـــاد الدكن ، ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٤٧ م .

ابـــن سعيـــد : علي بن موسى ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ــ ٢ ، مصـــر ، ١٩٦٤ م .

ابـــن طفيـــل : ابـــن طفيل الأندلسي ، حي بـــن يقظان (لابن سينا وابـــن طفيل والسهروردي) ، تحقيق أحمـــد أمين ، القاهـــرة ، ١٩٥٩ م .

ابـــن العمـــاد : أبـــو الفلاح عبد الحي بـــن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ١ ــ ٨ ، مصر ، ١٣٥٠هـ

الأنصـــــاري : ابو عبد اللـــه محمد الأنصاري ، فهرست الرصّاع ، تـــونس ، ١٩٦٧ م .

الذهبـــــي : الحافظ الذهبي ، العِبَر في خبـــر من عبر ، ج ١ ــ ٥ ، الكويـــت ، ١٩٦٣ م .

الضبـــــي : أحمـــد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ، بغيـــة الملتمس في تاريخ رجال أهـــل الأندلس ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

رينـــــان : أرنست رينـــان ، ابن رشد ، والرشدية ، ترجمـــة عـــادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

زيـــــدان : جرجي زيـــدان ، تاريخ آداب اللغـــة العربية ، ج ١ ــ ٤ ، القاهـــرة .

الزركلـــــي : خـــير الدين الزركلي ، الأعـــلام ، ج ١ ــ ١١ .

العقـــــاد : عباس محمود العقاد ، ابن رشـــد ، القاهرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الغزالـــي : الامام الغزالـــي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

فـــرح : فـــرح أنطون ، ابن رشد وفلسفته ، الاسكندرية ، ١٩٠٣ م .

فخـــري : ماجـــد فخري ، ابن رشـــد فيلسوف قرطبـــة ، بـــيروت ، ١٩٦٠ م .

المقّـــري : أحمـــد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب مـــن غصن الأندلس الرطيـــب وذكر وزيرها لسان الدين بـــن الخطيب ، ج ١ ــ ١٠ ، بيروت ، ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٩ م

موســـى : محمـــد يوسف موسى ، بين الديـــن والفلسفة ، القاهـــرة .

النباهـــي : الشيخ أبو الحسن بن عبد اللـــه بن الحسن النباهي المالقـــي الأندلسي ، كتاب المرقبـــة العليا فيمـــن يستحـــق القضاء والفتيـــا ، بيروت .

— BROCKELMAN - Geschichte d. Arab. Literatur Ers. Sup. LEIDEN , 1937 .

— The Encyclopaedia of Islam , LEYDEN , 1927 .

— Encyclopaedia of Religion and Ethics , vol. I-VIII , NEW-YORK , 1962 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نشأة الثقافة العربية الإسلامية
نظرة إلى العراق

للدكتور عبد العزيز الدوري

ان نشأة الثقافة العربية الاسلامية ظاهرةٌ معقّدة تتطلّب دراسة بيئاتها والعناصر المكوِّنة لها ، والاتجاهات والتطورات الخاصة . وفيما يلي محاولة أولية لرسم الخطوط العامة (١) .

ادّى التوسُّع العربي الاسلامي — الذي رافقه الشعور برسالة — الى فتح ابواب البلاد الخصيبة الى الشمال امام القبائل المندفعة باستمرار من الجزيرة العربية ، وشجّعت الخلافةُ الهجرةَ الى الأمصار واعتبرتها لازمة للانتماء الكلّي للأمة (٢) . واعتبرت العودة الى البادية ، بعد الهجرة ، أمرا مكروها (٣) . وهذا ادى الى استقرار متزايد للقبائل في البلاد المفتوحة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واتجهت سياسة التمصير ابتداء الى وضع المقاتلة في مجموعات متماسكة في المراكز الجديدة ، في دُور هجرة مثل البصرة والكوفة ، وفي قرى أو مناطق قرب المدن القديمة (كما في الأجناد في الشام) ، أو في أماكن استراتيجية (كما في انحاء من الجزيرة الفراتية) .

واستمرت القبيلة او العشيرة اساسا في تنظيم السكن والعلاقات الاجتماعية في الأمصار . وكانت القبيلة — عند خروجها من الجزيرة — تتوزع عادة بين اكثر من مركز او منطقة ، ثم نُظِّمت المجموعات القبلية ، لأغراض التعبئة العسكرية، في وحدات كبيرة ، على الأسباع (ثم الأرباع) في الكوفة مثلا، وعلى الأخماس في البصرة .

وساعدت الاقامة في بلد واحد ، وظهور مصالح جديدة ، والمصاهرات بين القبائل ، اضافة الى تاثير المفاهيم الاسلامية، على ظهور ولاءات محلية ، واوجدت ظروفا ثقافية جديدة ، وساعدت

على قيام تكتّلات جديدة (٤) . وهـذا يوضح كيف ان القبائـل الواحدة أو القريبة ، والتي تعيش في أمصار أو أقطار مختلفة ، لم تتّخذ موقفا واحدا في القضايا العامـة . وكل ذلك ساعد على ظهـور اتجاه نحو الوحدة بين القبائل فـي المصر الواحد .

وكان كـلٌّ من الكوفة والبصرة بابا للبادية الـى السواد ؛ وهذا يوضح، لِحَدٍّ مـا، اطّراد الهجرة اليهما . وأكّد هـذه الهجرةَ استمرارُ الصلات بـين عشائر المصرين وبين اقربائهـا من القبائل الرحالة في البوادي المجاورة . هذا الى ان جماعات من المقاتلة (خاصة من ربيعة وتميم) استمرّت على العيش في البادية مع استعدادها لتلبية النـداء للمشاركة في الحملات حين استقـر الآخرون في الكوفـة والبصرة (٥) .

ولـم تُشَجَّع الاقامة بين السكان المحليين في البـدء ، ونُظِر اليها بشيء من الإنكار (٦) . وهكذا فان عزلة المقاتلـة ، وهي ضرورة عسكرية واجتماعية في البـدء ، كان لها أثرها في توفير جـوٍّ للوحدة والاستمرار الثقافي ، وساعدت علـى جذب الآخرين الى اطار المجموعـات العربية ـ الى الاسـلام والعروبة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ وكانت اللغة العربيـة اساس الهُوِيَّة العربية ، فالنـاس عرب أو عجم بلغتهـم . أما المفاهيم المتّصلة بالنسب والتـي تنطوي على مفهوم الجذور البشريـة عند القبائل ، فانها لـم تَطمس هذا الاساس . فحين قال الحجّاج لأهـل الكوفة : « لا يؤمنكم الا عربـي » ، وثب بعضهم بالقارىء يحيى بـن وثاب ، وهو مولى ، لعزلـه عن الامامة ، فاعترض الحجاج قائلا : « وَيْحَكم، إنمـا قلتُ عربي اللسان » (٧) . وهكـذا صارت اللغة ، لا الـدم ، اساس العروبة (٨) .

ولمـا كانت العربية لغـة القرآن ، فقد ارتبطت بالاسلام ، مما اكسبها حرمـة وساعد على انتشارها . فكـان دخول الاسلام يعني تَعَلُّـمَ العربية ، وربّما المشاركـة في الثقافة العربية . وتكاد « العربية »

ان تكون مرادفة للاسلام في الفترات الاولى (٩) . فلما سأل ابو جعفر (المنصور) مولى لهشام بن عبد الملك عن هويّته ، قال : « ان كانت العربية لساننا فقد نطقنا بها ، وان كانت دينا فقد دخلنا فيه » (١٠) .

ـ كانت القبائل العربية تندفع باستمرار الى الاراضي الخصبة . وقد انتشرت في الجزيرة الفراتية بين دجلة والفرات قبل الميلاد ، وكان بعضها متبديا والآخر مستقرا (١١) . فكان مركز قضاعة في الحضر (١٢) ، وكانت ربيعة وتنوخ في الجزيرة (١٣) ، والتمر بن قاسط في عين التمر (١٤) . وانتشرت تغلب من عين التمر وعانات على الفرات شمالا حتى جبل بشري،وكانت من رعاة وفلاحين (١٥) . وكان في حاضر الرقة (ريفها) قوم من العرب (١٦) . وكانت اياد في الفرات الأوسط واطراف الجزيرة الفراتية ، ثم تحرّكت في فترة الفتوح الى الجزيرة (١٧) .

وكانت في الحيرة قبائل عربية ـ تنوخ والعباد وجماعات اخرى (الأحلاف) ، وامتدَّ بعضها الى الأنبار (١٨) . ويقول الهمداني : « الأنبار والحيرة والقصر الأبيض ... وسنداد والخورنق والسدير وبارق ، محاضر العرب القديمة من حيز العراق » (١٩) . وانتشرت بكر بن وائل في البوادي المُطِلّة على السواد بين القادسية والخليج العربي (٢٠) .

هكذا وبنهاية القرن السابع للميلاد كانت مناطق الفرات الأسفل والأوسط والجزيرة الفراتية قد تَعَرَّبت لِحَدٍّ كبير .

وفي فترة الفتوح وبعدها جاءت قبائل وجماعات جديدة الى العراق ؛ فقد ارتفع ديوان البصرة مثلا من ١٠٫٠٠٠ الى ٢٠٫٠٠٠ ايام عثمان ، ثم الى ٤٠٫٠٠٠ و (٨٠٫٠٠٠ من العيالات) ايام علي ، ثم الى ٨٠٫٠٠٠ (و ١٢٠٫٠٠٠ من العيالات) في ولاية زياد بن ابيه (٢١) ، ثم الى ٩٠٫٠٠٠ (١٤٠٫٠٠٠ من العيالات) في ولاية عبيد الله بن زياد (٢٢) . وفي الكوفة ارتفع الديوان من ٢٠٫٠٠٠ سنة ١٧ هـ. الى ٤٠٫٠٠٠ سنة ٢٥ هـ. (٢٣) ، الى ٦٠٫٠٠٠ في اواسط القرن الاول الهجري (٢٤) .

ونزلت مجموعات قبليـــة ، من تميم وبكر واليمن ــ خاصة خولان وهمدان والأزد ــ الموصل في خلافة عمـــر . وتَحَوَّلت الحديثة ، على الزاب الأعلى ، الـــى قرية عربيّة بمن نزلها من العـــرب (٢٥) . ونزلت قبائل عربيـــة في سنجار ورأس العين (٢٦) ، وجاءت جماعـــات كبيرة من قيس الى الجزيرة . ثـــم ان معاوية اتى بمجموعات مـــن قيس واسد وأوطنهم اماكـــن ستراتيجية بين الرقة وسنجار ، كمـــا ثَبَّت ربيعة في ديارها مـــن الجزيرة (٢٧) . واستمرَّت الهجـــرة الى الجزيرة الفراتية، وادَّت الى تكوين ديـــار مضر وديار ربيعة (٢٨) . لـــذا راى مروان بن محمـــد ، آخر الأمويين ، انـــه يستطيع الاستناد الى قيس في تكويـــن قُوّاته،وانتـــدب منها عشرين الفـــا (٢٩) .

ــ وكان للعوامـــل الجغرافية والبشريـــة اثرها في العراق ، فقد كان ملتقى الثقافات الســـاميّة والآريّة،اضافة الى كونـــه مهد الحضارة الساميّـــة .

كـــان سكان العراق (النبـــط) ، وهم ساميّون يتكلمون الآرامية . اما الفرس فكانوا فئة حاكمة في المدن الرئيسية (مثل طيسفون ونصيبين) ، وبينهم الملاّكون الكبـــار والجنود في الحاميات ، وجُلُّهم طردوا اثنـــاء الفتح او أُسِروا (٣٠) . ولكـــنَّ بعضهم بقي في المـــدن،مثل الحيرة ونصيبين وسنجار،او علـــى الحدود الشرقيَّة للسهول ، بينما جـــاء آخرون الى المراكز الجديدة (خاصّة الكوفـــة والبصرة) . وبقي كثير مـــن الدهاقين ، وبعضهم من اهـــل البلاد (نبطا او عربـــا)،واسلموا وحافظوا علـــى اراضيهـــم (٣١) .

وكانت لفظة « نبـــط » ابتداءً ذاتَ دلالة بشرية (٣٢) ، ثـــم صارت بعدئذ مرتبطة بالفلاحة والـــريّ (٣٣) . وكان يشار للنبط عادة بـــ « اهل السواد » او « العلـــوج » تمييزا لهم عن العجـــم (٣٤) . وتتباين الروايات عن وضعهم ، بين مـــا يشير الى الشعور بالرابطـــة والكيان (٣٥) وبين الادعاء بالأصـــل الفارسي (٣٦) .

اعتُبِر المسلمون النبط غير محاربين، ولم يتعرَّضوا لهم في اثناء الفتح (٣٧) . يذكر المدائني أن عمر بن الخطاب « رفع الرقَّ عنهم ، ووضع عليهم الخراج في رقابهم، وجعلهم أكرة الأرض » (٣٨) . وكان بامكانهم استغلال الأرض وبيعها وتوريثها ورهنها (٣٩) . واذا اسلموا أُعفُوا من الجزية عادة ، ولكنهم يستمرّون على دفع الخَراج . ورأى عمر بن عبد العزيز ان لهم الحرية في ترك الأرض عند اسلامهم ، ولكن أرضهم تؤول الى القرية، والاَّ صارت للدولة .

ومع ان النبط أُعتُبِروا أحرارا من حيث المبدأ ، الا أن المفاهيم المحلّية الموروثة التي تربطهم بالأرض والاعتبارات الاقتصادية أثّرت على وضعهم . وكانت الهجرة من الريف الى المدينة أمرًا مألوفا ، بل وواسعة أحيانا ؛ وهي ظاهرة ساعدت على التعريب . ومما يُيَسِّر التعريب ان النبط ساميّون يتكلّمون لغة لها قرابة بالعربية . ولعلَّ هذا يفسّر سكوت المصادر عن انتشار التعريب بينهم (٤٠) .

هناك اشاراتٌ قليلة الى موال من النبط مع انهم — عدديا — يكوّنون جمهرة الموالي ؛ ولعل ذلك يعود الى ارتباطهم بالعرب في الأصول والثقافة . فالحَجّاج ، وقد اغضبه اشتراك مجموعة من القراء في ثورة ابن الأشعث ، قال عنهم « انما الموالي علوج ، وانما أُتِيَ بهم من القرى » ، ونفاهم الى قراهم (٤١) . وتَتَمَيَّز بعض النبط في امور المال (٤٢)، مثل عميرة وحسان النبطي (٤٣) ، وفي الحرب، مثل مقاتل بن حيان . وكان لهم اثرهم خاصة على العربية في الكوفة (٤٤) .

ولقي العربُ في الفرات الاوسط (٤٥) وتَغْلِبُ في الجزيرة (٤٦) ، معاملةً مفردة ، مما يُشعِر بالتوجيه الاسلامي ، اذ كانوا أحرارا في بيع أراضيهم ، وعند اسلامهم تصبح أرضهم عشرية .

كان اثر العرب في المدن والريف واسعا ؛ فقد أصبح التسجيل في الديوان محدودا زمن المروانيين ، ولم يعد مفتوحا للجميع ؛ وكان على الذين لا يسجلون في الديوان (وبالتالي لا يأخذون العطاء) أن يبحثوا عن وسائل أخرى للعيش ، في التجارة او الزراعة او

المهـــن . يذكر المبرد ان المهلّب دسّ الجواسيس الـــى عسكر الخوارج فأتـــوه بأخبارهم « فاذا حشوة مـــــا بين قصار وصباغ وداعـــر وحداد . . . » (٤٧) . ويبـــدو ان هذه الظاهرة عامـــة لا تختصّ بالعراق ، ففي اخبار حملة ابـــن ابي بكرة على سجستـــان (٦٩٩/٧٩) قاتلت جماعة متطوّعة مـــن مذحج وهمدان (٤٨) . كمـــا ان بعض الاعراب القادمين الى المـــدن، مثل البصرة، صاروا في عـــداد « المساكين » على اطرافها (٤٩) . هـــذا الى ان بعض المقاتلة بقوا فـــي البوادي المطلّة على الســـواد يرعون مواشيهم وابلهم (٥٠). وتَردُ اخبـــارُ شعراء يتنقّلون بين قبائلهم في البوادي وبـــين عشائرها الموجودة في المراكـــز الحضرية، وخاصّة تميـــم (٥١) . وهذه الجماعات اختلطت بِحُرّيّـــةٍ بأهالي البلاد السابقـــــين .

والتفت العـــرب ، وخاصة الاشراف واهل المـــدن، الى امتلاك الأراضي، وحصلوا عليهـــا بطرق مختلفة ـــ بالاقطاع من الصوافـــي ، وباحيـــاء الأرض المـــوات (خاصة في منطقة البصرة) ، وبتجفيـــف المستنقعات (خاصة قـــرب الكوفة) ، وباستثمار الأراضي الخالية (٥٢) ، وبالشراء، وخاصة فـــي منطقة الحيرة حيث كان بيـــع الأراضي مباحا (٥٢) . وكان جَـــلُّ الضياع في البصرة مـــن الأرض الموات التي تـــم احياؤها بحفر القنوات وباستـــيراد الأيدي العاملة (من الزنج خاصـــة) . وشمل الشراء أراضي الخـــراج على نطاق واسع، حتى ان منع بيـــع الأرض الخراجية من قبـــل عمر بن عبد العزيز وأخلافـــه لم يوقف هذا النشاط . وساعد الاحياء علـــى توسيع الملكيات .

ادى هـــذا الاقبال على الأرض الـــى ظهور ملكيات كبيرة ، بعضها يشمل قرى بكاملهـــا . وقد أدّت هذه التطورات الـــى خلخلة المجتمعات القرويّة المتماسكـــة والى فتحها للمؤثرات الخارجيـــة .

واعتاد العـــرب ان يستخدموا « وكـــلاء » للإشراف على ضياعهم ، وكان على الوكـــلاء ان يجلبوا الفلاحين الـــى الأرض، او ان يشغلوا فلاحين من القرى المجاورة . ومما يُيَسّر مهمـــة الوكلاء ضرب الاقطاع القديم

وحالة الفراغ الناشئة عن ذلك،مما دفع الفلاحين للتحرك الى مواطن العمل الجديدة . وقد ادّى هذا الوضع ، اضافة الى العلاقات المتزايدة بين القرى والمراكز العربية ـ وهي الأسواق الرئيسية للريف ـ ، والصلات بين القرى والقبائل في البوادي المجاورة للكوفة والبصرة ، الى انتشار العربية تدريجيا وبصورة متزايدة في الأرياف (٥٤) .

وفي مطلع القرن الثاني للهجرة بدأ العرب بالاستقرار في القرى ، وساعدت السياسة العباسية على ذلك ؛ فقد اتخذ العباسيون موقفا سلبيًّا من بعض القبائل (المضرية) منذ بداية عهدهم ، ثم انتهوا الى اسقاط العرب من الديوان أيام المأمون والمعتصم ، وهذا دفع العرب الى التوسع في الاستقرار على الأرض (في الريف) ، والى اتخاذ مِهَن اخرى . فانتشر العرب في سواد الكوفة (٥٥) ، وانتقل الكثيرون من البوادي المجاورة الى الأرياف (٥٦) ؛ وهكذا ترد اشارات الى قرى عربية (٥٧) . وفي الجزيرة الفراتية تزايد عدد الجماعات العربية التي استقرت في القرى وانتشرت في الريف (٥٨) . ويعطي ديونيس التلمحري البيّنات على وجود عدد كبير من القرى العربية في الجزيرة (٥٩) ، ويُشْعِر بوقوفهم الى جانب أهل القرى المحلّيين في وجه الادارة العباسية (٦٠) ، ويشير الى حصول مصاهرات بين الطرفين (٦١) . وهذا يشير الى تغيُّر العلاقات بين العرب والآخرين، والى توسّع التعريب ؛ وهو تطوّر بلغ مدى بعيدا في القرن الثالث الهجري،وجعل التعريب شاملا .

ويُنتَظر ان تكون العربية الدارجة في الريف ضعيفة ، كما يُتوقَّع ان لا تنجو عربية القرويين من اللحن (٦٢) ، وهذا لا يمنع ان تكون لغة البعض حسنة ؛ فقد اشار الجاحظ الى أن بعض اهالي سواد الكوفة يتكلّمون عربية حسنة بألفاظ متميزة،ومع ذلك يُحِسّ السامع بأنهم نبط (٦٣) .

وكان انتشار الاسلام ، وحركة العرب ، ونظام الولاء ، عوامل في نجاح العربية وفي التعريب .

ترجع جذور الولاء الى الجزيرة العربية قبل الاسلام . وقد يكون اثر عرب الجنوب مُهِمًّا في تطوُّر الولاء ، ولكن تراثهم لا يزال ينتظر الدراسة . فهناك اشارات في النقوش الجنوبية الى أن قبائل (سيدة) كانت تربط مجموعات اضعف بها عن طريق الحلف بسبب المصلحة لا النسب . وقد تَطلَّب استغلال الأرض ربط جماعات خارجية بالقبيلة،وأدّى الى نوع من الطبقية الاجتماعية،فهناك جماعات تستثمر الأرض (العائدة لقبيلة) لقاء جزء من الحاصل ، وهناك طبقة ادنى محميَّة تعمل لقبيلة في فلاحة الأرض (٦٤) .

أما بين عرب الشمال فان الولاء بالعتق او الحلف او الحماية كان مألوفا . وكان بامكان جماعات ان ترتبط بقبائل قوية بالحلف، ويُسَمَّون موالي موالاة (٦٥) . والحلف لا يعني بالضرورة المساواة في المنزلة،مع انه قد يعني مساواة في بعض المسؤوليات (٦٦) .

هذه المفاهيم استمرت في صدر الاسلام : ففي ديوان عمر بن الخطاب جُعِلَت القبيلة وموالِيها في سجل (ديوان) واحد وبعطاء واحد (٦٧) ، وفي الكوفة والبصرة حالفت الكتائب الفارسية (حمراء ديلم والأساورة) ، اضافة الى الأندغان والسيابجة ، قبيلة تميم (٦٨) . وانتقل بنو العم من الأهواز الى البصرة وحالفوا بني تميم (٦٩) .

وكان الموالي ابتداءً من أُرِقّاء (اسرى حرب) اعتقوا (موالي عتاقة) (٧٠) ، ولكنَّ جُلَّ الموالي كانوا من احرار اسلموا وانتقلوا الى المراكز العربية ، واكثرهم نبط (٧١) . وبعد ان اوقف عمر بن الخطاب سبي العرب (٧٢) ، صارت كلمة « مولى » تشير الى غير العرب ، بينما تشير كلمة « حليف » عادة الى العرب (٧٣) .

واستمر الولاء بهذه المفاهيم أيام الأمويين : فقد صَنَّف عمر بن عبد العزيز الموالي الى : موالي عقد (اتفاق) وموالي رحم،وموالي عتاقة .

وكان ارتباط البعض بأمير او قائد سببا لظهور « مولي التباعة » ؛ وهو اتجاه يفسر ما فعله العباسيون بعدئذ (٧٤) .

وكان الولاء يعني « الاسلام » « والعربية » في وقت واحد (٧٥) : فالأعاجم (من غير المسلمين) كانوا يَرَون انَّ مَن دخل الاسلام صار عربيا (٧٦) . وكان الموالي يتعلمون العربية ويتخذونها لغتهم ؛ وهكذا اعتبر الحَجّاج القراء من الموالي عرباً (٧٧) . ويلاحظ أن بعض الموالي سُمُّوا بـ « المستعربة » (٧٨) ، وهو تعبير يطلق عادة على عرب الشمال . جاء في اللسان « والعرب المستعربة هم الذين دخلوا فيما بعد فاستعربوا . قال الأزهري : المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب، فتكلموا بلسانهم،وحكوا هيئاتهم،وليسوا بصرحاء فيهم » (٧٩) . ويبدو أن المصاهرات ، وكانت مألوفة قبل فترة الحجاج ورائجة في الكوفة أيام عمر بن عبد العزيز (٨٠) ، ساعدت على توسيع التعريب . وهكذا اخترق الولاء اطار النسب القبلي،ووسّع الاطار العربي،وساعد على انتشار العربية .

ظهر الاسلام في بيئة مدنية ، وأكّد على طلب العلم ، وعنه نشأت اتجاهات الدراسة الأولى في المجتمع الاسلامي . وهذه الدراسات ، مع اهتمامات العرب الثقافية الموروثة ، كَوَّنت الخطوط الأولية للثقافة العربية الاسلامية . واستمرّ الحال كذلك لدرجة أن النظر الى الثقافات القديمة كان عرضيًّا خلال فترة تتجاوز القرن . وفي حين أن العربية اضطُرّت لمواجهة المفاهيم القبلية المحافظة والضيقة، بما فيها من عصبيّة،قبل أن تستطيع تحقيق قاعدة ثقافية واسعة ، فان الاسلام كان قوة دافعة متوسعة ، وكان بشكل ملحوظ عونا للعربية .

تركّزت الفعاليات الثقافية في صدر الاسلام في دور الهجرة ــ البصرة والكوفة خاصة ــ ، واقتصرت في الأساس على الموضوعات الاسلامية والدراسات العربية . كان هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥ هـ) يرى أن أسس الثقافة هي القرآن ، والآثار ، وأحاديث العرب، واشعارها،وايامها ، وأنساب قريش وسائر بني نزار (٨١) .

وبدأت الفعاليات الثقافية بين العرب ، وبدرجة متواضعة ،

بين الموالي الذيـــن اتقنوا العربية (٨٢) . وتاثرت هـــذه الفعاليات بتيارين اساسيين : الأوّل ــ الاســـلامي ، ممثلا في الدراسات القـــرآنية والحديث والفقـــه والمغازي ، والثاني ــ العربـــي (القبليّ) وهو استمرار لميـــول سابقة ، في الشعر والايـــام والاخبار والانســـاب واللغة .

ويسترعي الانتباه أن التطورات الثقافية ســـارت في خطوط متوازية ومتدرجة : روايـــات فردية ومحدودة ابتداءً ، ثـــم حلقات من الطلبة يأخذون عن شيـــخ ويضيفون ابحاثهم الى علمه (٨٣) ، ثـــم تراكُم للمعرفة والدراسات يؤدي الـــى ظهور مدارس محلّيّـــة ، واخيرا تبادُل المعرفة والتأثير بين المراكـــز او المدارس المحلّية عن طريـــق الرحلات، مما ادى الى ظهور علمـــاء متميزين رسموا خطوط التطور المقبـــل . ويتضح هذا التطور في دراســـة الحديث والفقه والتاريخ وفي الدراسات اللغوية .

واجهت الأمـــة الاسلامية الناشئة مشـــاكل وحاجات مباشرة ــ منها انشاء الخلافـــة ومشاكلها ، ومعاملة المغلوبين والاراضي المفتوحة ، وتطبيق المبادىء الاسلاميـــة في الامصار لمواجهة الحاجات الجديـــدة . وكانت هـــذه النواحي بالغةَ الاهميّـــة للتطور الثقافي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد شهد القرن الاول للهجرة رسمَ الخطوط الاساسية لمؤسسة الخلافة، مع ما رافقها من تباينٍ واختلاف في الاتجـــاه ؛ ونشأت الاحزاب السياسية وطَوَّرت آراءهـــا التي كان لها بعض الاثـــر في الفقه (٨٤) . وظهرت آراء في الجبر والاختيار ومســـؤولية البشر عن اعمالهم ، وبـــدأ التنظيم الاداري والمـــالي من التراث المحلّي بعد تعديله بضـــوء مفاهيم اسلامية ، وكان يختلف في واقعـــه بين قُطر وآخر ، ثـــم عُرِّب وطُوِّر بالتدريج لينتهي الى إطار موحَّد فـــي بلاد الخلافة في أواخـــر الفترة الاموية .

وفي حين ان الفعاليـــات الثقافية بدات عربية اســـلامية ولم تأخذ من الثقافات القديمـــة الا في فترة تالية ، فـــان الموقف من التراث الاداري والمـــالي المحلّي المتباين في الاقطار اتخـــذ اتجاها معاكسا ، اذ عُـــرِّب وطُوِّر لينسجم مع المفاهيـــم الاسلامية بصورة تدريجية، حتـــى ادخل اخيرا في النطاق الاســـلامي الثقافي والحضاري .

ارتبطت الفعاليات الثقافية بالحاجات الناشئة : فالدراسات الاسلامية الاولى تتصل بالقرآن ، اذ حاول القراء ان يعلّموا الناس القراءة الصحيحة،وان يُبصّروهم بالمفاهيم الاسلامية (٨٥) . بَعَثَ عمر بن الخطاب بعض الصحابة الى الأمصار (مثل ابن مسعود في الكوفة، وأبي موسى الاشعري في البصرة) ليعلّموا الناس القرآن والسنة (٨٦) . قال اهل الكوفة لابن مسعود : « جُزِيتَ خيرا فقد علّمتَ جاهلنا،وثبّتَّ عالمنا،وأقرأتَنا القرآن،وفقّهتَنا في الدين » (٨٧) . ويُرْوَى الكثير عن عدد تلاميذ ابن مسعود وعن نشاطهم في الكوفة ، اذ كانوا « سُرُج هذه القرية (الكوفة) » كما قال سعيد بن جبير (٨٨) . وقد نالوا منزلة اجتماعية عالية بسبب تقواهم وحرصهم على رسالتهم (٨٩) . وشاركوا في الحياة العامة وفي الاحداث الكبرى من ايام عثمان الى ثورة ابن الاشعث (٩٠). وكانوا يدافعون عن المبادىء الاسلامية،وعن العدالة الاجتماعية . وانضمّ اليهم بعض الاشراف ، وتزايد عدد الموالي بينهم (٩١) ؛ ولَعلّ هذا يوضح سبب الارتباك في بداية ظهورهم . وتُشْعِرُ فعالياتهم بالصلة الوثيقة بين النشاط الثقافي وبين الحياة العامة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وشهد جيل التابعين بين القراء قضاة ، واصحاب فتيا (٩٢) ، وعلماء (٩٣) ، وفقهاء (٩٤) . يقول ابن سعد « ثم كان التابعون بعد اصحاب رسول الله من ابناء المهاجرين ؛ والانصار وغيرهم فيهم فقهاء وعلماء،وعندهم رواية الحديث والآثار والفقه والفتوى » (٩٥) . وشملت دراساتهم الحديث والنحو والتفسير والفقه (٩٦) .

وكان دور القراء والعلماء والقضاة مُهِمًّا لتطوّر الفقه . وبجنب الاعتماد على القرآن رجعوا الى السنة ؛ ويشار الى سنّة الرسول في فترة مبكرة . ثم ان المشاكل الجديدة في الامصار ادت الى الاجتهاد بالرأي منذ زمن الراشدين (٩٧). وواضح أن قيام الخلافة ومعاملة البلاد المغلوبة تطلّبت الاجتهاد والرأي . وبالاضافة الى ذلك كان هناك الاتجاه الى اعتماد المفاهيم والقيم الاسلامية في مختلف نواحي الحياة،والى تطويع العرف المحلي ليلائم الاسلام .

وقد لجأ الصحابة الى الاجتهاد بصورة فردية أو بالشورى ، وصارت أقوالهم جزءا من الآثار . كما كان للتابعين رايهم واجتهادهم . وادى الوضع في الحديث الى تحديد استعماله من قِبَل البعض ، بينما لجأ آخرون — مع التشدّد في النقد — الى الآثار . وكان الراي يعطى بالقياس أو وفق متطلبات المصلحة . ونشأ خَطّان في الفقه : فقه الراي وفقه الاثر ، وذلك بضوء التوسُّع في استعمال الراي او تقييده . ولم يكن التقسيم يستند الى قاعدة جغرافية (الكوفة — المدينة) بل الى الوجهة الخاصة بالفقيه (٩٨) .

وأدّى التباينُ في الظروف المحلية ومدى الاخذ بالراي او الاستناد الى الحديث والآثار، الى أن تظهر بصورة تدريجية سنن محلية او طرق « عمل » . وتطورت هذه البدايات المحلية بعد فترة، ليخلفها الاجماع بمفهومه العامّ، وليكون أصلا آخر من أصول الفقه .

وقد أدت الجهود الجماعية والمتكاملة للعلماء الى قيام مدارس فقهية في العقود الاولى من القرن الثاني للهجرة . ويسترعي الانتباه انه لا توجد خلافات أساسية بين هذه المدارس في المبادىء او الطريقة . وعلى العموم فان الرجوع للرأي كان أوسع في العراق ، بينما كان التأكيد على الحديث اقوى في المدينة . وتَمَيَّز بعض العلماء بدراساتهم الواسعة وبعلمهم في المدارس (المراكز العلمية)، مثل ابراهيم النخعي (٧١٥/٩٦) وحماد بن ابي سليمان (٧٣٨/١٢٠) في الكوفة ؛ والزهري (٧٤١/١٢٤) وربيعة الراي (٧٥٣/١٣٦) في المدينة ، وكان دورهم بداية التطور الذي ادى الى ظهور ائمة المذاهب (ابو حنيفة ، مالك ، الشافعي ، احمد بن حنبل) . وهذا التطور من الدراسات المشتركة المتكاملة (في المدارس) الى قيام ائمة (في الفقه) — وهو اتجاه يظهر أيضا في حقول ثقافية أخرى — يُشعِر بنضج المدارس الفقهية ، مما ادى الى ظهور المذاهب بطلوع القرن الثالث للهجرة (٩٩) .

وبدأت دراسة حديث الرسول (ص) في فترة مبكرة بين الصحابة ،

ثم شملت الدراسة آثار وسنن الصحابة . وكانت التطورات والحاجات الجديدة سببا لذلك ، كما ادت هذه الى الوضع في الحديث ؛ فالمصالح السياسية والحزبية والمحلية والمذهبية وجدت مجالا في وضع الاحاديث ، وادى الوضع بدوره الى التدقيق في نقد الحديث ؛ وهو تدقيق بدأ في المتن،وتركّز تدريجيا وبمرور الزمن على الاسناد ، وجاء علم الجرح والتعديل مثلا رائعا للتدقيق والحيطة والتوثيق .

وكان الاهتمام بجمع الحديث مبكّرا زمن الصحابة والتابعين في صحف واجزاء،وتلا ذلك « تقييد » الاحاديث في الصحف والروايات في أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني للهجرة ، ثم بدأ « التصنيف » أو جَمعُ الاحاديث حسب الموضوعات لفائدة المشتغلين بالفقه وذلك في الربع الثاني للقرن الثاني للهجرة . وادّى حرص المحدثين على أحاديث الرسول (ص) الى عمل مجموعات للحديث مرتّبة حسب رواتها من الصحابة من أواخر القرن الثاني للهجرة،ورافق ذلك تأكيدٌ خاصّ على الاسانيد . ومما يلاحَظ انّ كُتُب الطبقات الأُولى جاءت من نفس الفترة . وأخيرا ، وخلال القرن الثالث للهجرة،وُضِعت المجاميع الاكثر شمولا وتدقيقا ، وهي كتب الصحاح ، ونُظّمت على فصول الفقه (١٠٠) .

وأُستُخدِمَت الكتابة لحفظ الحديث جنبَ الرواية الشفوية ؛ وقد عرف الزهري بكتابة الحديث (١٠١) . وجاءت المجموعات الاولى للحديث من الثلث الثاني للقرن الثاني للهجرة ؛ وهي نفس الفترة التي جاءت منها المؤلفات الاولى في التاريخ (١٠٢) .

بدأ التفسير مبكرا في قراءة القرآن وكان على صلة وثيقة بعلم الحديث . وكانت المحاولات الاولى في الاساس شروحا لغوية للنصوص، واشارات الى ظروف نزول الآيات . وقد أفيد من الشعر (الجاهلي) لتوضيح بعض الكلمات ، كما استند التفسير الى المأثور — حديث الرسول (ص) واقوال الصحابة (١٠٣) .

وتَطَوَّر التفسير بسرعة في مصر التابعين ، وأَخَذَ بعضُهم بالراي اضافة الى الآثار والشروح اللغوية ، ورجع البعض الى اهل الكتاب لتوضيح بعض الاشارات القرآنية ، فتسربت الاسرائيليات، وأثارت شيئا من الشكّ والتحفّظ (١٠٤) . وهكذا بدت بوادر اتجاهين في التفسير : التأكيد على المأثور ، والرجوع الى الراي .

وقد اهتَمَّ بالدراسات القرآنية جماعاتٌ لهم اتجاهات دراسية مختلفة ؛ اذ نرى القراء واللغويين والمحدِّثين يشتغلون بالتفسير . وقد اسهم بعض القراء، مثل نصر بن عاصم (٨٩ هـ/٧٠٧ م.) ويحيى بن يعمر (١٢٩ /٧٤٦) وبعضُ اللغويين، مثل عيسى بن عمر الثقفي (١٤٦/٧٧٦) وابي عمرو بن العلاء (١٥٢/٧٧٠) في التفسير .

واستُعمِلَت الكتابة في التفسير زمن التابعين ، وَوُضِعَت تفاسير من أواخر القرن الاول (مجاهد ١٠٤/٧٢٢ ، قتادة ١١٨/٧٣٦ ، عطاء الخراساني ١٣٣/٧٥١) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واتسمت التفاسير من أواخر القرن الثاني بصورة عامّة بطابع الجمع ، واحتوت على موادّ تاريخية وفقهية ولغوية . كما وُضِعَت في هذا القرن تفاسير لغوية لها اهمية خاصة، مثل مجاز القرآن لابي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠/٨٢٥) ومعاني القرآن للفراء (٢٠٧/٨٢٢) .

ولجأ المعتزلة الى الراي في التفسير (منذ القرن الثاني) مستفيدين من المواد اللغوية . ووضع المحدِّثون ــ الذين تحوي مجموعاتهم في الحديث عادة على قسم في التفسير ــ تفاسير منذ النصف الاول من القرن الثالث الهجري، معتمدين على الآثار بالدرجة الاولى .

وهكذا ظهر خَطّان واضحان في التفسير : التفسير بالآثار ، وهذا بلغ قمته في تفسير الطبري (٣١٠/٩٢٣) ، والتفسير بالراي، الذي بلغ درجة عالية في الكشاف للزمخشري (٥٣٨/١١٤٣) (١٠٥) .

ـ ازدهر الشعر خلال القرن الاول الهجري ، وتأثر بالاوضاع السياسية والاجتماعية الجديدة في المراكز الجديدة ، كما تأثر بالمفاهيم والقيم الاسلامية . ومع أن الكثير من الشعر ينطوي على استمرارٍ للشعر القديم في الاسلوب والاخيلة ، فان موضوعات جديدة ظهرت بالاضافة الى النظرات والمنطلقات الجديدة (مثل الشعر الاسلامي ، شعر النقائض ، الشعر السياسي ، شعر الغزل) ؛ هذا الى وجود الشعر الحضري جنب شعر البادية ؛ كما أن تطوراتٍ جديدةً حصلت في الاسلوب . وجاءت حركة التجديد الشعرية في العصر العباسي الاول بشعر أكثر رقة وأعلى ثقافة ، واكدت على موضوعات جديدة . ومع هذا بقي للشعر القديم منزلة رفيعة في عالم النظم (١٠٦) .

خرج العرب من الجزيرة بِلُغَةٍ راقية وشعر رائع وتراث حضري جنوبي . وكانت للقبائل لهجاتها (لغاتها) ولكنَّ سكناها مجتمعةً في المراكز الجديدة أدت الى ظهور عربية مشتركة في التخاطب . يقول الجاحظ : « وأهل الامصار انما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف في الفاظ من الفاظ اهل الكوفة والبصرة والشام ومصر » (١٠٧) . ولكنَّ القرآن الكريم اعطى المثال للعربية في الكتابة ، واعطاها وحدةً واستمرارًا عبر العصور .

وبدأت الدراسات اللغوية في فترة مبكّرة ، وهي تُشْعِر بالحرص على قراءة القرآن بصورةٍ صحيحة،والحماس لنقاء اللغة العربية . لقد أستَعْمَلَت العربيةَ أعدادٌ متزايدة من الموالي، وتعرَّضَت لِلَّحن . واختلط العرب بالاعاجم في الامصار ، كما فُتحت بيوتهم للسبايا ، مما أثَّر في لغة الكثيرين (١٠٨) . ويَتَّخذ اللحن خطورة واضحة في قراءة المصحف ؛ وهي مشكلة تعرَّض لها حتّى البعض من الاعراب . جاء في رسالة لعثمان تخوُّفه من الابتداع « بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامُل النعمة،وبلوغ أولادكم من السبايا،وقراءة الأعراب والاعاجم القرآن » (١٠٩) .

بـدا اللحن في اواسط القرن الاول للهجـرة وانتشر في فترة التابعين ، وادى الى رَدِّ فعـلٍ قويّ في الدوائر العربية وبين بعض الموالـي المتعربين، لحماية العربية وللحفاظ علـى صفائها . يُبيِّن الزبيدي ان ظهـور الاسلام ودخول الناس فيـه وكثرة من وُجـد تحت لوائه ادّى الى أن « اجتمعت فيه الالسنة المتفرقـة واللغات المختلفة،ففشا الفساد فـي العربية . فَعَظُم الاشفاق من فُشُـوِّ ذلك وغَلَبَتِه ، حتى دعاهم الحذر مـن ذهاب لغتهم وفساد كلامهـم الى ان سَبَّبوا الاسباب في تقييدها لمـن ضاعت عليه،وتثقيفها لمـن زاغت عنه » (١١٠) . كـل ذلك أوجد دافعا قويـا للدراسـات العربيـة (١١١) .

وترتبط بداياتُ النحـو اولاً بقراءة القـرآن : فقد أُحدِثَت نُقَط لتمييز حركات الاعجام في القـرآن مِن قِبَل ابي الاسود الدؤلي (٦٩هـ/ ٦٨٨ م.) ، ولـذا يُنْسَب اليه وضع النحـو . ويعود الى الفترة ذاتها وَضْعُ النقاط لتمييز الحـروف المتماثلة،لضمان القـراءة السليمة (١١٢) .

وكان رُوّاد علـم النحو،من يحيى بن يعمر (١٢٩/٧٤٧) وعبد اللـه بن ابي اسحـق الحضرمي (١١٧/٧٣٥) الى الكسائي (١٨٩/٨٠٥) قُرّاء (١١٣) ؛ فَفَهْمُ القـرآن يعني معرفة جيدة بلغتـه وبإعراب نصوصه . يقول الذهبي عـن الكسائي : « وكان من اهـل القراءة،وهي كانت علمـه وصناعتـه » (١١٤) .

ونظر البعض الـى اللغة على أنها في الاساس تواضُـعٌ واصطلاح ، بينما ذهب البعض الآخـر الى أنها توقيف ؛ وهمـا وجهتان متدرجتان، تعبّران عـن نظرتين في النحو ؛ فقد كـان السماع من أسس الدراسات اللغوية ، كمـا أعتُبِر القياس مع التعليل قاعـدةً اخرى في النحو . وكان لكلٍّ مـن الاتجاهين مؤيدون في البصرة (١١٥) . ثـم ساد القياس في البصرة (مهد النحـو) والسماع في الكوفة . ويبـدو أن بيئة الكوفة العربيةالسـامية في الاساس اقرب الـى الاتجاه الى السماع والسليقة ، امـا بيئة البصرة التجارية المختلطة فانهـا تطلّبت قواعد أكثر تحديدا لفهـم اللغة . أكدت البصرة على القياس لوضع قواعـد

عامة، امـا الشواذ فانها سُجّلت وأُهملت ؛ وامـا الكوفة فانها رات في ان يُسارَ وفـق السماع، وتجوّزت في وضع القواعد الى حـدّ الاستناد الى النوادر عنـد الحاجة (١١٦) . وقد ورثت بغـداد المدرستين ، ولكنها كانت اميل الى الاتجاه الكوفي . واخيرا تفوّق الاتجاه الى السماع على وجهة القياس، وانتصرت بذلـك المحافظة . وهذا يثير السـؤال عن مدى تأثير القراءات المقبولـة في تفوّق السماع (١١٧) .

وسارت الدراسـات اللغوية الى جنب دراسة النحـو ؛ فالحاجة الى فهم القـرآن ، والحديث احيانا ، دعت الـى الرجوع للشعر والى عربية البادية . ذهـب اللغويون الى البادية، الى الاعراب الفصحـاء، (وجاء بعض هـؤلاء الاعراب الى المـدن) للأخذ عنهم (١١٨) . وكانوا ـ وخاصة البصريون ـ حذرين في بحثهـم عن العربية الصافية ، ولـذا تجنّبوا في الغالب القبائـل التي تأثرت بأهل الحواضر القريبـة . ومع ان تأكيد الروايات علـى الأخذ من الاعراب البادين لا يخلـو من مبالغة ، فان هذا الأخـذ في عامّته ادى الى تسجيل مـا يتّصل اساسا بالحياة البدويـة .

كان ابـو عمرو بن العلاء (٧٧٠/١٥٤) شيخ الدراسـات اللغوية في عصره ، يُعرَف بأنـه اعلم الناس بالعرب وبلغتهـم، وبالشعر والايام، وبالقـرآن . وكانت « عامة اخباره عـن أعراب قد ادركوا الجاهلية » . وكان اثره كبيرا في إعداد طلبة نابهين من الجيل التالي (١١٩) . وقامت ابحاثٌ واسعة ومركزة على يـد الجيل التالي في البصرة ، ونُميّز بينهم ثلاثـة من تلاميذ ابـي عمرو بن العلاء : ابو عبيدة معمر بن المثنـى (٨٢٦/٢١١) وابو زيـد الانصاري (٨٣٠/٢١٥) والاصمعـي (٨٣١/٢١٧) ، وهؤلاء افادوا في بحوثهـم من اساتذة آخرين ومـن ثقات الأعراب ، حتى قيل فيهم : « عنهم أُخِـذ ما في ايدي الناس من هـذا العلم، بل كلُّه » (١٢٠) . وكان اعلام المدرسـة اللغوية في الكوفة الكسائي (٨٠٥/١٨٩) والفـراء (٨٢٢/٢٠٧) والمفضل الضبي (٧٨٦/١٧٠) وابن الاعرابي (٨٤٤/٢٣١) . وهكذا نضج هذا الاتجاه في الدراسات في اوائل القرن الثالث للهجرة (١٢١) .

وكانت المجموعات الاولى للكلمات عفوية دون خطّة . ثم تلتها مجموعات تدور حول موضوع او مادة . واخيرا جاء الخليل بن احمد الفراهيدي (٧٩١/١٧٥) بفكرة أول مُعجم (العين) ، وتحقّقت فكرته على يد تلميذ له،وربما بمشاركة آخرين . وسار علماء اللغة بعده على خطته،الى ان وضع الجوهري (١٠٠٧/٣٠٨) خطة اخرى (١٢٢) .

جاءت القبائل بلهجاتها (لغاتها) الى المراكز الجديدة (١٢٣) ؛ وهذا اكسب العربية حيوية وغنى . ثم ان استعمال العربية على نطاق واسع بين غير العرب ، والاختلاط في البيئات الجديدة،وتطوُّر الحياة في المدن،ترك آثاره وأدّى بالتدريج وبين الطبقات الدنيا الى ظهور عربية للتخاطب تتّصف بالبساطة،ولا تلتزم بقواعد النحو (١٢٤) ؛ وبدا ذلك بوضوح في اواخر القرن الأول . ومع ذلك فان الحَجّاج كان يرى ان دُور الهجرة (الكوفة ، البصرة) هي « موضع الفصاحة والاعراب » . واثنى بحشل على أهل واسط لفصاحتهم ، وعَلَّلَ ذلك بأن الحجاج « كان لا يدع احدا من اهل السواد يسكن واسطا » (١٢٥) .

وفي القرن الثالث الهجري ، والعربيّة لغة الثقافة ، كانت الفصاحة ما تزال تُقْرَن بعربية الاعراب الأقحاح . وبجنب هذه اللغة يشير الجاحظ الى لغة المولدين والبلديين بتركيبها واعرابها (١٢٦) . وعلى كلٍّ،فبالاضافة الى لغة التخاطب اليومية ، التي لا تخلو من لون محلي ، صارت العربية لغة الحضارة،وفيها المرونة التي تتطلّبها الحاجات الثقافية والحضرية . ومع ذلك استمرّت الجهود للحفاظ على صفاء اللغة،وعلى جعل النحو اداة فعالة تُمكّنُ الجميعَ من اتقانها عن طريق التعلم (١٢٧) .

وبدات دراسة التاريخ وكتابته في خَطّين — اسلامي وقَبلي ؛ ففي المدينة اتجهت الدراسات التاريخية الى المغازي والجماعة الاسلامية الاولى،ثم شملت تاريخ الأمة . وفي الكوفة (ثم البصرة) اتجهت الدراسات الى نشاط الخلافة،والى فعاليات القبائل وشؤون الامصار .

وكان المحدّثون روّاد المغـازي، في حين نهض الأخباريون بالدراسـات التاريخية في الكوفـة ، وشارك فيها لِحَـدٍّ ما بعض النسّابين واللغويين .

تناول الأخباريّون فـي دراساتهم كلَّ جوانب التاريخ الاسـلامي في كتب يتعلق كـلٌّ منها بموضوع أو بفترة . وبينمـا يلاحظ أسلوب المحدّثين في التدقيـق والاسناد في كتابة المغـازي، فان الاخباريين يشعرون باستمرار نواحي الاهتمـام القبلية، وبأثر أسلـوب قصص الايام . وكان عروة بـن الزبير (٧١٢/٩٤) رائـد مدرسة المغازي، واستقرّ هيكل السيرة على يـد تلميذه الزهري (٧٤٢/١٢٤) بينما كَتَـب الاخباريون في الجيـل التالي لـه .

وهكذا نشأت الدراسـات التاريخية في الاسـلام، وتطورت في نطاق الثقافة العربية الاسـلامية . أما الترجمات لِسِيَرِ الملوك مـن الفهلوية ، والأُخذ مـن الاسرائيليات، فانها أدخَلَت مـادة ضعيفة الى الدراسات التاريخية، ولكنها لـم تأت بفكرة أو بمنهـج .

وشهد القرن الثالـث الهجري تبادل التأثير بـين مدرستي التاريخ في المدينـة والكوفة، في الاسلوب والافـق والمفاهيم التاريخية ، ويلـي ذلك ظهور المؤرخـين الكبار بعد منتصف هذا القرن ، وهـم يمثّلون قمـة التطور في الدراسات التاريخية فـي فترة التكوين (١٢٨) .

وكانت الصلات بالثقافـات الاخرى شفوية ومحدودة : فهنـاك الاسرائيليات ، وبعض اللاهوت المسيحي ، وبعض الاقـوال القانونية التي تسرَّبت عـن طريق الداخلين في الاسـلام ، اضافة الى قليل من الهلنية . واثيرت اسئلـة عن حرية الراي، والصفات الالهيـة، وخَلْق القـرآن . ولا يخفـى أن مسألة حريـة الارادة والاختيار ـ كما في كثير من القضايـا الاساسية ـ بدأت كمشكلة سياسية فـي العصر الاموي ، ولكن الاتصال قـد يترك بعض الاثر . ويلاحَـظُ تَسَلُّل بعض الآراء الدينية الفارسية في بيئـة الكوفة عن طريق بعض المسلمين الجدد ؛ وهذا يلحظ عنـد الغلاة . ولكن هذه الصلات كانـت اولية، ولا يوجد ما يدل على اقتباس متعمَّـد الا في الحاجات المـادية .

وادّى تعريب الدواوين زمن الأمويين (من ايام عبد الملك بن مروان الى ايام هشام بن عبد الملك) الى إغناء العربية ، وساعد على أن تصبح لغة الثقافة للمسلمين وغيرهم . وقد فتح التعريب الباب للشعوب الاخرى في المجتمع الاسلامي للمساهمة في الثقافة وتأكد ذلك بعد الثورة العباسية .

وكان للتراث المحلّي ، الاداري والمالي خاصة ، اثره ؛ وكان للمسلمين ان يأخذوا ما يرون ما دام لا يتعارض والمفاهيم الاسلامية . وقد ادخل المسلمون عليه ابتداءً تعديلاتٍ بضوء المبادىء الاسلامية ، ثم طَوّروه وعرّبوه،واخيرا تمثّلوه في مجرى الحضارة العربية الاسلامية .

وان وُجِدت اشارات الى بدايات اولية وفردية للترجمة زمن الامويين ، فان العباسيين نَظّموا الترجمة وشجّعوها في العلوم والطب والفلك،واخيرا — من أواخر القرن الثاني — في الفلسفة . وهذه الترجمات لم تُدخِل عنصرا غريبا غير مؤتلف في الثقافة،عدا الفلسفة التي تضمّنت احيانا آراء ومفاهيم لا تنسجم والمبادىء الاسلامية . وحاول العلماء المسلمون ان يفيدوا من المنطق اليوناني،وان يوفقوا بين الفلسفة والاسلام في الشكل والمضمون .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهناك خَطٌّ آخر للترجمة — عن الفهلوية بالدرجة الاولى — تَبنّاه الكُتّاب وبعضُ رجال الأدب ، وشمل مؤلفاتٍ ادبيةً وتاريخيةً ودينية . وكان لهذه الترجمات بعض الاثر في الآراء وفي بعض الحركات الدينية السياسية الخارجة ، وكانت تتّصل بالصراع الثقافي مع الشعوبية . وربما كان للاحتكاك والصراع الثقافي أثرٌ في تجديد الاهتمام بالتراث الادبي العربي،وفي تأكيد جديد على العربية وصلتها بالاسلام،وفي تجديد التأكيد على العربية اساسا للعروبة .

وفي هذه الفترة لم تَعُد الرسالةُ الدينية التي حملها العرب ابتداءً قاصرةً عليهم،بل شاركهم فيها المسلمون من مختلف الشعوب ، واصبحت رسالة العرب ثقافية حضارية .

(١) انظـر :

N. Poliak - L'Arabisation de L'Orient Sémitique, R. E. I. 1938, pp. 35-63
W. Marcais - Comment L'Afrique du nord a été Arabisee, Articles e Conférences (Paris 1961) pp. 171 - 192 ;

R. Blachere - Regards sur L'acculturation des Arabo - Musulmanes, Arabica, III, pp. 247 - 65.

(٢) الشيباني ـــ السير ، ج ١ ، ص ٨٨ ، ص ٩٤ ـــ ٩٥ .

(٣) الطبري ـــ تاريـــخ ، س ١ ، ص ٢٨٦٠ . البلاذري ـــ أنساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١١٤ . قـــال الاحنف بن قيس أثناء الفتنـــة في البصرة سنة (٦٤هـ) يرد على اقتراح الغضبان القبعثري بـــأن تترك تميم البصرة « امـــا خروجنا من المصر فانا لا ندع مهاجرنا ومركزنا وفيء اللـــه علينا فنتعرب بعـــد الفتنة » . وجاء في لســـان العرب : « وكان من يرجع بعـــد الهجرة الى موضعه ، مـــن غير عذر ، يعدونه كالمرتـــد » ، مـــادة « عـــرب » .

(٤) المبـــرد ـــ الكامل (باعتناء أبي الفضل ابراهيم وشحاتـــه ، القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ، ص ١٤١ .

(٥) يقول ابن ســـعـــد عن الزبرقان بن بدر ، الـــذي ثبت على الاسلام خلال الردة : « وكان ينزل ارض بنـــي تميم ببادية البصرة ، وكان ينزل البصرة كثيرا » . ويقـــول من الاقرع ابـــن حابس « وكان ينزل ارض بنـــي تميم ببادية البصرة » . الطبقات ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٢٤ .

(٦) في ابن ســـعـــد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٣٩ : « سمعت ابـــي يقول : نهاني رســـول اللـــه ، أو سمعت رسول اللـــه (ص) ينهى عن التناءة ، فمـــن اقام ببلاد الخراج فقد تنـــا ، فانا اكره ان اقيم » .

وجاء في اللســـان : « من تنا في ارض العجم فعمل نيروزهم ومهرجانهم حشر معهـــم » ، مادة « تنا » . وانظـــر : حلية الاولياء .

(٧) البلاذري ـــ أنساب ، (خـــط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ ، ص ١٢٣٥ .

(٨) انظر : رسائـــل الجاحظ (تحقيق عبـــد الســـلام هارون) ، ج ١ ، ص ١٠ ـــ ١١ .

(٩) الطبري ، س ٢ ، ص ١٥٠٥ ـــ ٦ .

(١٠) البلاذري ـــ أنساب (خـــط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ .

(١١) في طور عابدين وآمـــد وراس العين وسنجار والرهـــا .

(١٢) انظـــر : Dillemann - Haute Mesopotamie Orientale (Paris 1962) PP. 34 - 8, 88 - 9 .

الطبري ، س ١ ، ص ٨٢٧ ؛ الاغاني ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ـــ ١ .

البكري ـــ معجم ما استعجم (باعتناء السقـــا ، القاهرة ١٩٥٤) ج ١ ، ص ٢٣ .

(١٣) الطبري ، س ١ ، ص ٢٤٨٩ ، ص ٢٥٠٥ . البكري ـــ معجم ، ج ١ ، ص ٢٣ ـــ ٤ . ابـــن أعثم ـــ فتوح ، ج ١ ، ص ٨٨ ـــ ٨٩ ،

Musil - Middle Euphrates (New york 1927), p. 285

(١٤) البلادري ــ فتوح ، ص ٢٤٨ ، وانظـر : ص ٢٤٩ .

(١٥) الهمداني ــ صفة جزيرة العـرب (باعتناء الاكوع ، دار اليمامـة) ، ص ٧٠ ، ص ٢٧٥ ، ص ٣١٩ . البكري ــ معجـم ، ج ١ ، ص ٢٣ ــ٢٤ . البلاذري ــ فتوح ، ص ١٨٢ ، Musil, op. cit., p. 312.

(١٦) البلاذري ــ فتوح ، ص ١٧٧ .

(١٧) البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٦٩ ــ ٧١ ، E. I.(3) Bakr b. Wail

(١٨) الطبري ، س ١ ، ص ٨٢١ ــ ٨٢٢ ، ص ٢٤٩ . وانظـر : س ١ ، ص ٧٢٤ ، ص ٧٤٧ عـن قدم العرب في العراق ، البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٥٢ ــ ٥٣ . هذا اضافة الـى جماعة من بكر بن وائل ، المبـرد ــ الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(١٩) الهمدانـي ، ص ١٤٩ .

(٢٠) البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٨٥ ــ ٨٦ . ابن اعثم الكوفي ــ فتوح ، ج ١ ، ص ٨٨ ــ ٨٩ . ويذكـر الهمداني أنها تمتد من الابلة الـى هيت ، ص ١٦٩ . وكان امارة ميسين (ميسـان) عند مصب دجلة يحكمها عرب وافدون مـن عمان وذلك قبل قيـام الحيرة . كرستنسن ــ ايران زمـن الساسانيين ، ص ٧٥ . وانظـر : Musil, op. cit., p. 285. E. I (2) Bakr ibn Wail

(٢١) الجاحظ ــ البيان والتبيين (باعتناء ، عبـد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٠ ــ ١) ، ج ٢ ، ص ١٣٠ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٤٨٨ ، انسـاب ، ج ٤ ق ١ ، ص ١٩٠ ، ص ٢٠٢ . الطبري ، س ٢ ، ص ٤٣٣ .

(٢٢) الطبري ، س ٢ ، ص ٤٣٤ . البلاذري ــ انسـاب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١١٦ .

(٢٣) الطبري ، س ١ ، ص ٢٨٠٤ .

(٢٤) ن. م. ، س ١ ، ص ٢٨٠٥ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٣٥٠ . ياقوت ــ معجـم البلـدان ، ج ١ ، ص٤٩٢ .

(٢٥) البلاذري ــ فتوح ، ص ٣٣٤ . الازدي ــ تاريـخ الموصل (باعتناء علـي حبيبة ، القاهرة ١٩٧٦) ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ص ٣١٣ ــ ٣١٥ ، ص ٣٣٢ ، ص ٣٥٠ . ياقوت ــ بلـدان ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢٦) البلاذري ــ فتوح ، ص ١٧٧ .

(٢٧) ن. م. ص ١٧٨ . ياقوت ــ بلـدان ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٢٨) الهمداني ، ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ . الازدي ــ تاريـخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ ، ص ٣١٤ــ ٣١٥ .

(٢٩) الطبري ، س ٢ ، ص ١٨٧٤ .

(٣٠) يشير البلاذري مثلا الـى مسالح او حاميات في الابلـة والخريبة والعذيب وعـين التـمر وعلى اطراف الفـرات الاوسط ، فتوح ، ص ٢٤٢ ــ ٣ ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٥٤ ــ ٥ ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٧٦ ــ ٧ ، ص ٣٤١ . وانظـر : ابن سعد ،

ج ٧ ، ق ١ ، ص ٧٧ ، ص ١٢١ . أبـو يوسف ـ الخراج (بولاق ١٣٠٢) ، ص ٨٣ ـ ٤ . المسعـودي ـ مروج ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ـ ١ .

(٣١) الصولي ـ أدب الكتّـاب ، ص ٧٥ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٦٥ . يحيى بن آدم ـ الخراج ، ص ٤ . أبـو يوسف ـ الخراج ، ص ٨٥ .

(٣٢) المسعودي ـ التنبيـه والاشراف ، ص ٣٨ . أبـو يوسف ـ الخراج ، ص ٢٣ .

(٣٣) تـاج العروس ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ـ ١ (نبـط) ، ويسمون ايضـا الكلدانية . ياقوت ـ بلـدان ، ج١ ، ص ٢٤٧ ـ ٨ ، ج ٣ ، ص ١٧٥ . المسعـودي ـ مروج ، ج ٣ ، ص ٩٥ ومـا بعدها .

(٣٤) انظـر : يحيى بن آدم ـ الخراج ، ص ٥٧ ـ ٩ .

(٣٥) ن. م. ص ٢٢ ـ ٢٣ . ابـن وحشية ـ الفلاحة النبطية (خـط ـ مكتبة احمـد الثالث ، رقـم ١/١٩٨٩) ، ص ١ ـ ٢ .

(٣٦) المسعودي ـ التنبيـه ، ص ٣٩ .

(٣٧) يحيى بـن آدم ـ الخراج ، ص ٢٢ ، ص ٤٨ . بحشـل ـ تاريخ واسط (باعتناء : كوركيس عـواد ، بغداد ، ١٩٦٧) ، ص ٣٩ ـ ٤٠ . الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٢٦ ، ص ٢٠٢٨ ـ ٩ ، ص ٢٠٣١ ، ص ٢٠٣٦ .

(٣٨) العسكري ـ الاوائل ، ص ١٣٦ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٢٦ وبعدهـا . وانظر : أبـو عبيد ـ الاموال ، ص ١١٣ ومـا بعدها . الطبري ، س ١ ، ص ٢٣٧٠ .

(٣٩) يحيى بـن آدم ، ص ٤٥ ، ص ٥١ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٢ ـ ٣ . أبـو عبيد ، ص ٨٢ ـ ٨٣ . قدامة بـن جعفر ـ كتاب الخراج (باعتناء : دي خوية) ، ص ١٤٥ .

(٤٠) ذكـر وكيع ان داود الطائي تكلم امام الحجاج فقال لـه الحجاج : « الكلام كلام عربـي ، والوجه وجـه نبطي » مما يشعر بـأن تمييز من يسلم من النبط لـم يكن مألوفـا . اخبار القضاة ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .

(٤١) انظر : المبـرد ـ الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

(٤٢) انظر : تـاج العروس ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، والبلاذري ـ فتوح ، ص ٢٧٩ . ومدح سعد بـن ابي وقاص بأنه « نبطي في جبايته » .

(٤٣) كان عميرة كاتـب اشرس بن عبد اللـه امير خراسان سنـة ١١٠ هـ نبطيا . انظر : البلاذري ـ انساب (خـط) ق ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٤٤) أنظر : رسائـل الجاحظ (تحقيق عبـد السلام هارون) ج ١ ، ص ٦٦ .

(٤٥) اعتبرت أراضـي الحيرة وبانقيا وليس أرض صلـح ، وكان اهل هذه القـرى يدفعون جزية مشتركة فقـط . انظر : البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٣ ـ ٤ . أبـو عبيد ـ الاموال ، ص ٣٩ ـ ٤٢ ، ص ١١٦ ـ ١١٨ . يحيى بـن آدم ، ص ٥ . واتبع نفس الاجراء مع عـين التمر ، البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٨ .

(٤٦) كانت تغلب تدفع ضعف الصدقة ، أبو عبيد ، ص ٣٩ ــ ٤٢ .

(٤٧) المبرد ــ الكامل ، ج ٣ ، ص ١٠٦٢ ــ ٣ . ويشير البلاذري الى نساج من بني سليم في الكوفة قال : « وان ما شهدت عسكرا قط ولا اثبت لي اسم قط في ديوان ، وانما انا نساج » انساب (خط) » ق ٢ ، ص ٣ .

(٤٨) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ١٦ . وانظر : يحيى بن آدم ــ الخراج ، ص ٢٠ .

(٤٩) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٣ ، ص ٨٢٢ . الطبري ، س ٢ ،ص ١٦٨٣ ــ ٤. ديدنيسيوس التلمحري (الترجمة الفرنسية) ، ص ٩٣ .

(٥٠) يقول ابن سعد عن العباس بن مرداس بن ابي عامر : « وكان ينزل بوادي البصرة ، وكان ياتي البصرة ، وروى عنه البصريون ، وبقية ولده ببادية البصرة ، وقد نزل منهم قوم البصرة » ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٢١ .

(٥١) Blachere - Histoire de la Literature,t. 3, pp. 276 - 7.

(٥٢) أبو عبيد ــ الاموال ، ص ٢٧٦ . أبو يوسف ، ص ١٥ . ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١١٧ ــ ٨ . الطبري ، س ١ ، ص ٢٣٧٦ ، البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٩٨ ــ٢٩٩ ، ص ٣٨٢ ، ص ٤١٩ ، ص ٤٨٠ .

(٥٣) البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٤٣ ــ ٤ . أبو عبيد ــ الاموال ١١٦ . يحيى بن آدم ، ص ٥١ . واكد عمر بن عبد العزيز على ان اهل الحيرة من يهود ونصارى ومجوس لا يدفعون الا الصدقة بعد اسلامهم ، « فمن اسلم ... فعليه في مال الصدقة » . الصولي ــ أدب الكتّاب ، ص ٧٥ .

(٥٤) انظر : المبرد ــ الكامل ، ج ١ ، ص ٤٣٩ ــ ٤٠ .

(٥٥) الطبري ، س ٢ ، ص ١٦٤٨ .

(٥٦) ن. م. س ٢ ، ص ٩٧٧ .

(٥٧) ن. م. س ٢ ، ص ١٠١٨ قرية الاعراب .

(٥٨) الازدي ــ تاريخ الموصل ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ص ٢٨٧ .

(٥٩) ديونيسيوس التلمحري ــ تاريخ ، ص ٤٧ ، ص ٨٩ ، ص ١١٤ ، ص ١٢٦ .

(٦٠) ن. م. ص ٤٧ .

(٦١) ن. م. ص ٩٤ .

(٦٢) انظر : الجاحظ ــ بيان ، ج ٢ ، ص ٧١ . يقول الجاحظ : « وزعم أبو العاص انه لم ير قرويا قط لا يلحن في حديثه ، وفيما يجري بينه وبين الناس » بيان ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٦٣) يقول الجاحظ : « وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظة متخيرا فاخرا، ومعناه شريفا كريما،ويعلم مع ذلك السامع

لكلامه في مخارج حروفه انه نبطي » رسائل الجاحظ (هارون) ج ١ ، ص ٦٦ .

(٦٤) انظر : Ryckmans - Arabie Meridionale, p. 67, pp. 71 - 2

(٦٥) ابو عبيدة ـ النقائض (تحقيق بيفان) ص ٤٢٤ . تاج العروس ، مادة (ولاء) . وانظر : البلاذري ـ انساب ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ص ١٨٩ ، ١٩٢ .

(٦٦) أنظر : ابن هشام ـ السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٦٧) البلاذري ـ انساب ، ج ١ ، ص ١٩٢ ـ ٣ عن عطاء خثعم والاحابيش .

(٦٨) الطبري ، س ١ ، ص ٢٥٢٨ ، ص ٢٥٦٢ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٨٠ . الانساب ، ج ٤ ، ت ٢ ، ص ١٠٧ ، ص ١١٢ . الانساب (خط) ق ١ ، ص ٨٨٣ ـ٠٤.

(٦٩) الطبري ، س ١ ، ص ٢٥٣٨ . أنظر : السرخسي ـ المبسوط (القاهرة ١٩٣٢) ، ج ٨ ، ص ٨١٥ .

(٧٠) الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٢٨ ـ ٩ ، ص ٢٠٣١ ، ص ٢١٢٢ ، ص ٢١٦٧ ، ص ٢١٧٠ .

(٧١) انظر : الطبري ، س ٢ ، ص ٧٤٨ ، ص ٧٥٠ .

(٧٢) اليعقوبي ، ج ٢ (ط . هوتسما) ص ١٠٥٨ . صالح العلي ـ التنظيمات الاجتماعية في البصرة ، ص ٦٥ .

(٧٣) البلاذري ـ الانساب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٨٠ ، ص ١٨٥ . ابن سعد ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٦٠ . يقول الشيرازي عن عبد الله بن ابي اسحق انه « مولى آل الحضرمي وهم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف ، والحليف عند العرب مولى » . طبقات الفقهاء ، ص ٣٧ .

(٧٤) الطبري ، س ٢ ، ص ٨٣٤ ـ ٥ . كون البعض مثل عباد بن زياد ، والمختار وسليمان بن هشام بن عبد الملك كتائب من الموالي . أنظر الطبري س ٢ ، ص ٥٢٣ ـ ٤ . البلاذري ـ أنساب ، ج ٥ ، ص ١٣٦ ، فتوح ، ص ٣٣٦ . أنساب (خط) ق ٢ ، ص ٤٣ ، ص ٣٦ . ابن سعد ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

(٧٥) أنظر : البلاذري ـ انساب (خط) ق ١ ، ص ٥٩٦ .

(٧٦) حينما وعد أشرس أمير خراسان (١١٠ هـ) اعفاء من يسلم من الجزية واقبل الناس على دخول الاسلام « فجاء دهاقين بخارى الى أشرس فقالوا : بمن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا ! » الطبري س ٢ ، ص ١٥٠٥ ـ ٦ .

(٧٧) البلاذري ـ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ .

ولما تمنى العربان صاحب شرطة خالد القسري عليه منع الموالي من استعمال العربية ، أجاب مولى بلهجة ساخرة « أما الكلام فلن يتكلم الا بالزنجية ! » البلاذري ـ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٢٨٤ .

« ١٥ »

(٧٨) الخصائص لابن جني ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، أبو الطيب ــ مراتب ، ص ٥ (المتعربين) . انظر : الاغاني (دار الكتب) ج ١٤ ، ص ٢٨٨ .

(٧٩) لسان العرب ، مادة « عرب » .

(٨٠) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ١٢٥٨ ، ص ١٧٧ .

ومع أن الولاء لا يساوي النسب تماما ، فانه قد يؤدي الى الاندماج في الجماعة العربية « الاسلامية » . انظر الخلاف حول نسب ابراهيم النخعي في المبرد ، ج ٣ ، ص ١١٨٤ . وجاء في ابن سعد على لسان سعيد بن جبير ــ « وقال لي ابن عباس : ممن أنت ؟ قلت من بني اسد ، قال : أمن عربهم أو مواليهم ؟ قلت : لا ، بل من مواليهم ، قال : فقل أنا ممن أنعم الله عليه من بني اسد » . الطبقات ، ج ٦ ، ص ١٩٨ .

(٨١) جاء في البلاذري ، أن هشام بن عبد الملك سأل رجلا من بني مخزوم (اخواله) : « يا خال ! أتقرأ كتاب الله ؟ قال : أقرأ منه ما أقيم به صلاتي ، قال : أفتروي من الآثار شيئا ؟ قال : لا ، قال : أفتعرف احاديث العرب واشعارها وايامها ما يعرفه مثلك ؟ قال : لا ، قال : أفتنسب قريشا وسائر بني نزار ؟ قال : لا أحسن من النسب شيئا . قال : يا غلام ... فليس من خالنا حشمة » . انساب (خط) ق ٢ ، ص ٢٤٠ . وانظر : الجاحظ ــ البيان ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٨٢) ان استعراض اسماء من ترجم لهم (من فترة صدر الاسلام) في مؤلفات مثل طبقات ابن سعد ، واخبار القضاة لوكيع ، وطبقات الفقهاء للشيرازي ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، ونزهة الالبّاء في طبقات الادباء للانباري ، يبين أن الموالي كانوا اقلية ــ حوالي ٢٥ ــ ٣٠٪ .

(٨٣) يروي الاعمش عن هلال بن يساف « قال : قدمت البصرة فدخلت المسجد فاذا انا بشيخ أبيض الرأس واللحية ، مستند الى اسطوانة في حلقة يحدثهم ، فسألت من هذا ؟ فقالوا عمر بن الحصين » (ت سنة ٥٣ هـ) ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٥ .

(٨٤) انظر : ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٥١ ــ ٥٢ ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ ، ص ١٧٣ ، ص ١٩٢ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٣٦ . الطبري س ٢ ، ص ١٩٦٦ .

(٨٥) في الذهبي ــ معرفة القراء الكبار (القاهرة ١٩٦٧) ج ١ ، ص ٤٦ « فكنا نتعلم القرآن والعمل به » . وانظر : ص ٤٨ ، ص ٧٣ ــ ٧٤ . وانظر الشيرازي ــ طبقات الفقهاء (باعتناء احسان عباس ، بيروت ١٩٧٠) ص ٤٣ ، ص ٤٤ ، ص ٤٦ ، ص ٥١ .

(٨٦) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ص ٧٦١ . وانظر : ابن سعد ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٧ . الذهبي ــ القراء الكبار ، ص ٢٤ ، ص ٣٧ ــ ٩ .

(٨٧) البلاذري ــ انساب ، ج ٥ ، ص ٣٦ .

(٨٨) الشيرازي ــ طبقات الفقهاء ، ص ٨١ ، وانظر : البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ج ٥ ، ص ٣٦ . ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤ ، ص ٥ ، ص ٧ ، ص ٨ ، ص ٦٣ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١٦٣ . السجستاني ــ المصاحف (تحقيق

جفري) ، ص ١٣ ــ ١٥ . الاصبهاني ــ حلية ، ج ١١ ، ص ٩٤ . الذهبي ــ القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ص ٣٨ ــ ٩ .

(٨٩) وقد رشحهم ابو موسى لشرف العطاء ، ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٨٩ . واقترح سعد بن ابي وقاص جعلهم في الفين ، البلاذري ــ فتوح ، ص ٤٥٦ . جاء رسول مصعب بن الزبير الى عمرو بن النعمان بن مقرن (في البصرة) بمال فقال له : الامير يقرئك السلام ويقول : انا لم ندع بالكوفة قارئا الا وقد نالة معروفنا فاستعن على نفقة شهر رمضان بهذا . فقال : وعلى الامير السلام ، قل له انا والله ما قرانا القرآن لنطلب به الدنيا ، ورده عليه » . البلاذري ــ انساب ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٩٠) انظر مثلا : الطبري ، س ١ ، ص ٣٢٧٣ ، ص ٣٢٨٣ ، س ٢ ، ص ١٠٠٦ ، ص ١٠٧٢ ، ص ١٠٧٦ ــ ٧ . ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤٦ ، ص ١٢٧ ، ص ٢٠٤ ، ص ٢١٦ ، ص ٥٣ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٦٥ . البلاذري ــ انساب (خط) ، ق ٢ ، ص ٣٠ ــ ٣١ ، ص ٥٤ . المبرد ــ الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٢٧ ، الذهبي ــ القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٦٢ ــ ٦٣ ، ص ٧٩ .

(٩١) الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٩٢ . البلاذري ــ انساب (خط) ، ق ٢ ، ص ٥٣ . ابن سعد ، ج٧، ق ١ ، ص ١١٤ ، ص ١٤٠ ، ج ٧ ، ق ٢ ، ص ٢١ ، ص ١٧١ . وانظر : الذهبي ــ القراء الكبار ، ص ٦٨ .

(٩٢) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ . الذهبي ــ القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٤٤ ــ ٥ .

(٩٣) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤ ، ص ٧٤ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١١٤ . الاصبهاني ــ حلية ، ج ٢ ، ص ٩٨ ــ ٩٩ . الذهبي ــ القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ص ٦٢ ــ ٣ ، ص ٧٥ ، ص ٧٩ .

(٩٤) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٥ ، ص ٦٣ . الذهبي ــ تذكرة الحفاظ (دار المعارف العثمانية ١٣٣٣ ــ ٣٤) ج ٨ ، ص ١٠٦ . وانظر : الشيرازي ــ طبقات الفقهاء ، ص ٨٠ ، ص ٨١ ، ص ٨٢ ــ ٨٣ ، ص ٧٩ . الذهبي ــ القراء الكبار ، ص ٥٤ .

(٩٥) ابن سعد ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٩٦) انظر : الذهبي ــ القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ص ٥٦ ، ص ٦٢ ــ ٦٣ ، ص ٩٣ .

(٩٧) انظر : الطبري ، س ١ ، ص ٢٢١٢ ،

Bravamann - Spiritual Background of Early Islam, pp.169 off, pp. 176off.

(٩٨) ابو زهرة ــ المذاهب الفقهية ، ص ٢٧ وما بعدها ، ص ٢٩ وما بعدها . وانظر :

Schacht - Origins of Muhammadan Jurisprudence (Oxford 1959), pp. 25 off., pp. 82 off.

(٩٩) Schacht - Introduction to Law, pp. 16 off. P. 233 , P. 237 , P. 247 .

(١٠٠) انظر : فؤاد سزكين ــ تاريخ التراث العربي ، ج ١ ، ص ٢٢٦ وما بعدها ، ص ٢٥٤ ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(١٠١) انظر : ابن حجر ــ تهذيب ، ج ١٢ ، ص ٩٩ ، طلب عمر بن عبد العزيز من ابي بكر بن حزم كتابة « ما كان من حديث رسول الله او سنة ماضية او حديث عمرة » . اليافعي ــ مرآة الجنان ، ج ١ ، ص ٢٦١ . الدوري ــ علم التاريخ عند العرب ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ . الرامهرمزي ــ المحدث الفاضل (بعناية محمد عجاج الخطيب) ص ٤٢٣ ، ص ٤٣٠ .

(١٠٢) سزكين ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

(١٠٣) انظر : ابن سعد ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٤ . الطبري ــ تفسير ، ج ٧ ، ص ١٢٩ . ابن حجر ــ الاصابة (القاهرة ١٩٣٩) ، ج ٢ ، ص ١٤٠ . الف ابن عباس كتاب لغات القرآن (نشر باعتناء المنجد ، القاهرة ١٩٤٦) .

(١٠٤) انظر : الجاحظ ــ الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٣ . وعرف مجاهد (ت ٧٢٢/١٠٤) باستعمال الرأي . سزكين ، ج ١ ، ص ١٧٦ وما بعدها . جولد تسيهر ــ المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ص ٧٥ وما بعدها ، ص ٦٨ ــ ٨٨ .

(١٠٥) سزكين ، ج ١ ، ص ١٩٧ وما بعدها ، بروكلمان ــ تاريخ الادب العربي ، ج ٤ ، ص ١٧٣ وما بعدها .

(١٠٦) انظر : بلاشير ــ تاريخ الادب العربي . شوقي ضيف ــ التطور والتجديد في الشعر الاموي (ط ٥ ، ١٩٧٣) .

(١٠٧) الجاحظ ــ البيان ، ج ١ ، ص ١٩ . انظر : السيوطي ــ المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ . الزبيدي ــ طبقات النحويين (باعتناء ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤) ، ص ١٤ . الانساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨١ . ابو الطيب ــ مراتب ، ص ٥ .

(١٠٨) يقول ابو الطيب : « ان اول ما اختل من كلام العرب فاحوج الى التعليم الاعراب ، لان اللحن ظهر في كلام المولدين والمتعربين بعد عهد النبي » . مراتب النحويين (ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٥ . وانظر : السيوطي ــ المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ . والزبيدي ــ طبقات النحويين (باعتناء ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤) ، ص ١٤ .

ويروي السيرافي ان ابا الاسود قال لزياد : « اني رأيت العرب قد خالطت الاعاجم وتغيرت السنتهم .. » انظر : أخبار النحويين البصريين (باعتناء كرنكو) ص ١٧ ــ ١٨ . وانظر : البلاذري ــ انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨٩ عن اللحن ايام زياد . ويشير بحشل ، تاريخ واسط ، ص ٤٦ الى الاختلاط في الكوفة والبصرة . ويتحدث المبرد عن عدد من العرب البارزين ممن عرفوا بلكنتهم الاعجمية (مثل عبيد الله بن زياد ، وزياد الاعجم) الكامل ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ ــ ٦ . وانظر : الزبيدي ــ طبقات ، ص ١٤ . وكان زياد يقول : « اذا لم يجد احدكم سعة لتزوج من يرغب فيه لموضعة فليتزوج سبية » . البلاذري ــ انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨١ .

(١٠٩) الطبري ، س ١ ، ص ٢٨٠٣ ــ ٤ .

(١١٠) الزبيدي ــ طبقـات النحويين ، ص ١ ــ ٢ .

(١١١) انظر : نوك ــ العربيـة ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

(١١٢) انظر : عبـد العال سالم مكرم ــ القـرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية ، ص ٤٨ ومـا بعدها . ابن النديم ــ الفهرسـت ، ص ٥ ،

Haywood - Arab Lexicography, p. 25 off.

الزبيدي ــ طبقـات ، ص ١٣ ــ ١٤ ، السيوطي ــ المزهـر ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ . الداني : نقط المصاحف (دمشق ١٩٦٠) ص ١٣٢ ــ ٣ . وينسب البعض نقط الاعجام الى نصر بن عاصم (٨٩/٧٠٧) ، انظر : المصاحف للسجستاني ، ص ١٦٨ . الذهبي ــ معرفة القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٤٩ ، ص ٥٨ . وجاء في الذهبي « قال خلف بن هشام كنت أحضر بين يدي الكسائي وهو يقرأ على الناس وينقطون مصاحفهم بقراءته عليهـم » . معرفة القراء الكبار ، ج ١ ، ص ١٠١ ، وانظـر ص ١٠٢ . ابـو الطيب ــ مراتب ، ص ٨ .

(١١٣) السيرافي ــ اخبـار ، ص ٢١ وما بعدها ، السيوطي ــ المزهـر ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ . الذهبي ــ القراء الكبـار ، ج ١ ، ص ٧٣ ــ ٥ ص ٨٤ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٦ . شوقي ضيف ــ المدارس النحويـة ، ص ١٨ .

(١١٤) معرفة القـراء الكبار ، ص ١٠١ . وانظـر : الزبيدي ــ طبقات ، ص ٢ . ابـو الطيب ــ مراتب ، ص ٢٤ ، ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ص ١٢٧ ، ص ١٦٥ . السيوطي ــ المزهـر ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .

(١١٥) وهكـذا وقف ابو عمرو بن العـلاء وتلميذه يونس بـن حبيب الى جانب السماع . وانظر : السيرافي ــ اخبـار ، ص ٢٥ ، ص ٣٢ ــ ٤ . شوقي ضيف ــ المدارس النحويـة ، ص ١٩ ــ ٢٠ .

(١١٦) تتمثل نظرة الكوفـة في القول : « كل مـا كان لقبيلة قيس عليه » ، السيوطـي ــ المزهـر ، ج ١ ، ص ٧٥٨ . انظر : احمـد أمين ــ ضحى الاسلام (ط ٧ ، القاهرة ١٩٣٥) ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ وما بعدها . شوقي ضيف ، ص ١٥٧ ــ ١٦١ .

(١١٧) قـال عاصم بن أبي النجود الاسـدي (القارىء) : « من لم يحسن مـن العربية الا وجها واحدا لـم يحسن شيئا » . الذهبي ــ معرفة القراء الكبـار ، ص ٧٥ . انظر : شوقي ضيف ــ المـدارس النحوية ، ص ١٩ ، ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

(١١٨) انظر البلاذري ــ انساب (خـط) ق ٢ ، ص ٨٣٦ ــ ٣٧ ، عـن المفضل الضبي .

(١١٩) الجاحظ ــ بيـان ، ج ١ ، ص ٢١١ ، والمرزباني ــ مختصر ، ص ٣٦ ــ ٣٧ ، ص ٢٥ . بلاشـير ــ تاريخ الادب العربي ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، وانظـر : نهاد الموسى ــ ابـو عبيدة معمر بن المثنى (رسالـة دكتوراة خطية) ، ص ٨٢ ، ومـا بعدهـا .

(١٢٠) ابـو الطيب ــ مراتب ، ص ٣٩ ــ ٤٠ . الذهبي ــ القراء الكبـار ، ج ١ ، ص ٨٣ ومـا بعدها . السيوطي ــ المزهـر ، ج ٢ ، ص ٤٠١ . يقول السيرافي من يونس بـن حبيب : « وقد سمع من العرب كما سمع من قبلـه ... وكانـت

حلقته بالبصرة ينتابها أهـل العلم وطلاب الادب وفصحاء الاعـراب والبادية » . أخبار النحويين البصريين ، ص ٢٣ ــ ٢٤ .

(١٢١) انظـر : المخزومي ــ مدرسة الكوفـة ، ص ٧٩ ومـا بعدها . شوقـي ضيف المـدارس النحوية ، ص ١٥٥ ومـا بعدها . بروكلمان ــ تاريخ الادب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٧٩ ومـا بعدها .

(١٢٢) أبـو الطيب ــ مراتبه ، ص ٣٠ ــ ١ .

Haywood, op. cit. p. 24 off., p. 68 off.

(١٢٣) ذكر المبـرد : « قال معاوية يومـا : من أفصح الناس ؟ فقام رجـل فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كشكشة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاعـة ولا طمطمانية حمير » ، الكامـل ، ج ٢ ، ص ٥٨١ .

(١٢٤) الجاحظ ــ البيـان ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ . وانظـر : ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(١٢٥) بحشل ــ تاريخ واسـط ، ص ٢٦ .

(١٢٦) يقـول الجاحظ : « ولم أجد في خطب السلـف الطيب والاعراب الاتحاح الفاظا مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا قـولا مستكرها ، وأكثر مـا تجد ذلك في خطب المولديـن وفي خطب البلديين المتكلفين ، ومن أهـل الصنعة المتأدبين » . البيـان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨ ــ ٩ .

(١٢٧) انظـر : Fuck - Arabiya (Paris 1955), p. 9 off.

(١٢٨) انظـر : الدوري ــ بحث في نشأة علـم التاريخ عند العرب . روز نتال ــ علـم التاريخ عند المسلمين . جـب ــ دراسات في حضارة الاسـلام ، مقال : التاريخ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأندلس في المغرب

عيسى الناعوري
الأمين العام للمجمع

في عام ١٩٦٧ ، وفي مؤتمر الدراسات الاسبانية / الاسلامية في قرطبة ، التقيتُ بالاستاذ المؤرخ والاديب المغربي عبد الله كَنّون ، وكان بيننا حديث على الاندلس ، وعلى روائع الفنون المعمارية والزخرفية فيه . وكنت اظن أن هذه الفنون قد جمدت على ما خَلّفه عرب الاندلس في اسبانيا . غير أن الاستاذ كنّون اكّد لي أن هذه الفنون لم تَجمُد ، بل هي تعيش الآن وتتطوّر في المغرب بأزهى واحدث مما هي في الاندلس . ودهشتُ لذلك ، وحَسِبتُ انه من قبيل المفاخرة الوطنية .

ثم اتيح لي ان ازور المغرب عام ١٩٧٤ بحثًا عن اثر الفنون الاندلسية هناك : من طراز معماري ، ومن زخرفة ونقش ، ومن غناء وموسيقى ورقص . وقد قضيتُ في تلك الزيارة واحدًا وعشرين يوما ، وتجوَّلتُ في المدن الرئيسية : من طنجة غربًا ، الى وَجْدة شرقًا ، والى مراكش جنوبًا ، وبينهما زرتُ كذلك الرباط ، ومكناس ، وفاس ، وتطوان . وفي كل مدينة قضيتُ يومين او اكثر ، ازور القصور ، والمساجد ، والزوايا ، والمقابر ، والمدارس القديمة ، والاسوار والقصبات . وذهلتُ فعلا وانا اعيش جوَّ الاندلس من جديد ، ولكنْ بشكل احدث واكثر تطوّرًا واشدّ روعة .

كنت قبل زيارة المغرب أحسَبُ ان فنون الزخرفة الاندلسيّة قد دخلت الى الاندلس من المغرب ، مع الفتح الاسلامي الذي دخل من المغرب ، ولكنني تَيقَّنتُ بعد زيارة المغرب من ان هذه الفنون المدهشة انما دخلت الى الاندلس مع الأمويين ، الذين حملوها معهم من دمشق ، بعد أن كانت دمشق قد أخذتها عن القاشاني الفارسي ، وعن

البيزنطيين ، وطبعتها بطابَـعٍ دمشقيّ خاص . ثـم تطوَّرتْ في إسبانيا مع الأيام ، ولـم تدخل الى المغرب الا في عهـد المرابطين ، في القرن الحادي عشر الميـلادي ، الخامس الهجري ، بعـد ان ضَمَّ يوسف بـن تاشفين الاندلس الـى المغرب ، فأصبح البَلَدانِ بلـدًا واحدًا . وبذلك احتضن المغربُ الفنـونَ الاندلسيَّة منذ ذلك الحـين . وحين خرج العرب من الاندلس في القـرن الخامس عشر الميلادي هاربين الى بُلدان المغرب ، حملوا معهم فنونهـم ، وظلّوا يمارسونها هناك . ومـذ ذاك راحت تتطوَّر مـع الزمن الى يومنا هـذا .

والواقع ان الذي يريـد دراسة الفنون الاندلسيـة كلها ، ومنها الغناء ، والرقص ، والموسيقى ، لا بُـدَّ له من زيارة المغـرب ، والتجوّل في مختلف مُدنـه ؛ فالاندلس تعيش هنـاك بأجمل ما في فنونهـا الرفيعـة الخالـدة .

وفي مـا يلي أُدوِّن ما شاهدتُه وأَعجِبْتُ بـه في عدد من اهمّ المـدن المغربيـة، مع شيء مما لا بـدّ منه من الربط التاريخي :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ١ —
سَبْتَـة وطَنجـة

في الزاوية الشماليـة الغربية من المملكة المغربية ومـن القارة الافريقية ، وعلى شاطيء البحـر المحيط والبحر المتوسـط معا ، تقوم مدينة طنجـة ، وعلى مسافة قريبة منهـا الى الشرق تقع مدينة سَبْتَـة ايضا . وبين المدينتـين المريقتين ينتصب شامخًا جبـل موسى — نسبةً الى موسى بـن نصير — ويقابله على العُدْوة الاسبانيـة ، شاهقًا متغطرسا ، جبـل طارق . وكان هٰذان الجبلان والجبـالُ العالية المتقابلة بينهما ، وَمِـن حولهما ، تُدعى باسم (اعمدة هرقـل) . وهي تتقابل متمرِّدَةً على جانبَي مـا كان يُدعى مِن قَبْلُ (بحر الزقاق) أو (بحر المجاز) ويُدعَى اليوم (مضيق جبـل طارق) . وانمـا كانت تسميته بالزقاق أو المجاز لضيقه ، فهـو ضَيّقٌ صغير ، لا تزيد ابعـدُ مسافة فيه بـين العدوتين عن ثلاثـة عشر كيلو متـرا .

امـا تسمية الجبال المتقابلة الجبّارة باسـم (اعمدة هرقل) فلها اسطورة قديمة، تقـول إنَّ الارض كانت مُتّصلة بين المغـرب واسبانيا ، وكانت تُفصِل بين ميـاه الاطلنطي والمتوسّط . ثـم تَزَوَّجَ هرقل ، وجاء بزوجته الى طنجـة . ولئلاّ يتمكّن احدٌ من الوصول اليهـا وسَلْبِه اياها ، شَقَّ الارض بين القارّتين ، وانشـا بينهما الزقاق المائي ، واصِلاً المـاءَ بالمـاء ، واقام الجبال الشاهقة حارسـة على طرفي المـاء ؛ فدُعِيَت هذه الجبالُ المـارِدة باسم (اعمدة هرقـل) .

وفي طنجة مغارة هائلـة على البحر تُدعـى (مغارة هرقل) حَفَرَتْها امواجُ البحر القويّـة التي ظلّت تضرب اطراف الجبال قرونا لا حصر لها .

ويقف المـرء على شاطيء طنجة وسبتة ، فـيرى البواخر والقوارب تَمخَرُ البحر غاديـةً رائحة بين هاتين المدينتين ومُـدُن (قادس ، وطريف ، والجزيرة الخضراء ، وجبـل طارق ، ومالقة) على العُـدْوة الاسبانية . وحين يقف علـى سفح جبل موسى ، بـين سبتة وطنجة ، وينظر الى

الشمال عبر بحـر الزقاق ، يُروعُه شموخُ صخرة جبـل طارق ، كأنما أنشقَّ عنها البحـر ، فتمرَّدت شامخةً فـوق تيجانِ الغيوم المتصاعدة مـن البحـر .

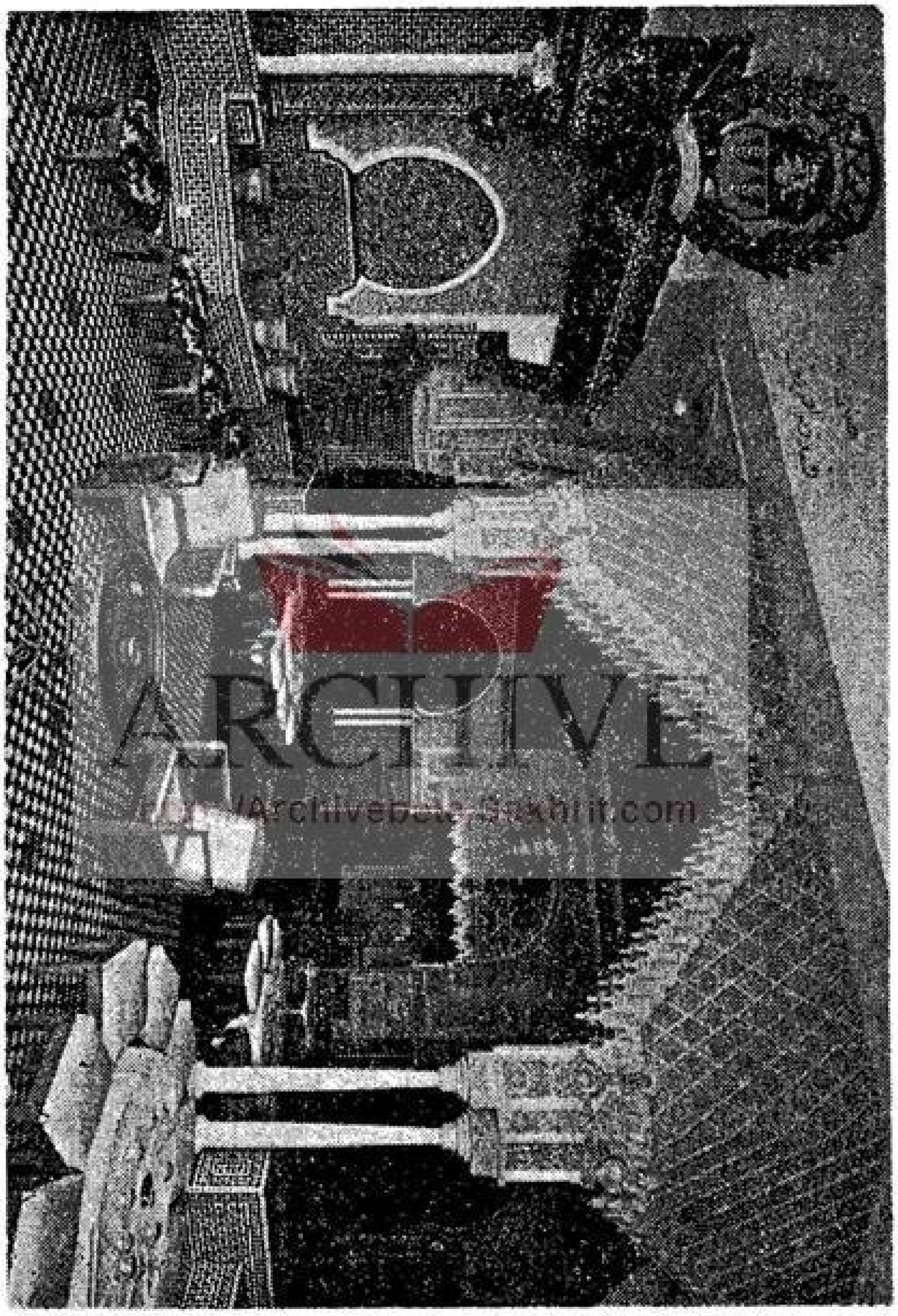
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طنجة . مبنى المجلس التشريعي

من هذه البقعـة انطلقت جيوش الفتح العربـي الاسلامي لفتح بـلاد اسبانيا ، مبتدئةً عـام ٩١ هـ. ، ٧٠٩ م. وكانت هذه البقعة قبـل الفتح الاسـلامي للمغرب وخلال مُـدَّةٍ من بدايته ، ذاتُ صلة متينة باسبانيا ؛ فقد كانـت سبتة في عهد عقبة بـن نافع ، ثم موسى بـن

نصير من بعده ، في ايـدي الاسبان ، وكان يحكمها يوليان ، الـذي تعاون مع العرب على غـزو اسبانيا لانقاذها من حكـم عَدُوّه لذريق ، ومهّـدَ لهم السبيل لفتحها ؛ وسبتةُ اليـوم يحكمها الاسبان ، وكانوا الى عـام ١٩٥٦ يحكمون الشمال المغربـيَّ كلّه ، وجزءًا من الشاطىء الغربي ، في حين كـان الفرنسيون يحكمون بقيّة المغـرب .

وظلّت سبتـة وطنجة مُعْبَرًا طبيعيًّا بـين المغرب والاندلس ، مثلما هما اليوم المَعْبَرُ بـين البلدين : منهما عَبَرت سرايـا طريف بن مالك ، للاستكشاف أولا ، عـام ٩١ هـ. وعادت بالغنائم الوفـيرة ، وببشائر سهولة الفتح . ثـم عَبَرت بعدها جيوش طارق بـن زياد سنة ٩٢ هـ. وتوغّلت في الجنـوب الاسباني والغرب ؛ ثـم تلتها جيوش موسى بن نصير سنـة ٩٣ هـ. لاستكمال فتح اسبانيـا والبرتغال وجنوب فرنسا .

ومن هذه البقعة أيضا كـان الأمويّون يدخلون أحيانـا من الاندلس الى المغرب ، لمنـع المغاربة من التدخّل في شـؤون الأندلس . ثُمَّ مِن هذه البقعة عينهـا دخَلَتْ فيما بعد جيوش المرابطـين ، بقيادة يوسف بـن تاشفين ، مَرَّتين : مرةً لانقاذ إمارات الطوائف مـن غارات الجيوش الاسبانية ، والمرّةَ الثانية لاحتلال الاندلس برمّتها وضمِّها الى المغرب . ومن هناك عادت الصلة التامّـةُ بين المغرب والأندلس ، وأصبحت هـذه جُزءًا من المغـرب ، ودخَلَت فنونَ الاندلس الى المغـرب ، واتّصلَت الحضارة بين البلديـن فصارت واحدة . واستفـاد المغرب من ذلك فائدة عظيمة ، فقد كانت الأندلس متقدّمةً عليه مـن حيث العلم والثقافة ، وكان هو متقدّمًا عليها في القـوة والسلاح ، « فكـان هو يبذل للأندلس حمايته ــ كما يقول الاستاذ عبد اللـه كنّون في الجزء الاول مـن كتابه (النبوغ المغربي) ــ والاندلس تبذل لـه ثقافتها ومعارفها » (١) . وحين استولى يوسف بـن تاشفين على الاندلس ، حمـلَ ملكَ إشبيلية ، المعتمدَ بـن عبّاد ، اسيرا مكبّلاً بالقيود الـى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثـم الى اغمات ــ في الجنوب المغربي ، قرب مراكش ــ حيث مـات سجينـا ذليـلا .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد اللـه كنون ، ص ٧١ ، الجزء الاول ــ الطبعة الثانية .

لقــد تأثّرت طنجة ، مثلما تأثّــر المغرب كلّه ، بحضارة الاندلس ، وظلّ هــذا الاثر الى يومنا هذا بارزا في العنايــة البالغة بالهندسة المعماريــة ، والزخارف والنقوش الاندلسيــة ، والمُقَرْبَصات الرائعة البارزة في الجبص وفي الخشــب ــ والمقربصات تعني (النقوش المجسّمة النافرة) وهــي مأخوذة من الكلمــة اللاتينية (CORPUS) التي تَعني (الجســم) ؛ ويُخطىءُ من يدعوها (المقرنســات) او (المقرنصات) ، فهي كلّهــا مُجَسّمات نافــرة .

وتعتمد الزخارف الاندلسيــة على قطع الزِّلّيج الخزفية الصغيرة ، ذات الالوان الجميلــة الزاهية ، ولا سيما اللــون الازرق واللون الاخضر ، وذات الاشكال البارعــة الصِناعة ، كأوراق الشجــر حينًا ، او باشكال مربّعةٍ او مثلّثةٍ احيانــا اخرى . وهي تُلْصَق إلصاقــًا على الجدران ، وتُصْنَع منها صُوَرٌ واشكالٌ فنّيــة غاية في الجمال والرهافة والدقّــة . وقد تُغطّى بهــا الجدران بأكملها ، او قــد يُغَطّى جزءٌ من الجدران الى عُلُــوٍّ معــين .

وحين تَجتَمِع هــذه الزخارف الخزفيّة الــى المُقَرْبَصات البارزة في السقوف الجبصيّة ، أو فــي الخشب ، ورفوف الابواب الدقيقة الصناعة ، تبدو فِتنــةً للنظر وبَهجةً للقلــب .

هــذا الطراز من الزخارف الزِلّيجيــة والمقربصات الجميلة ما يزال الاسبانُ الى اليــوم يحافظون عليه في متاحفهــم ، وقصورهم ، وبيوتهم ؛ غير ان الحفاظ عليــه في المغرب اشدُّ واعظم ، واكثــرُ اتّساعا : فقصورُ المغرب كلُّها ، ومَســاجِدهُ ، وفنادقه ، والكثيرُ من بيوتــه ، هي قطع روائع من الفــنّ الاندلسي الساحر .

في طنجة ذهبتُ لزيــارة الصديق عبد اللــه كنّون في منزله في القصبة ــ وهي مدينــة طنجة التاريخية القديمة ــ فراعني ما شاهدتُ في المنزل من جمــال النقوش والزخارف الأندلسيــة : من مدخل الدار ، الى بَهْوها السفلي ، الــى السُلّم الصاعدة الى الطابــق الثاني ، الى ما رأيته من غــرف المنزل ، وطراز اثاثها . كــلُّ شيء فيه اندلسي ،

حتى طراز الفـــراش ، والستائر ، والمقاعـــد المدودة على الارض ، او المرتفعة علـــى مساطب مفروشـــة .

ومثل منزل عبد اللـــه كنّون ، بل اكثر زخرفة ، كـــان كذلك الفندق المعروف باســـم (فندق الريف) ، ففي قاعاته آيـــاتٌ باهراتٌ من هذه النقوش والزخـــارف الاندلسية .

وتنتقل من هنـــاك لتتجوَّلَ في (القصبة) المطِلَّـــةِ على البحر ، والمحاطةِ بالاســـوار العالية ، فتتخيَّلُ انك في احـــدى قصبات الاندلس ؛ والقصبةُ كانت مِن قبلُ مَقَـــرَّ الحاكم ، وفيها دوائر الدولـــة ، وثكنات الجيش . وفي طنجة مـــا تزال القصبة يبدو عليها القـــدم ، في البيوت ، والشوارع ، الا مـــن بعض الأبنية الحديثة التي تكـــاد لا تبدو فيها . واسوارُها شبيهة بأســـوارٍ كثيرة ما تزالُ قائمة في العديد من المـــدن الاندلسية . الطراز واحـــد ، والنتوآت المدبَّبَة في اعلـــى الاسوار والأبراج واحدة . ولا عجب فـــي ذلك ، فقد تعاقب على حُكْـــم الاندلس من المغاربة ــ من القـــرن الحادي عشر الميلادي الـــى أواخر القرن الخامس عشر ــ المرابطون ، والموحِّدون ، والمَرينيُّون ، الذيـــن في اواخر عهدهم خرج العرب نهائيـــًا من الاندلس . وكلُّ هؤلاء تركوا آثـــارا متشابهة في الأندلس والمغـــرب معًا ، وكلُّهم شيَّدوا القلاع والحصـــون والقصبات والقصور ، وبنـــوا المساجد والاسوار ، وأسّســـوا المدارس في عُدْوَتَي بحـــر الزقاق . وكثيرٌ من هذه الآثار مـــا يزال قائما الى اليوم علـــى الأرض المغربيّـــة والأرض الاسبانيّـــة .

واما الغناء الاندلســـي والموسيقى فما يزالان يعيشـــان كذلك في طنجة ، وفي المغرب برمّتـــه.والمغاربة يدعونه باسمـــه الحقيقي : (الغناء الاندلسي ، في حـــين يدعوه التونسيون والليبيون باســـم آخر ، هو (المـــالوف) . والمغاربة يقيمون حفلات الغنـــاء الأندلسي باستمرار في كلّ مكان من الارض المغربيـــة ، باعتباره فنـــًا لهم فيه حِصَّة ، ولهم في بقائه نصيب ؛ فهـــو لذلك بعضُ من التراث الشعبي المغربـــي .

— ٢ —

الربـــــاط

من طنجة ننحدر ــ مع الخريطـــة الجغرافية ، لا مـــع التاريخ ــ جنوبا ، لنصل الى مدينة الربـــاط ، عاصمة المملكة المغربيـــة اليوم ، وجارة مدينة (ســـلا) على شاطىء الاطلنطي ، لا يفصـــل بينهما غير نهر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مئذنة حسان في الرباط

ضحل الميـــاه ، قليل العرض ، هو نهـــر (بورقراق) . وفي (سلا) تُوفّيَ الملك عبـــد المؤمن ، اول ملوك الموحّديـــن .

وقبل ان ابـدا الحديث على الرباط ، ارى ان اذكـر ان جارتها (سـلا) مدينةٌ اندلسية،بمعنى انَّ سُكّانهـا من اصل اندلسي ، نزحوا من الاندلس فعمروها ، واقامـوا يمارسون فيها اساليب حياتهـم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وصناعاتهـم الاندلسية ، مثلما فعـل إخوانٌ لهم خرجوا من الاندلس ، وانشـاوا مدينة تطوان ، وبعض المـدن المغربية الاخرى ؛ وكانت سـلا من قبل مدينة رومانية عريقة . فهي من المـدن المغربيـة القديمـة .

ولكنّني لـن اقفَ طويلا عند مدينة سـلا ، وقد زُرْتها وتجوَّلْتُ فيها ، فلم اجـد فيها من مظاهر الفنـون الأُندلسية الا القليل الذي لا يستحقّ الوقوف عنده،بالنسبة الى ما شاهَدْتُه في المـدن الاخرى الكبيرة.

واما مدينة الرباط ، او « رباط الفتح » ، كما كـان اسمها ، فتزخر بالكثير جـدًّا من مظاهر الفنون الأندلسية بشكـل يسترعي النظـر ، ويستوقف الزائـر للتأمل والاعجاب .

هذه المدينة بناهـا سلطان الموحّدين الأشهـر يعقوب المنصور ، سنة ١١٩٨ م. ٥٩٣ هـ. وانشأ فيها مسجد حسّان وصومَعَته ــ مئذنته ــ اخت مئذنة (الكُتُبيَّة) فـي مراكش ، ومئذنةِ (الخيرالـدا) في اشبيلية ، بالاندلس ، وكلُّها مـن اعماله الخالدة . واما مسجد حسّان فقد دُرِس ، ولم يبق منه اليـوم غير انصافِ اعمدةٍ مزروعة فـي الارض ، يقوم بينها جزءٌ من المئذنـة يُستدعي الاشفاق حين يتذكَّرُ المـرءُ ان شقيقتَيها في مراكش واشبيلية لا تـزالان قائمتين تتحدّيان الزمان . ويُقـال ان المئذنة لم تكمل ، مثلمـا كملت شقيقتاهـا .

وفي الطرف الغربي مـن المدينة تقوم (قصبـة الاوداية) ؛ وهي اخـتٌ لقصبات عديدة مثلها في الطراز ، باقيـةٍ الى اليوم في الأُندلس ، تشابهها في البنـاء الداخلي ، وفي الأُسوار ، وفي كـلّ شيء . وكان قد انشأها ملك الموحّديـن الأوّل عبد المؤمن بـن علي سنة ١١٥٠ م. وهي اصل مدينـة الرباط .

وفي جهة اخرى مـــن المدينة تقوم بقايا مدينـــــةٍ رومانية تُدعى (شيلا) ، وقد اتّخذها ملـــوك المَرينِيّين مَقبرةً لهـــم ، واحاطوها باسوار عاليـــة ، واقاموا فيها مسجدا ومئذنـــة . وكلّها ما تزال قائمة هنـــاك الـــى اليـــوم .

ولم تصبح الرباط عاصمة للمغرب الاّ في عهد الاسرة العَلَويّة التي تحكم المغرب منذ زمن مولاي رشيـــد ، في القرن السابع عشر الميـــلادي — وكانت في اول عهدهم مَقَـــرًّا مؤقتا لملوكهم ، ثـــم تحوَّلَت الى عاصمة رسمية لهم في زمـــن الملك يوسف ، والد الملك محمـــد الخامس ، وَجُدِّ الملك الحسن الثانـــي . وكانت عاصمتُهم مِن قَبلُ هـــي مدينة فاس ، او مدينة مراكش . وقبل ذلك كانت مـــدنٌ اخرى عواصم للمغـــرب ، فالعاصمة هي (وِليلي) مـــرّة ، وحينًا مراكش ، وحينًا آخـــر مكناس ، او فاس . واحيانا كانت المدينـــةُ الواحدة تتحوَّل مِرارًا الـــى عاصمة ، مثل مدينة فـــاس ، ومدينة مراكش .

ولقد تَقَلَّبَتْ على المغـــرب كلِّه حكوماتٌ متعددة : مِن عهـــد إدريس الأول ، حفيـــد الرسول ، الذي لجـــأ الى المغرب في القرن الثامـــن للميلادي ، هربًا مـــن بطش هٰرون الرشيد ووزيـــره جعفر البرمكي ، وأَسَّسَ هناك الدولـــة الادريسيّة ، اول مملكة مغربية اســـلامية ، وقد استمر حكمها نحـــو قرنين من الزمن . ثـــم قامت الدولة الفاطمية ، فدولة المرابطين ، فالموحديـــن ، فالمَرينيين ، فالوَطّاسيين ، فالسعديين ، واخيرا الدولة العلوية الحاكمـــة الى اليوم . وعَرَفَ المغـــربُ الحكم الاجنبي فترة مـــن تاريخه الحديث ، وكان حُكمًـــا استعماريًّا مزدوجا : فهو اسبانيّ في الشمـــال والغرب ، وفرنسيّ في الوســـط كلّه ، الى ان جـــلا الاستعمار المزدوج في عهد الملك محمـــد الخامس ، ثم في عهد ابنه الحسن الثاني ، ملـــك المغرب اليوم . ولم يبـــقَ من المغرب في ايدي الاسبان غـــير مدينتي سبتة ومليليا ، في الشمال المغربـــي ، على ساحل البحر المتوسط ، وذلك بعـــد ان خرج الاسبان اخيرا مـــن الصحراء المغربية ، على الســـاحل الجنوبي الغربي .

وكان المرابطون ، وُمِـن بُعْدِهم الموحِّدون ، ثـم المَرينيّون قد حكموا الاندلس ، وجعلوا منها جـزءاً من دولة المغرب . وفي اواخـر العهد المرينيّ وبدايةِ العهـد الوَطّاسي خَرَجَ العرب مـن الاندلس ، فكان من الطَبَعيّ جـدًّا ان يلجأوا الى الشمال الافريقـي ، ويُنشئوا فيه مُدنـًا وقرى ، كان منها فـي الشمال تِلمسان وتَطوان ، وفي الوسط سـلا ـ وتلمسان اليوم مـن الجزائر ـ .

هـذا من الجانب التاريخي الذي يربط بين المغـرب والأُندلس ، ومن حيث الآثـار العديدة الباقية اليوم في مدينـة الرباط ، مِمّا له اشباهٌ كثيرة فـي الاندلس .

امّـا الطراز الاندلسي في البنـاء والزخرفة ، فان في الرباط منه الكثير ممّا يُدهش النظـر ويُبهج النفس . وانـت حين تصل الى مئذنة حسّان ، تجد الـى جانبها ، وعند طُرُف الأعمـدة الباقية من جامع حسّان ، بنـاءً من أفخم الابنية وابهاها ، هـو ضريح الملك محمـد الخامس ، والـى جانبه مسجد محمـد الخامس كذلك . والبناآن آيتان من آيات الصناعة الاندلسيـة الحيّة المتطورة في المغـرب ؛ وأدعاهما الى الدهشة والانبهـار بجمال صناعته الاندلسية هـو الضريح ذو الطابقين ، بِقُبَّتِه العالية المذهبة ، وجدرانه التي تَفَنَّنَ فيها الصُنّاع حتى لم يَبْقَ بعد فَنِّهم فـنٌّ في زخارف الزِلّيج والمقربصات الرائعـة . وأنت تقف تحت قُبَّتِـه ، وتحتار في تلك الصناعة العجيبة التي لـم تَعْرِف عصورُ الاندلس لهـا مثيلا ، حتى في قصر الحمراء ، وقصر جَنَّـة العريف ، وجامع قُرطبة ، وقصر اشبيليـة ـ وكلُّها من عجائب الدنيـا في جمال الصناعة الزخرفيـة والهندسية الاندلسيـة ـ .

والجديد في ضريح محمـد الخامس هو إدخال الذهب فـي الطراز الاندلسي باشكال لـم تعرفها زخارف الاندلس مـن قبل ، وبكثرة تَخْلب النظر ؛ وكذلك التَفَنُّن فـي الأُشكال الزخرفية الأُخرى غـير المألوفة كذلك . وتُحِسُّ وانـت في داخل الضريح ، ثُـمَّ في المسجد مِن بَعده ، بأنك تودُّ لو تُطيل البقـاء ، مستمتعاً بروعة الصناعة وجمال الفـن .

وتستعيد في خيالك كـلَّ قصور الاندلس ومساجدهـا ومآذنها ، فتحسُّ بعظمة الأندلسيين الذيـن خَلَقوا هذه الفنون المدهشة : مِن دِقَّـة القِطَع الزلّيجية الصغيرة ، ورهافـة الفن في ترصيعها ، وجمـال النقوش المصنوعة منها ، ومن رهافـة المقربصات الجبصية والخشبيـة التي خَلَقَتْها عبقريّةُ الفنـان الأندلسي . ثم يأخذك العجب مـن بقاء هذه الصناعة العجيبة مزدهـرة ، ومن تَطَوُّرها وتحديثها في مـدن المغرب كلّها الى اليـوم ، وحفاظ المغرب على ان تظـلَّ الاندلسُ حَيَّةً فيه ، لا يمحو جمالهـا الزمان ، بهندستها المعماريـة ، وزخارفها ونقوشها ومقربصاتها ، وكذلـك بموسيقاها ، وغنائها ورقصهـا .

وتَخْرُج من الضريح والجامـع لتتجوَّل في انحاء مدينة الربـاط ، فتدهشك القصور الملكيـة ، بزلّيجها الأخضر الجميل فـي السطوح ، وفي الجدران الخارجية ، وفـي ظِلال الحدائق الفسيحة : قصر المَشْـوَر ، وقصر السلام ، والقصر القديـم الذي بناه محمد بن عبد اللـه العلوي . وهذه القصور الملكيّة تُحَفٌ روائع من الصناعة الأندلسية الطـراز ، تَفَنَّنَ فيها الصُنَّـاع المغاربة فأبدعوا غايـة الابداع .

ثُـمَّ تمضي الى جامع السُنَّة ، وجامـع مولاي يوسف ، وهمـا متقاربان في المكـان ، فتقف متأمِّلاً جمال الزلّيج الاخضر الـذي يُغطّي سطوحهما . وتمضي الـى الداخل ، فتُدهِشُك البساطـة الأنيقة في رهافة الصناعـة الاندلسية ـ وللبساطة جمالُها ايضـا متى كانت من صُنع يَـدٍ فنّانةٍ بارعة ـ .

ولا يقتصر الطـراز الأندلسي على الجوامع والقصور ، بـل تَجِدُه كذلك في بعض الفنـادق ، وأَخُصُّ بالذكر (فندق حسّـان) ، في وسط المدينة ؛ وهو تحفة فنيـة رائعة من الداخل ، بجمـال الصناعة الزخرفية الاندلسية ، التـي تستريح اليها النفس ، ويستريح النظـر .

— ٣ —

مـــراكش

ونمضي مع خريطة المغـــرب انحدارا الى الجنوب ، حتـــى نصل الى مراكش ، مدينـــة النخيل ، أو المدينة الحمراء ، كمـــا تُدعَى أحيانا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مئذنـــة الكُتُبيّة فـــي مراكش

وهي تُدعَى كذلك لانَّ لـــون بيوتها الخارجي احمر ، بعكس مـــدن المغرب الأُخرى وقراه ، وكلُّهـــا تقريبًا مطليَّةٌ من الخـــارج باللون الابيض —

ومِثلُها كذلــك الجزائر وتونس وليبيــا ــ وتَكْثُر في المدينة وَمِن حولها اشجارُ النخيل الجميلــة . وبيوتُها صغيرة وقليلــة الطوابق .

هذه المدينة بناها امــيرُ المرابطين يوسف بــن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ. ١٠٦٢ م. واتّخذهــا عاصمةً لدولته بَدَلاً من العاصمة فــاس . ومِنْ بَعْدُ ظلّت مراكش عاصمــةً للموحّدين ، ثم كانت عاصمةً كذلــك للسعديين في القرن السادس عشر للميــلاد ، العاشر للهجرة . واتّخذهــا ملوك العلويين الأُولون كذلــك عاصمةً لهم ، الى ان انتقلــت العاصمة الى الرباط في عهــد مولاي يوسف ، والد محمــد الخامس ، وَجُدّ الحسن الثاني . وقد تَرَكَتْ كــلُّ واحدة من هذه الدول المغربيــة آثارا من آثارها في هذه المدينــة العريقة .

وجدير بالذكــر انَّ معظم اعلام الفلسفة والطــبّ من الاندلسيين ، من عهد المرابطين الــى أواخر عهد المرينيين خاصة ، قــد انتقلوا من الاندلس ليقيموا في مــراكش او فاس ، في رعاية ملــوك هذه الدول الثلاث وامرائهــا . وفي ذلك يقول عبد اللــه كنّون في كتابه (النبوغ المغربي) : « فابــو بكر بن باجة ، المعروف بابن الصايــغ ، والفيلسوف والطبيب والموسيقي ، هــو ممن اظلّتهم دولة المرابطين ، وخَــدَمَ رجالها بعلمه وفنــه ؛ وابو الوليد ابــن رشد ، وابو بكر ابن طُفَيل ، وابنــاء زهــر ، هُم ممَّن نبغوا في اعقاب عصر المرابطــين ، وانتشرت معارفهم في العصر الموحّدي الذي يليــه . واعلامُ الفقه والتصوف ، مثــل ابن رشد الكبير ، وابي بكــر ابن العربي ، وابن عربــي الحاتمي ، وابن سبعين ، هــم من رجال عصر المرابطــين او عصر الموحِّدين » (١) .

وفي مراكش ضريــح بسيط متواضع ليوسف بــن تاشفين ، على مقربة من جامــع الكتبية ، أُقيمَ في عهد الملك محمــد الخامس فقط ، في حين يقوم ضريح خصمــه واسيره الشاعر الاشبيلي المعتمــد بن عبّاد غيرَ بعيد عنــه ، في أُغمات ، في فخامةٍ لا يعرفها ضريح ابــن تاشفين .

---

(١) النبوغ العربي ، لعبد اللــه كنون ، الجزء الاول ، ص ٦٦/٦٧ .

وكانت اغمات عاصمةَ المرابطين قبل ان يبني يوسف بن تاشفين مدينة مراكش .

وجدير بنا ان نشير ههنا الى ان ابن تاشفين كان قد دخل الى الاندلس بجيوشه مَرَّتين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ، الأولى لصد غارات الجيوش الاسبانية عن ممالك الاندلس ، ولا سيّما عن مملكة اشبيلية التي كان يحكمها المعتمد بن عبّاد ، والثانية بَعْدَها بقليل ، لكي يُضَمَّ الاندلس الى المغرب ، ويبسط سلطانه على العُدْوَتين . وفي هذه المرة الثانية ساقَ المعتمدَ مكبَّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى أغمات ، حيث مات المعتمد في ذلّة الاسر ، وخَلَّف لزوجته وبناته مذلّةَ التشرّد والفاقة . ثم ماتت زوجته ودُفِنَت الى جانبه .

ويتألف مبنى ضريح ابن عبّاد من مدخل ، تقوم الى يساره غرفةٌ فيها سِجِلٌّ للزائرين . ويُفضي المدخل الى باحةٍ مكشوفة ، ثم الى غرفة فيها قبرُ ابن عبّاد وقبرُ زوجته الى جانبه . وعلى الجدار الأيمن والجدار الأيسر أبياتٌ نظمها الشاعر الوزير لسان الدين ابن الخطيب حين زار قبر المعتمد . وهذه أبيات منها :

قبرَ الغريبِ ، سُقاك الرائحُ الغادي حقّاً ظَفِرتَ بأشلاءِ ابنِ عَبّادِ
كفاك ، فارْفُقْ بما استُودِعْتَ مِن كَرَمٍ رَوّاكَ كلُّ قَطوبِ البَرقِ رَعّادِ
ولا تَزَلْ صلواتُ اللّهِ دائمةً على دَفينِك، لا تُحصَى بِتَعدادِ

وكان ابنُ الخطيب قد رثى ابن عبّاد بأبياتٍ اخرى حينما وقف على قبره ، فقال :

قد زرتُ قبرَك عَن طوعٍ بأغماتِ رأيتُ ذلك من أولى المهمّاتِ
لِمْ لا أزورُك يا أندَى الملوكِ يدًا ويا سِراجَ الليالي المدلَهِمّاتِ؟
وانتَ مَن لَو تَخَطّى الدهرُ مَصْرِعَهُ الى زماني،لجادتْ فيه أبياتي

لكأنما شاءت الأقدارُ أن تُقارِبَ بين ضريح السلطان الغالب ، والملك الشاعر المغلوب ، الذي كان له من دنياه السلطان والشعر

معًا ؛ فَخَلَـد بالشعر ، وظلَّ اغرودةَ في فـم الزمان ، وظلَّ قبره حجَّةً للزوّار ممَّن يعشقون الفـنّ والشعر . وَبِجَمْع الضريحين المتقاربـين ، اجتمعَ المغربُ والأندلسُ اجتماعا ابديًّـا ، كان الضريحان رمـزًا خالدًا لـه وعنوانـا .

المدرسة اليوسفية في مراكش

والى جانب ذلـك يجتمع المغرب والاندلس في آثـار اخرى باقية في مراكش ، لَعَلَّ اهمَّهـا جامعُ الكتبيّة ومئذنَتُه ــ او صَومعته ــ اخـت مئذنة اشبيلية الشهيرة باسـم (الخيرالدا) ، ومئذنة حسّـان في الرباط .

تمتاز مئذنة الكتبية ومئذنتا الخيرالدا وحسّان ، بأنَّ الصعود اليها ليس على سلالم ، بل في طريقٍ عريضة مُتَلَوّيَة ، تنتهي كلَّ دَورة منها بِشُرفات من جميع الجوانب ، تُطِلُّ على المدينة ؛ حتى اذا بلغ الصاعدُ اعلى المئذنة ، واطلَّ من شرفاتها ، انبسطت تحتَ عينيه المدينةُ كلُّها كما تنبسط راحة اليد . ويُقال إن المنصورَ قد أراد مِن بنائها بهذا الشكل ان يكون في وُسعه الصعودُ الى اعلى المئذنة على صَهوة جواده . هذه المِيْزَةُ هي اهمُّ ما يجمع بين المآذن الثلاث . واما احجامها فمختلفات : فالخيرالدا يبلغ عُلوُّها اكثرَ من خمسة وسبعين مترا ، وعلوُّ الكتبيةِ اثنان وستّون مترا ، ولا ادري كم كان ارتفاع مئذنة حسان ، في الرباط ، فهي الآن بَقِيَّةُ مئذنة فقط ؛ اما من حيث الشكل الخارجيّ فان الخيرالدا ، في اشبيلية ، تُحفَةٌ رائعة من آيات الفنّ المعماري ، لا تضاهيها في ذلك مئذنة الكتبية . وقد أقيمت هذه المآذن الثلاث في القرن الثاني عشر الميلادي ، السادس الهجري .

وليس في وسعي ان أُطيلَ الحديث على سائر الآثار المراكشية ، فهي كثيرة جدًّا ، وكلُّها جدير بوقفات طوال مُشْبِعات . غير انني اكتفي بذكرها فقط ، ومنها : مقابرُ السعديّين ، وفي وسطها قبرُ احمد المنصور الذهبي ، اعظم ملوك السعديين وابعدُهم شهرة ، وهي من القرن السادس عشر ، وفيها الكثير من اثر الصناعة الاندلسية . وهناك قصر (دار الهناء) وحدائقُ الأُوكدال الفسيحة الواسعة الارجاء ، وقد انشأها الملك محمد بن عبد الله العَلَويّ . وفي هذه الحدائق غابات من شجر الزيتون ، وبِرْكَتان كبيرتان هائلتا الاتساع ، في وسط إحداهما مكانٌ لجلوس جوقةٍ موسيقية وغنائية ؛ فهي بذلك شبيهة بِبِرْكة القيروان في تونس . وهنالك ايضا قصرُ البديع ، الذي بناه احمد المنصور الذهبي ، مِن ملوك السعديين ، في القرن السادس عشر .

واما اقدمُ اثر مغربي يبدو فيه الطابع الاندلسي ، في المغرب كلّه ، فهو المدرسة اليوسفيّة ، في مراكش ؛ وكان قد بناها الامير عليّ بن يوسف بن تاشفين ، ودعاها باسم ابيه . وكل ما في هذه

المدرسة اندلسيُّ الطراز ، سواءً في هندسة البناء ، ام في المُقْرَبصات الخشبيّة السوداء ؛ وهذه اوَّلُ مدرسة اندلسية الطراز شاهدتُها في حياتي ، ولم أرَ من قبلُ مثلها في الاندلس . اما المغرب فتكثر فيه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقبرة السعديين في مراكش

هذه المدارس ، وكثير منها مما انشأه الملك ابو عنان المَرِيني ، وتُدعَى مدارسه كلها باسمه : (المدرسة البوعنانيّة) . وقد شاهدتُ من المدارس البوعنانية ثلاثا : في سلا ، وفاس ، ومكناس ؛ وهي وسواها من المدارس القديمة متشابهةٌ في طرازها ، وغُرَفُ الطلّاب فيها اشبه

بالرنزانات ، وكُلُّها تُطِـلُّ على بهو اوسط مفتوح ، وتقـوم في الطابق الثاني مـن المدرسة .

واما الزخارفُ الاندلسيَّـةُ المدهشة فيجدها الزائـر في قصر (الجلاوي باشـا)، المهجور الآن، بكلِّ ما كان فيـه من اثاث ورياش فاخرة ، كلُّ اقمشتها مـن الدِمَقْس الحُرّ . وكذلك فـي (قصر الباهية) ذي الحدائق الأنيقـة، بطرازها الاندلسيّ الجميل الممتـع . في هٰذين القصرين يعود المـرء بخياله الى الاندلس ، ويعيش في جـوٍّ اندلسيّ صرف ، ولكنّه جـوٌّ اندلسي حديث متجـدد .

— ٤ —

مدينـة فـاس

يـا فاسُ، يا جُنَّةَ الآمال باسمةً وجنّةُ المغرب الأقصى لِمـا رَحُبا
مـا زال جامِعُكِ المعمور مَفخرةً للضاد ، طَوَّقَ طَوْقَ المِنَّةِ الحِقَبا

(محمـد الجبوري)

وتنطلق من مراكش مصعِّدًا فـي الأطلس الأوسط نحـو الشمال ، حتى تصلُ الى مدينتين عريقتين ، همـا مكناس وفاس . ولكليهما تاريـخ طويل مجيد من تاريـخ المغرب السياسيّ والفكـريّ ، وَصِلاتٌ متينة بالأندلس وعرب الأندلس في القديم ، وبفنون الأندلس في العصر الحاضر .

ولستُ اقف طويلا عنـد مدينة مكناس ، بـل اكتفي منها بذكر القليل من آثارهـا الباقية ، واهمُّهـا : قصر اسماعيل بن علي بـن الشريـف ، راس الأُسرة العلوية ، ومَسجِـدُه الأندلسيّ الطراز ، ذو الألوان الجميلة الشبيهة بالـوان قصر إشبيلية ؛ وكذلـك المدرسةُ البوعنانية ؛ وهي احـدى المدارس التي انشاهـا ابو عنان ابن ابي الحسن المَرِينيّ . ويضاف اليهـا قصرُ الجامعيّ ، الاندلسـيُّ الجميل .

وأمّـا مدينة فاس فيرجع تاريخ بنائها الى الملك ادريس الثاني ، ابن الامام ادريس الاول ؛ فهـو الذي وضع حجر الاسـاس للمدينة في غرَّة

ربيع الاول عـــام ١٩٢ هـ. ، الرابع من يناير ٨٠٨ م. ثـــم نُقل اليها عاصمة ملكه من مدينـــة (وِليلى) او (فولوبوليس) التـــي كانت عاصمة ابيـــه . وسَرعان ما توافد عليه العـــرب من إفريقية (تونس) ومن الأندلس : فجاءه خمسمئة فـــارس من افريقية ، ومئـــات من الاسر

صحن جامع القرويين في فاس ويبدو سقوفه الزليجية

الأندلسية . فَجَعل المدينـــة قسمين ، دعا احدهما (عـــدوة الأندلس) — وهي القسم الشرقيّ من المدينة — وأنزَل فيـــه الأُسَر القادمة مـــن الأندلس ، ودعـــا القسم الثاني (عـــدوة القرويين) — وهي القسم الغربيّ — وقد اتّخذ منـــه الملك ادريس مَقرًّا لـــه .

وظلت فاس عاصمة الدولة الادريسية ، التي قامت في المغرب على يد الامام ادريس الاول ، بعد هربه من المشرق خوفا من بطش الرشيد به . غير انَّ البطش لحق به الى المغرب ، فمات مسموما في عاصمته (وليلى) على يد الشماخ ، بتدبير من هُرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي . ولما قامت دولة المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ، انتقلت العاصمة من فاس الى مراكش، التي بناها يوسف بن تاشفين . ولما جاء المَرِينيّون في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، نَقلوا العاصمة من مراكش الى فاس من جديد ، واضافوا الى المدينة قسما دعوه (فاس الجديدة) واحاطوه بالأسوار ، كما كانت المدينة القديمة محاطة بالأسوار ايضا . وظَلَّت فاس عاصمةً للمغرب بعد ذلك في عهد الوَطّاسيّين ودولتهم القصيرة العمر .

وكَثُر نزوحُ الأندلسيّين الى فاس ، وقد حَملوا معهم مظاهر حضارتهم وفنونهم ، فكان لذلك اثره الكبيرُ جدًّا في التقدُّم الفكريّ والحضاريّ الذي عرفته فاس . وَممَّن وَفَدوا عليها ومارسوا علومهم وفنونهم فيها : الطبيب والعالم عبد الملك بن زهر ، والفيلسوف ابن رشد ، والوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، والكاتب جُزَيّ بن عبد الله الغرناطي ، والوزير الشاعر ابن زمرك ، وغيرهم ، وكلُّهم عملوا في المغرب في عهد المرابطين او الموحِّدين او المَرِينيّين . والمؤلم حقًّا انَّ كلَّ واحد من هؤلاء الأعلام قد رُمِيَ بتهمة الالحاد والزندقة ، وبعضُهم مات حرقا ، او مات مسموما . ولا يزال قبر لسان الدين بن الخطيب بارزًا أثَرُه خارج اسوار مدينة فاس .

وما تُذْكَر مدينة فاس الا ذُكِرَ معها جامع القرويين ، وكان دائما في المغرب صنو الأزهر في مصر ، وفيه تَخَرَّج كبارُ علماء البلاد المغربية على توالي العصور الى يومنا هذا . وقد تَحَوَّلَ اليوم الى جامعة عصرية . وهذا الجامع انشأتْه في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، السيدةُ فاطمة أمّ البنين الفِهْريّة ، من مهاجرات القيروان .

ولم يلبث الجامع ان اصبـــح جامعة ، هي اقدم جامعـــات العالم على الاطلاق ، واصبح مصـــدر إشعاع فكريّ إسلامي غَمَرَ بلـــدانَ المغرب والأندلس ، وتوافَدَ عليـــه العلماءُ وطُلاّب العلم من كـــل صوب . وبجامع القرويين صارت فـــاس عاصمةَ المغرب العلميّة الـــى اليوم . وهو اول

ميضاة جامـــع القرويين في فـــاس

جامع تقيمه سيّـــدة مسلمة في العالم الاسلامي كلّـــه ؛ وكُلُّ الدول التي تعاقبت على حكـــم المغرب منذ ذلك الحين كانـــت تتبارى في دعـــم القرويين ، وإغداق المـــال عليه ، وإجراء التوسُّعات التـــي يتطلّبها ، وتوفير العلماء لـــه ، (والمدارس) العديدة لايواء طلاّبـــه وتدريسهم .

أمّـــا اثر الاندلس في القرويين فنُطالِعُه في كـــلِّ مكان من هذا الجامع العريق : ففـــي المحراب نرى الطرازَ الاندلســـيّ يُزَخرِفُه زَخرفَةً بديعة ؛ وفي صحن الجامـــع تُدهِشُنا قِطَع الزِلّيج ــ او الخـــزف الصغير الملـــوَّن ــ البديعة الألوان تُغطي الأرضيَّةَ كلَّهـــا ، وتزخرف المِيضَأةَ الجميلة ، والجُدران جميعُهـــا . وَمِن فوقِ زِلّيج الجدران والأرضيّـــة تتدلّى المَقْرَبصات والنقـــوش الجِبصيَّة والخشبيَّـــة المدهشة ، تَفنَّنَت فيها ايدي الصُنّاع الفاسيّين الذيـــن أخذوها في الأصل عـــن الاندلسيين ، ومضت تبدع فيهـــا ما شاء لها الابداع . وعلـــى طرَفَي الصحن تقوم ظُلّتان ــ سقيفتان ــ جميلتان ، تُزَيِّنُهمـــا السقوف الخشبية البديعة في نصفها الأعلى ، والأعمِـــدَةُ الرفيعة الدقيقة مـــن اسفلهما ، والزلّيج الأخضر البهيج في سطوحهمـــا . وعلى الجدران قِطَـــعٌ صغيرة من الفسيفساء الزِلّيجية البهيّـــة الألوان .

وعلى مقربة من الجامع عِـــدَّةُ مدارس قديمة ، اندلسيـــةِ الطراز ، نَذكر منها : البوعنانية ، ومدرســـة النجّارين ، والعطّارين ، والصَفّارين ؛ وهـــذه كلُّها من العهد المَرينـــيّ في القرنين الثالث عشر والرابـــع عشر . وهنالك ايضا مدرســـة الشَرّاطين ، وهـــي من عهد الأُسرة العَلَوية . وكلُّ هذه المـــدارس وسواها من المدارس القديمـــة في مختلف مـــدن المغرب هي من طراز المدارس التـــي نشأت في الأندلس من قبل ، والتي جُعِلَت مـــن الأندلس منارةَ علـــمٍ وحضارةٍ قَبْلَ ان تقوم النهضة الحديثة في اوروبـــا .

وتَتَجَلَّى الصناعةُ الأندلسيـــة في كل مكان من مدينة فـــاس : في المساجد ، والزوايا ، وفـــي المدارس ، والأضرحة . ومن أهـــمِّ الزوايا في فاس زاويةُ مـــولاي إدريس ، مؤسس المدينـــة ؛ ويتبدّى جمالها في زلّيج سطوحها وأفاريزِهـــا ، وزخارف جدرانها وارضيّتهـــا .

غير ان احدثَ الاعمـــال الزخرفية الجميلة المتطـــوِّرَة يُبْهِرُ الزائر في (فندق قصر الجامعـــي) ، وهو فندقٌ كبير حديـــث ، نِصفُه كان قصرًا قديما من القرن التاســـع عشر لأحد كبار اغنياء المغـــرب يُدعى (الجامعي)

ـ وله قصور اخرى في مكناس وبعض المـدن المغربيّة الاخرى ـ ثـم اضيفت اليه اجنحةٌ حديثـة ، واستُغِلّت حدائقه الفسيحة ، وَزُيِّـنَ بالنقوش والزخارف الأندلسيـة المُحْدَثَة ، فجاء قطعـةً مدهشة من جَنَّة

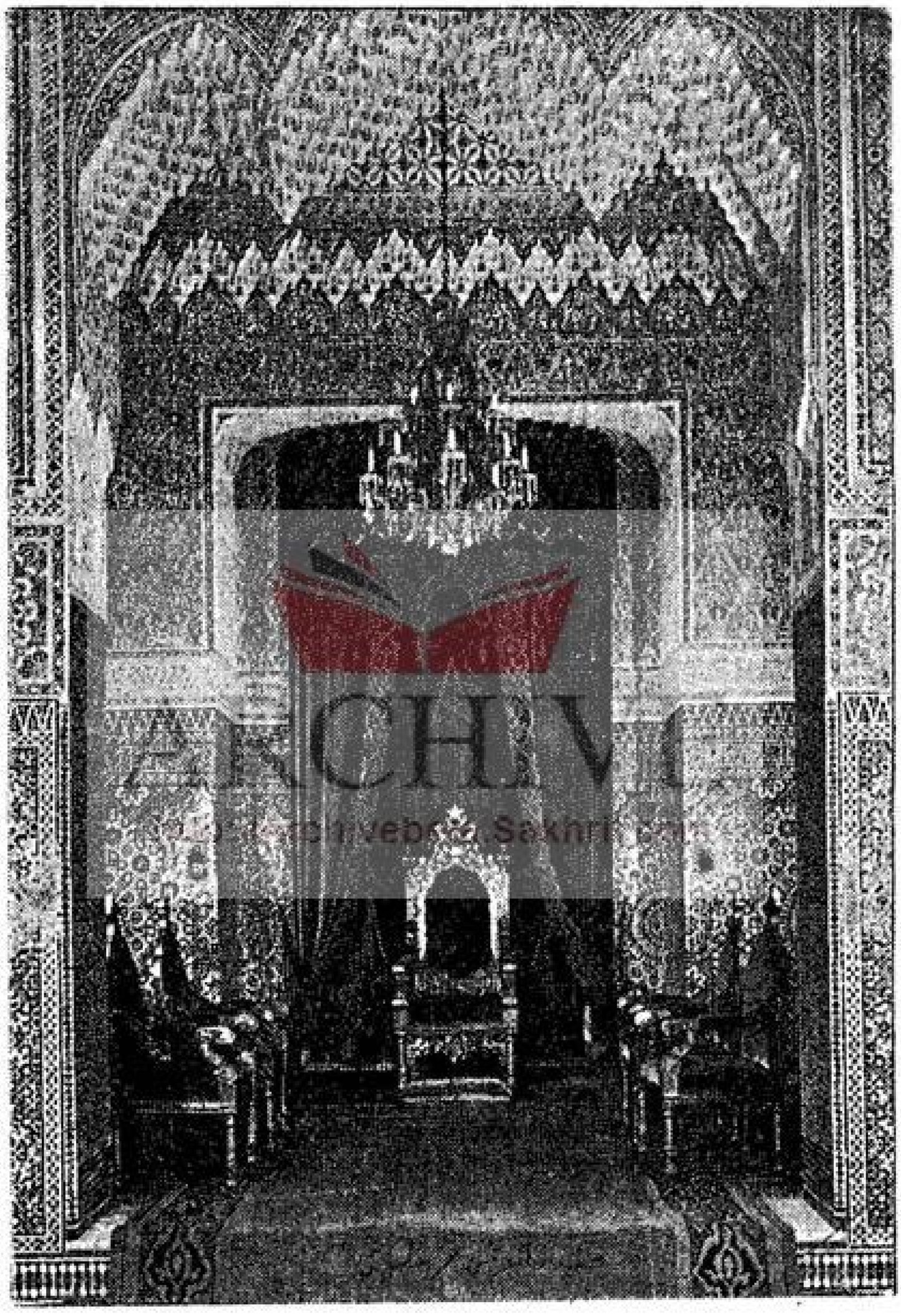

قاعـة العرش في القصر الملكـي في تطوان

الأندلس ، يُعِزُّ مثيلهـا في قصور غرناطة وإشبيليـة ؛ وفي فسحاته الواسعة ، حَوْلَ بِرْكة المـاء الكبيرة في حدائقه ، تُقـام حفلات الغناء والرقص والموسيقى الأندلسيـة ، فيعيش الساهرون في جـوٍّ اندلسيّ خالص ، وفي مُتعـةٍ للعين والنفس لذيـذةٍ حالمة .

لقـــد امتزج تاريخُ فاس بتاريـــخ الأُندلس في اشياء كثيرة : امتزج بالأُسَر الأندلسيّة العديـــدة التي نَزَحت الى المدينة منـــذ انشائها ؛ وامتزج بفنون الهندسـة العمرانيـــة والنقش والزخرفة ؛ وامتـــزج في رحاب جامع القرويين ، اساتذةً وطُلاّبـــًا وزُوّارًا ؛ وامتزج في قصـــور الملوك والحُكّام بمن وفـــد عليهم من أعلام الأدب والشعر والفِقْـــه والعلم من الأُندلسيين ، ولا سيما في عهـــد المَرينيّين وسُلطانهم الأشهر ابـــي عنان . وقد ذَكَرنا في ما تَقَدَّم اسمـــاءَ بعض هؤلاء الأعـــلام .

وهناك مظاهر اخـــرى كثيرة من امتزاج الأُندلس بمدينة فـــاس ، نُجِدُ بعضها في الطُرُقـــات الضيّقة التي تسير في وســـط المتاجر المسقّفة على الجانبين، لتُبرِزَ اعمـــال النَسّاجين والصاغة والصُنّـــاع الفاسيين البارعةَ الجميلة . ونَجِـــدُ بعضها كذلك في طراز الأســـــوار ذات النُتـــوءات المُدَبَّبَـــة .

والواقع أن مدينـــة فاس من اكثر المـــدن المغربية تأثُرًا بالأُندلس وبفنون الأندلس ، وَمِـــن اكثرها احتضانا لفنـــون النقش والزخرفـــة والبنـــاء الأُندلسيـــة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٥ —

تَطْـــوان

تقوم مدينة تطوان ــ او المدينـــة البيضاء ، كما تُدْعَـــى أيضا ــ على سفح تـــل (دَرْسَة) الى الجنوب مـــن سَبْتَة . وَمِن حَوْلها يَسقي وادي الحلو ــ ويُدعى أيضـــا وادي مَرْتَل ــ بساتينها الجميلة المحيطة بها . وقد بَنَى هذه المدينـــةَ المهاجرون الذين جاؤا مـــن غرناطة في أيامها الاخيرة ، وعلى راسهم ابـــو الحسن المنظري . ثـــم لَحِقَ بهم غيرُهم ممن اَضطُرّوا الـــى النزوح عن الأُندلس . وقـــد حافَظَت هذه الأُسَر النازحة على أُسلـــوب حياتها الأُندلسية ، بحيث يُخَيَّـــل اليك ، وأنت تدخل الى تطوان ، انـــك تَدخُل الى مدينة اندلسيـــة . والواقع انني هناك رَجَعَ بـــي الخيال الى مدينة (رُنْدَة) في الجنـــوب الأُندلسي ، بشكل خاصّ ، وشَعَرْتُ بانني قـــد عُدتُ اليها من جديد ــ وكان عهدي بزيارة رُنْـــدَة قريبا ــ .

وتُطوان هي العاصمة العلميَّـة في الشمال المغربي ، واللغـةُ الاجنبية التي يتكلم بهـا التطوانيون هي الاسبانيـة ، وبيوتُها تَعْكِس جمال الطراز العمرانـيّ والهندسيّ الأندلسـيّ .

وقبل ان امضي في الحديـث على المدينة وطابَعِهـا الاندلسي ، أَوَدُّ ان أَذكر انني حرصتُ هناك على زيارة مـؤرخِ تطوان وشيخ علمائها ، الاستاذ الحاج محمـد داود ، صاحب (تاريـخ تطوان) ، الذي يقع في اربعةَ عشر مجلّدًا ضخمـا ، سِتَّةٌ منها مطبوعة ، والثمانيـة الأخرى

تنتظر الطبع ، يُضـــاف اليها اربعةُ مجلدات ضخمـــة اخرى بعنوان (عائلات تطوان) ، مِمّـــا يصل بتاريخ تُطوان الـــى ثمانية عشر مجلّداً ، اطلعني عليها الأستاذ محمـــد داود في تلك الزيـــارة .

ان روح الاندلس مـــا تزال تعيش مع الحاج محمـــد داود ، مُتَحدِّرَةٌ اليه مِن اجداده الذيـــن نُزحوا عن غرناطة . ومَنزلُـــه قطعةٌ فَنِّيّة من الأُندلس : بتنظيمه الهندســـي ، وبنقوشه وزخارفـــه ، وَفُرُشه واثاثه ، وجدرانه وسقوفه ؛ ولأوّل مـــرة ، وفي منزل الحاج محمـــد داود ، رأيت طراز المخادع الاندلسيـــة ، بالسرير العالي ، والستائـــر المصنوعة من الدِمَقْس الأصليّ الجميـــل ، ورأيتُ كيف يكون (البيـــت الأُندلسي) بفراشه على سَطيحـــةٍ مرتفعة عن الأرض ، وَبِمَسانِـــدِه المستديرة الطويلة المغطّاة بقماش حريـــريّ زاهي الالوان . كلُّ ما في منزل الحـــاج محمـــد داود يَنقُلُك الى الأُندلس ، فتعيش مـــع التاريخ الزاهي العزيز الـــذي مضـــى .

ومثل منزل الحاج محمـــد داود كذلك منازل عديـــدة اخرى ، أَهلُها كُلُّهم من ابنـــاء المهاجرين الأُندلسيين ، ولـــم يستطيعوا التخلّي عن أُسلوب الحياة الاندلسيّـــة . وقد زرتُ من هذه المنازل منزل عبد الســـلام الصَفّار ، مديـــر مدرسة الفضيلة للبنات ، كمـــا زرتُ مدرسَتَه ايضا ، فرأيتُ في كليهما مـــا يُبهج النفس والنظر من روعـــة الطراز الأُندلسيّ في كـــلّ شيء .

حتى الساحاتُ والحدائـــقُ العامة في وسط المدينـــة ، مِن مِثْل ساحة الحسن الثاني ، وحديقـــة (روضة العُشّاق)،هـــي ايضا قِطَعٌ من جِنان الأُندلس وساحاتـــه العربيّة القديمة . وحـــين تَدْخُل الى حديقة (روضة العُشّاق) تجـــد في وسطها ظُلَّةٌ ـــ سقيفة ـــ جميلة لجلوس المتنزّهين ، سَطحُها من الزِلّيج الجميل المألوف جـــدًّا في الأُندلس والمغرب . وعلى مقربة منها بِرْكَـــة صغيرة مستطيلة ، على جانبيهـــا نوافيرُ رفيعة تنبثق اقواسا من المـــاء الى وسط البركة ، فيعود بـــك الخيال الى (بِركة الساقية) في قصر جَنَّـــة العريف ، في غرناطـــة .

وساحة الحسن الثاني في وسط المدينة ، تتوسّطها ظُلَّةٌ انيقة كذلك ، تقوم على اعمدة دقيقة ، تُذكِّر الزائر بِدِقَّتها ، ولطفها ، وجمال هندستها ، وزِلّيجها ، وزخارف ارضيتها ، بكثيرٍ ممّا يُعْرف في الأندلس . الأَعمِدَة الرهيفة الجميلة،بشكلٍ خاص ، تُذكِّرني بأعمدةِ جامع قرطبة ، وقصر الزهراء ، وقصر الحمراء في غرناطة .

مَطْبَخ أندلسيّ في المغرب

ثم تنتقل من الساحة الى القصر الملكي المجاور لها ، وهناك يتجلى الفنُّ المعماريّ المنقول عن الأندلس ، والزخارف والنقوش

والمقربصات الأُندلسية ، بأشكال لا تَشْبَع العينُ من تأملها ، ولا النفس من الاستمتاع بسحرها الدائم . وهذا الجمال هو بعضُ التفنُّن البارع المدهش الذي يَتنافس فيه الصُنّاع التُطوانيون والصُنّاع الفاسيّون بشكل خاص ، ويحاول كلٌّ منهم ان يَتفوَّق فيه على زميله .

هذا القصر الملكي بُني سنة ١٦٠٠ م. ، القرن العاشر الهجري ؛ بناه القائد أحمد الريفي ، خليفة الملك سليمان العَلَويّ في الشمال المغربي ، ثم أُدخِلَت عليه مع تعاقُب الأجيال ترميماتٌ واصلاحات عديدة ، نَجِدُ تواريخها مُدَوَّنة على جانب باب القاعة الكبرى ، في الطابق العُلْويّ ، وأما الهندسة الأصليّة فلم يطرأ عليها ايّ تغيير . وقد عَلِمْتُ من وكيل القصر، الذي رافقني في جولتي هناك،ان الصناعة الجِبْصيّة في القصر ، بِنُقوشها المُقَرْبَصة الجميلة الأنيقة ، هي صناعةٌ فاسيَّة ، وأما الزِلّيج الصغير البديع الالوان فمزيجٌ من صناعة تَطوان وصناعة فاس ، وأما المقربصات الخشبيَّة وكلُّ النقوش الخشبيّة فصناعةٌ تطوانية . والفرقُ بين صناعة تُطوان وصناعة فاس في اعمال الزلّيج الصغيرة ــ كما قال لي وكيل القصر ــ هو انَّ الصُنّاع الفاسيّين يُصنعون الشكلَ الكامل قِطعةً واحدة ويشوونه في النار ، واما التطوانيون فيُقَطِّعونه قِطَعاً صغيرة ثم يَشوونها ، وبعد ذلك يُلصقونها على الجدار قطعة قطعة . وكان الصانع التطواني الأول الذي صَنَع نقوش القصر يدعى (المعلم أحمد البوري) .

وتَنْتَقل من القصر الملكيّ في طريقٍ ضَيِّقة نازلة مُتعرِّجة ــ هي طريقٌ اندلسيّة صِرْف ــ لِتَصِل الى قصرٍ آخر عظيمِ الفخامة في طرازه الأندلسيّ . ذلك هو (قصر البريشة) ؛ وهو جناحان كبيران ، عاليا السقوف ، احَدُهما مخصَّص لِبَيع المصنوعات الجِلديّة والمنسوجات المغربيّة المشهورة في جمالها ، والثاني سياحي : تَدْخُل من الباب مُتَاجاً بمنظرٍ قد لا تَقَع عليه العينُ في ايّ مكان آخر : بَهْوٌ عريضٌ فسيحُ الجوانب ، وفي وسطه بِرْكَة ماء صغيرة جميلة ، يَنْفرُ الماء من نافورة فيها ؛ ومِن حول البركة جوقةُ رجال ونساء بملابسُ اندلسيَّة

مزركشة ، وفي أيديهم آلاتُ طرب اندلسية . وما إن يُحِسّوا بِوَقْع خُطاك عند الباب حتى يأخذوا في العزف والغناء ، وتَرقُص في وسطهم الراقصات الجميلات ، وكلّ ذلك بفن اندلسي جميل أخّاذ . وعلى جوانب البَهْو العريض مقاعدُ منخفضةٌ لجلوس الزوّار والسُيّاح للاستمتاع بالرقص والغناء وبالموسيقى الأندلسية .

هذا القصرُ أقامَهُ سنةَ ١٨٩٧ الحاج عبد الكريم البريشة ، وكان سفيرًا ووزيرا وثريًّا كبيرا ، تَولّى مناصبَ رفيعةً في تطوان وفاس والبيضاء في عهد الملك الحسن الأول والملك عبد العزيز ؛ ويُقال إنه بنى قصرًا آخر مِثْلَه كذلك ، وجَعَل القصرين لِبِنْتَيه . وهذا القصر مُتعةٌ للعين والنفس ، بما فيه من جمال النقوش والزخارف الأندلسية .

والجديرُ بالذكر انَّ في تطوان وغيرها من مدن المغرب مدارس خاصة ، يدعونها (دُور الصناعة) تُدَرَّسُ فيها فنون النقش والمقربصات والترصيع الأندلسية ، لتَظَلَّ حيَّةً متطوِّرة باستمرار . وقد دَخَلْتُ دار الصناعة في تطوان ، وتجوَّلتُ في ارجائها ، فأدهشتني الصناعات الأندلسية الجميلة التي يصنعها المتدرّبون هناك ، حتى اذا ما وَصَلتُ الى القاعة الأندلسيّة في الطابق العُلْوي ، وَقَفْتُ ذاهلا امام الجمال الباهر المتجلّي في الجدران والسقف ، وفي قِطَع الأثاث الخشبية البديعة الصنع .

إنَّ كلّ شيء في تطوان ، حتى مداخل البيوت ، يوحي اليك بانك في قِطعَةٍ من الأندلس العربيّة في ازهى عصورها .

* * *

وآتي الآن الى الختام من هذه الجولة السريعة ، لأقول إنَّ ما قَدَّمْتُه في هذه الدراسة الموجَزَة ليس سوى خُلاصةٍ للانطباعات التي عُدْتُ بها من جَوْلتي في مُدن المغرب . ولكنَّ الواقع الذي شاهدتُه ، وعِشْتُه ثلاثة اسابيع هناك ، يَظَلُّ اكبر من الكلمات ، وهو جديرٌ بمزيد من التفاصيل ، وجديرٌ كذلك بمزيد من الصُوَر ، لِتُقَرِّبَ الوصفَ من الحقيقة .

لقـــد زُرْتَ الأندلس مرّتين قبْلَ زيـــارة المغرب : كانت الأُولى سنة ١٩٦٧ ، والثانية سنـــة ١٩٧٤ . وكانت الزيارتان للدراســـــة الفاحصة المتأنّية ، لا لِمُجَـــرَّد السياحة والنزهة . وقـــد امتلأتْ نفسي بما شاهدتُ هناك من روائع آثـــار الحضارة العربية الاســـلامية الباقية الـــى اليـــوم .

وحين زُرتُ المغرب عـــام ١٩٧٤ ــ بعد زيارتي الثانية للأندلس مباشرة ــ احسستُ بـــأن هذه الزيارةِ كانت ضروريّـــةً لكي تُكْمِل بها دراستي للأندلس : ذلـــك لأنَّ بين البلدين ، الـــى جانب التاريخ الطويل المشترك ، حضارةً مشتركـــة باقية ، ولأنَّ المغـــرب اليوم امتدادٌ رائع للأندلس ، وتاريخِـــهِ ، وحضارتِهِ ، وفنونِـــه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا

للدكتور أحمد سعيدان
عضو المجمع

لا غرو ان دعوات كثيرة قد انطلقت،وما تزال تنطلق ، من افراد وهيئات ومؤتمرات ، تدعو الى تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا، وان هنالك افرادًا وجماعاتٍ يُضيقون ذرعا بهذه الدعوات،فيعارضونها ويطرحون في المعارضة حججا وآراء جديرة بالتأمل والتفكير . وانَّ دعوات الداعين ونواهي الناهين تصطبغ أحيانا بصبغة انشائية خطابية أو عاطفية انفعالية تنأى بها عن رزانة القرار الحكيم المسؤول؛ وهي تكادُ دائما تَصدُر من منطلقات متعددة متباينة ؛ فهي تارةً قوميةٌ وطنيّة ، وتارةً فقهيةٌ لغوية ، وهي أحيانا تاريخيةٌ أو اجتماعيةٌ ، وكثيرا ما تتعارض أو تتشابك أو تتناقض،حتى لتكاد تضيع الحُجّة، وتحتجب الشجرة بأغصانها ، كما يقولون .

واني لأَهمُّ ان اقول إني عازم على أن أنحو في عرض القضية منحى موضوعيًّا،لولا اني اجد في من تَعرَّضوا للقضية مَن يُستَهلّون البحث بزعم كهذا،ثم هم يُغرِقون السامع أو القارىء في متاهاتٍ من مغالطاتٍ ومتناقضات،كفريق يضرب على غير هدى،او يدور في دوّامة .

وكيلا اضربَ على غير هدى او ادور في دوّامّة ساجنح الى النَّهْج العلميّ،فأحاول تحليل الموضوع الى عناصر متميزة بعضها عن بعض ، ثم القي نظرة على هذه العناصر متفرِّقة ، لأخلُص من ذلك الى موازنة عامّة،فيها حساب الربح والخسارة،وكشف الحساب،وفيها خطّة واقتراح وبناء .

ولو كان ما نجابه عبـــارةً جَبْرية او مُرَكّباً كيماويّـــا لوجدنا على الغالب نَهْجـــاً تقليديًّا لتحليله الى عناصر متميّزة ؛ ولكننـــا نُجابِهُ قضيّةً تعيش معنا وتنطوي علـــى واقع ماثل امامنا،يقوم علـــى جذور ضاربة في اعماق تاريخنا،ويمتـــدّ الى كثير من خُطَطنا وتطلّعاتنا . فليس ثَمّـــة، على ما اعلم،نَهْجٌ لتحليله الـــى عناصر سوى إنعام النظر فيـــه من زوايا مختلفـــة محـــدّدة .

الزاويـــة التربويـــة :

وأولى الزوايـــا المحدّدة التي مِنها أَنظرُ في الأُمـــر هي الزاوية التربوية،التي قَلَّمـــا أولاها مَن تعرَّضوا للأمر ما ينبغي من عناية واهتمام .

إنَّ عملية التعليم عمليـــةٌ تربوية ؛ فطبيعيٌّ ان ننظـــر في تعريب التعليم من الزاوية التربويـــة المحضة.وتعريبُ التعليم يعنـــي عندنا في الأُردن تعريب التعليـــم الجامعيّ،ويَنْصَبُّ على التعليم في الكُلّيّـــات العلمية. وهذا ما أَحصُر البحثَ هُنـــا فيه،وإنْ كنتُ اعلـــم انَّ التعليم غيرَ الجامعيّ يَفتقر في اقطارٍ اخرى عربيّـــةٍ الى التعريب . وفي مستَهَـــلّ حديثنا عن تعريب التعليم في الكُلّيـــات العلميّة طبيعيٌّ أن نَستذكِر مـــاذا نبغي من التعليم في هـــذه الكليات .

إنَّ إعطاء الطالب معـــارفَ وخبراتٍ تُمَكِّنُه من اجتياز امتحانـــاتٍ معيَّنة،ومن ممارسةِ مهنـــةٍ محدَّدة يؤهِّلُه تخصُّصُه لهـــا،ليس وحده الهدف من التعليم الجامعي؛اذ لَعَلَّ مـــا في كُتبٍ محدودة قليلة العدد مـــا هو اكثر واوفى مِمّا يُعطي المحاضرون في الجامعـــة ؛ ولعلَّ في خبرةٍ هندسيَّـــةٍ ياخذها الطالب من بنـــاء،او خبرة حسابيّة يفيدهـــا من مصرف ما،يربو على الخبرة المقنَّنَة التـــي تُعطيها الأعمال المخبريـــة الجامعيّة في أوضاع افتراضيَّـــة مصطَنَعـــة .

ان الجامعة جَـــوٌّ اكاديميّ مثاليّ،يمارِس فيـــه الطالب الحياة الموضوعيّة المنظّمـــة المُضَبَّطة بحرّية رأي،وحرية تصرّف في حـــدود الموضوعية والنظام والانضبـــاط،وعلى نحو يُستَهدِف ان يبنـــي الطالب

نَفْسَه بنـــاءً متكاملا، تَبْرُز فيه شخصيّته، وتتلمَّس بـــه مواهبُه الكامنة، ويغدو بـــه مواطنا صالحا، ايجابيًّا غير سلبيّ، قابـــلا للتفاعل مع مَن حوله وممارسة القيادة والريـــادة ، على خلفيَّةٍ من المميزات والقِيَـــم التي تسود في المجتمع الـــذي سيعيش الطالب فيـــه .

في ضوء هـــذه الأهداف نُسترجع للذاكرة واقـــعَ الكلّيات العلمية المتوافرة، او التي يُمكـــن ان تتوافر على ارضنا، فَتَمْثُل امامنـــا ثلاثة انواع من هـــذه الكليات :

اولا : كُلّيات اجنبيةُ اللغـــة والطابع، كالكليات الانكليزية والامريكية التـــي نعرفها ؛ لغـــةُ التعليم والمعاملات والحديث فيها غـــيرُ العربية ، حتى يندر ان تجـــد فيها اثنين يتكلّمان بالعربيـــة .

يَدْخُلُها الطالب العربـــيّ فيصدمه فيها امران : لغـــةٌ لا يُتقن فهمها ولا التحدُّث بهـــا ، وبيئةٌ لا يألفها . فاذا هـــو تَكَيَّفَ مع البيئة وعَجَّل في اتقان اللغـــة، سارت معه الريح رخاءً، ومضت أمـــوره بامان في جَـــوٍّ اكاديمي مثاليّ خصب . أمـــا اذا هو تَعَثَّرَ في هذا او ذاك، فقد ينقطع بـــه الحبلُ في وَسَط الطريق، وقـــد يَبْلغ نهاية الشوط خائرَ القـــوى مقطع الانفاس .

ونُظلم هـــذه الكلّيات اذا لم نَعترِف بانهـــا تُحَقِّقُ لابنائنا معظم الأهداف التـــي استرجعناها فيما سبـــق .

ولكنّنا نظلم انفسنـــا اذا لم نعترف ايضا بانها تَصْدُر عن قِيَـــمٍ واخلاقياتٍ لا تنبعث مـــن بيئتنا وجذورنا التاريخيـــة، وانّها تُعِدُّ الطالب لمجتمـــعٍ غير المجتمع الذي سيعيش فيـــه .

لقد خَرَّجت لنـــا هذه الكلّيات نفرا من خـــيرة ابنائنا وقادة الفكر فيما بيننـــا ؛ ولكنّها اجنبية ، فهي لغيرنـــا؛ ادارتُها ليست بيدنا، وسياسَتُها ليســـت مِن صُنعنا. وان من حقّنـــا ، كسائر شعوب الارض ، ان يكون لنـــا جامعاتُنا التي تُنشأ بمالنـــا، ويديرها رجالنا، ويملؤها ابناؤنا، وتُرْسَـــم سياستها في ضوء حاجاتنـــا وخططنا وتطلّعاتنـــا .

انطلاقا من هذه الحاجة ظَهَرَ بيننا النوعُ الثاني من الكلّيات،وهي :

ثانيا : كلّياتٌ عربيةُ الوجه واليــد واللسان :

قــد يدور في خَلَدنا انَّ هذه الكلّيات تُحَقِّق كلَّ مــا تحققه الكلّيات الأجنبية وتزيد على ذلــك ، اولاً لأنّ الطالب العربــي اكثرُ استيعابا للمعرفة بلغتــه،ومن ثَمَّ فهو اعمق فَهماً وأولــى بالابداع،وثانيًا لأنه لــن يُضيع وقتًا وجهدا في اتقان لغــةٍ جديدة؛وثالثا لأنّ الكلية تُعِدُّه لمجتمعنا المربــي،وتُنَشِّئُه على خَلفيّة مــن قِيَمنا واخلاقنا وبيئتنــا وتراثنــا .

ولكن الواقعَ غــيرُ ما نتوقَّع ، لا في الكلّيات العلميــة ولا في الكلّيات الانسانية او غيرهــا من الكليات . ذلك ان العلــم ينمو في هذا العصر على نحــوٍ يوصَف بالتدفّق او التفَجُّر ؛ ومع نمــوّ العلم وتَدَفُّقه يمضي تطــوُّرُ مناهجه بسرعةٍ فائقة،حتــى ليندر ان يعيش كتابٌ علمــي صالحًا دون حاجة الى تعديل ، اكثــر من خمس سنوات . وهو ينمو مــادةً ومناهجَ على ايــدٍ غير عربيّة،وتُعبِّر من الجديد فيه والتجديد ألسنةٌ غيرُ عربية ، في دوريّات كثيرة اجنبية.

فالكلّيات العلميــة التي جُعِلَت العربيَّةُ لغــةَ التداول والتعليم، حَجَبَتْ نفسها عــن منابع العلم،ولذا ما لبثت ان وُقِفَــت بمعزل عن تيّار التطوّر،سواء في المــادة العلميّة والتعليميــة ، ام في اساليب عَرضها ، بــل في اجهزة البحث والتدريس . انَّ جُلَّ ما تنتجــه هذه الكليات إنمــا هو اجترار وتَكــرار .

هــذا واقعٌ كُلُّ مَن يُدرك التطوُّر العلمــيّ المعاصر لا يستطيع إنكاره ؛ ولقد قــال قائلون جَدَلاً إنَّ القِلَّــة القليلة من خريجي هذه الكليات هي وحدهــا المؤهَّلة للاستزادة من العلــم،وهي وحدها التي ستحتاج عندمــا تستزيد الى اتقان لغــة اجنبية ، وعندها نَدْفَع بها الــى موطن هذه اللغة . وهــذا قولٌ يُنمّ على سطحية وسذاجة ؛ فالعلــم الحديث ليس حُلِيَّةً يتَحَلّى بهــا من يقدر

او من يشاء،ولكنه حياةً وطريقةُ حياة،تُلْمَسها في البيت والمدرسة والمكتب والشارع وكل مكان، وينبغي ان تُجدها لدى المعلم والطالب على السواء . حتى الكلّيات الانسانية،التي مادتها مربيّةً في كل شيء،قد تَحَجَّرت لانها افتقرت الى المنهجية التي نلمَسُها واضحة في الكتب الأجنبية المتقدمة ، والتي بدونها قَلَّما يكتمل بحث او تكتمل دراسة .

وهنا امران يُتَبَرَّم بهما جُلُّ الحادبين على المربيّة،الداعين الى استعمالها في كلّ مراحل التعليم : احدهما الحديث عن هذا التدفُّق السريع في المادة العلمية واساليبها،وثانيهما هذه المنهجية التي ازعم اننا نفتقدها في الكتب العربية ؛ فقد يُحْسُن الاَّ نُمُرّ بهما سراعا دون مزيد من التوضيح .

امّا عن تزايد المعرفة،فيكفي ان نشير الى ان مؤسسة اليونسكو نشرت قبل حوالي عشر سنوات احصائيةً تشير الى أنَّ مطابع العالم تُخْرِج في كلّ اربعين دقيقةً مِن الكلام المطبوع ما لو جُمِع في كتاب واحد لبلغ هذا الكتاب اربعةً وعشرين مجلّدا ، كلٌّ منها بحجم المجلَّد الواحد في الموسوعة البريطانية المعروفة ؛ وانّ ما تُصدِرُه هذه المطابع في اليوم الواحد ينطوي على اكثر من خمسين مصطلحا علميًّا جديدا،لم يكن له قبل يوم واحد وجود .

ولعلمي ان الناس يُنْسَون، ادعو القارىء الى ان يتذكّر كيف كانت وسائلُ المواصلات، مثلا، قبل ثلاثين عاما،وكيف هي اليوم . إنَّ الذي مَكَّن لهذه الطفرة الواسعة انما هو فيضٌ من المنجَزات العلمية والتكنولوجية، نَقَلَت العالم من عصر الكهرباء الى عصر الطاقة النووية والحاسبات الالكترونية وسباق الفضاء .

وهذه المنجَزات لم تُحَقِّقْها عقول عربية،ولم تُفَصِّلْها لنا كتب عربية ، وهي المادة العلمية التي تُسَيِّرُ حياة العصر وتزحم مناهج الدراسة،وبتطوُّرِها تَتَغَيَّر الحياة،وتتبدَّل المناهج.ونحن لا

نملك حيالها الا ان نقف تلاميذَ مستَقْبلين؛ هذا اذا اتيح لنا ان نفتح النوافذ لاستقبالها ، فان لم نفعل فذلك هو التقوقع الذي لا يلبث ان ينجلي عن تَخَلُّفٍ مَن فاتَه القطار .

هذه حقائق ، لا مبالغة فيها ولا سبيل الى تجاهلها أو انكارها ؛ وإنّ من الخير ان نضَعها نُصْبَ أعيُننا اذا كنّا نتطلّع الى تخطيطٍ مُحكَم فَعّال .

سيقول قائل : إن دخول العربية من الباب لا يعني هَرَبَ الانكليزية، مثلاً، من الشّباك . صحيحٌ انه لا يعني ذلك ، فلا لزوم لان تَهْرَب اللغة الأُجنبية لأنها لم توجد اصلا ، الا اذا حسبنا ان الفيزيائي الذي يقضي عمره يُدَرِّس الفيزياء في كتب عربيّة يَسْهُل عليه فَهْمُها في مراجع اجنبية . كَلاّ ، حتى لو كان يتقن اللغة الأُجنبية قراءة وحديثا . ليس صحيحا عندنا ان العِلْم ليس له لغة؛ وإن خبرتنا في الجامعة الاردنية لدليل ماثل على ذلك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما المنهجية التي اشرتُ اليها فهي اسمٌ آخر للطريقة العلمية في البحث والاسلوب العلمي في عرض نتائج البحث .

المنهجية اخلاق ؛ انها موضوعية تَتوخّى البحث عن الحقّ وحده، وتَبحث عنه بلا هوى ولا نزق ولا انفعال، ثم تَعْرِض الحقّ، ولا شيء غيره ، بلا تَكَلُّف ولا رياء ، ولا بهرجة ولا تلوين ، وباسلوب يعطي الكلمة حجمها الطبيعيّ، فلا يصف بالعَظَمَة الاّ من كان له منها نصيب ، ولا يُعَدُّ عظيما جدًّا الاّ مَن كان نصيبه منها وافرا ؛ المنهجية تعطي كلَّ ذي حقٍ حقَّه؛ فاذا عَرَض امرؤ نتيجة بحثه، ذَكَر من ساروا في الدرب قَبْلَه، وأين وَصَلوا، وماذا حقّقوا ، ثم ماذا كان دوره هو، وأيّ جديد حَقَّق ؛ والمنهجية امانة : امانة تجاه الحقيقة، وتجاه القارىء والتاريخ .

ليس في المنهجية نفـــاق ولا اسلوب خطابي ولا مبالغـــة ولا بهرجة كـــلام غير ذي مضمون ، وليس فيها تلويـــن للحقّ ولا تحريف لـــه ولا افتراء عليه . ومـــا احوجنا الى هذا كلّه في ما نقرأ ومـــا نكتـــب .

ولـــم يَسْبق الغربُ الـــى المنهجية : لقد بدأت بالاســـلام في عصوره الأولى عندما كـــان رواةُ الحديث يَشدّون الرحـــال، ويَقْطعون آلاف الفراسخ من اجـــل التأكّد من نَصّ مـــا نُسِبَ لراوية مـــا . ولكنّ المنهجية ضاعت في العصور الاســـلامية المتأخرة ، ولقيها الغرب في اواخـــر القرن الماضي بعد معانـــاة طويلة شهد فيها كثيرا مـــن الافتراء وكثيرًا من الادعاء . وهـــا نحن اليوم نَجِدُها في البحوث العلميّـــة الغربية،وفي الكتب العلمية الاوروبيـــة، وكثيرا مـــا نَفتقدها في البحوث والدراسات العربيـــة . لقد جَمَعَ بيرسون في فهرســـه الاول كلّ ما نُشِر في الدوريـــات من بحوث ودراسات حول الفكـــر الاسلامي،من مَطْلع هذا القـــرن الى سنة ١٩٥٥ (المجلـــد الاول) زهاء ٢٦ الـــف بحث،ليس بينها بالعربية بحث واحـــد تتوافر فيه عناصر المنهجيـــة .

خوفًا من التقوقع،وحُبًّـــا بالمنهجية،اختارت بعض الجامعـــات العربية نوعا ثالثـــا من الكليات العلمية،وهـــي :

ثالثا : كليات عربيـــة انكليزية :

لغـــة الحياة والمعاملات في هذه الكلّيات هـــي العربية ، ولكنّ لغـــة المحاضرات والدرس والامتحان هـــي الانكليزية ؛ فالكُتُب المقرّرة والمراجع انكليزية؛وعلى هـــذا فالباب مفتوح على مصراعيه لأَحدث المناهج ، ولا خـــوف عندنا من تقوقع أو تَحَجُّـــر .

بعضُ الناس يَصعُب عليهـــم ان يَرَوا الواقع ، وبعضُهـــم يصعب عليهم أن يَعترفـــوا بما يرون؛وهؤلاء جميعا قـــد يُعْتَبون على اذا قُلتُ إنَّ الطالب المتوسّط عندنا يفقد لغتـــه ولا يتقن الانكليزية ،

بالضبط كالغراب الذي قلد مشية غيره . اننا لم نضعه في جوّ يتعلّم فيه الانكليزية ، لا حديثا ولا كتابة ، وانما طالبناه ان يُفهم ما يقرأ وما يسمع . اما ما يقرأ فتلك مادة الكتب المقررة،يفاجأ بها الطالب منذ اللحظة الاولى،فتحدث لديه رعشة وفي نفسه عقدة ، وقلّما تزول تلك الرعشة،وقلّما تُحَلُّ تلك العقدة ؛ فلا ينبغي ان نحسب انه يُفهم ما يُقرأ فهمًا تامًّا ، ولكنّها صُورٌ لذلك المقروء تُرتسم في مخيّلته،ومعها تصوراتٌ غائمة قَلِقَة لا تلبث ان تنمحي،فيغدو وكأنه لم يقرأ شيئا .

وأمّا ما يسمع الطالب في المحاضرات فقلّما يكون انكليزيًّا، وانما هو خليط من انكليزية سقيمة وعربية عامية؛ومع ذلك رُبّما كان هذا الذي يسمعه هو وحده الذي يفيد منه الطالب في جامعته اذا هو أحسن الاستماع،او اذا أحسن المعلم الاداء ؛ لأنّ طُلّابنا قلّما يُرجعون الى المراجع لأنهم لا يفهمونها ، وقلّما يُحسنون استعمال كتبهم المقرّرة لانهم لم يُهَيَّأوا لها ؛ وهم قلّما يناقشون في المادة العلمية لانهم لا يحسنون الحديث بالانكليزية ، فما هي النتيجة ؟ يُنضّمون الى تلك الاكثرية الصامتة السلبية، التي تُجهِد نفسها في تحصيل بعض الفهم تحصيلا مؤقتا من اجل الامتحان،وينتهي بانتهائه .

جاءتني قبيل الامتحان طالبة في السنة الاولى في حالة هستيرية تقول : كُلُّ مسائل PERCENTAGE هي طلاسم بالنسبة ليّ،فَهلّا افهمتني عمَّ تبحث ؟ قلت : الم تدرسي النسبة المئوية في الصف التوجيهي ؟ قالت بلى ؛ قلت ذلك هو ما تبحث فيه ؟

— صحيح ؟

— نعم

— اذن "PERCENT" معناها "في المائة" ؟

— بالضبط

— ما اغباني !

وفي الامتحان رأيت طالبا مضطربا يريد ان يستوضح معنى كلمة " Sphere ". وبعد الامتحان جاء الطالب يجادلني مؤكدا ان معلمه فسر الكلمة بمعنى"الجَوّ"،فلما اكّدتُ له ان الجَوّ يقابلها بالانكليزية كلمة " Atmosphere " ، شعرت بالطالب كأنَّ شبكة معقّدة قد انحلّت امام بصيرته .

سيقول قائل : هذا الذي تَصِفُه حالاتٌ فرديةٌ شاذّة،تَحْدُث في مرحلة مبكّرة ولا تحدث فيما بعد ذلك.ولكنني اتمنّى لو ان احد المهتمّين بالامر كَلَّف مجموعة من الطلّاب العلميين، في نهاية المرحلة او بعد التخرج،ان يكتبوا له اسطرًا قليلة ، بالانكليزية او العربية،في موضوعٍ ما يتعلّق بتخصّصهم ؛ عندها سيجد عجبًا . لي مع طالبٍ مَنَحْناه الماجستير في الرياضيّات قصةٌ عجيبة ؛ هذا الطالب لا اذكر اسمه ولكنّي لا انسى قصتي معه ؛ عَلَّمْتُه في كلّ سنة من سنوات دراسته للبكالوريوس،ولا اذكر انه في مرّة واحدة ناقَشَ او وَقَفَ لالقاءِ سؤالٍ او اقتراحِ حلّ . كان دائما مع الصامتين الذين يحسنون الاستماع ، فاذا جاء الامتحان يُحَلِّق مع المتفوقين .

ومُنِح الطالب البكالوريوس بدرجة"جيّد جدًّا"، وتقدم للماجستير،وكان من نصيبي ان اعطيه مساقا من هذا المستوى . وكان من واجباته في هذا المساق ان يُعِدَّ تقريرا مكتوبا،وان يَشْرَح مادته في الصفّ كيما نناقشه . وقد اكّدْتُ على الطلاب ان يُعِدَّ كلٌّ منهم تقريره بالعربية،كيما يجري النقاش بالعربية ؛ هذا بالرغم من ان المراجع كلّها بالانكليزية . لقد اردتُ ذلك لأَحولَ بين الطلاب وبين النقل الحرفي من المراجع ؛ لقد اردتُ ان يكون لهم دور اكثر من مجرَّد التلخيص . ولقد قام الطلاّب بهذه المحاولة،الاّ ان تقاريرهم كانت كمحاضراتِ اساتذتهم،خليطا مجيبا من العربية والانكليزية ، الا هذا الطالب؛فَقَبْلَ الموعد المحدّد لمناقشة تقريره،جاءني يرجو ان يُقَدِّم تقريره بالانكليزية

لانه لا يستطيع نقلـــه الى العربية . وحين اخـــذ الطالب يقرأ تقريره،مضى حوالي ربـــع ساعة حتى تاكّد لديَّ انـــه يتكلم حقًّا بالانكليزية،كان تقريره علـــى النحو الذي اَلِفناه من طلابنـــا : فقرات مقتبسة من المرجـــع او المراجع،ولكنَّ الفـــاظ الطالب كانت عجيبة ، لا تَمُتُّ الى ايـــة لغة ؛ حتى تلك الالفاظ التي تتكرّر في كـــلّ محاضرة في موضوع تَخَصُّصِه ؛ لقـــد سمعها اكثر من مائـــة مرة من عدد من المحاضرين ، ولكنْ لـــم يتقن لفظها،فلَفَظَها بطريقـــة مضحكة تبعث في النفس السخريـــة ؛ والتفسير واضح : لقد كـــان الطالب يَحضر المحاضرات ويصغـــي ، ولكنَّ فكره كان مشغـــولا؛كان يُعَوِّل على ان يحفظ صُوَر المـــادّة التي يجدها في الكتاب،فيعيد رسمهـــا على نحوٍ ما في الامتحـــان ؛ ولو كان اعمق من ذلك فهمًالمـــا عجز من نقـــل المعاني الى لغتـــه .

والنتيجةُ واضحة،أنّنـــا لم نُخَرِّج فيه طالبـــا يستطيع ان يكون مواطنا صالحا،يفيـــد مجتمعه بعلمه وتَخَصُّصِه ، لا بالعربيـــة ولا بالانكليزية ولا بخليـــط من اللغتين ، ولا خرّيجًا يُمْكِـــن في ايّ مجتمع ان يُعْطيَ عـــن جامعته فكرة طيبة . ومِمـــا اكثر الدلائل على ان القلّة من خرّيجينا هـــم احسن حالا من هـــذا الطالب .

إنـــي أَقْدُرُ لزملائي في الكليات العلميّـــة جهودهم،ولا يدور في خلدي لحظةً انْ أَنْتَقِص مـــن هذه الجهود وهذا الجهـــاد ؛ ولكنَّ النقد الذاتيَّ دليلُ عافيـــة،والاعتراف بالواقع علامةُ قـــوّة،والتطلّع الـــى الأحسن والعمل مـــن اجله بشيرُ صحة.وانّ من القـــوّة والصحة والعافية أن نراجـــع مواقفنا،ونتبيَّن مواقـــع اقدامنا .

مـــا العمـــل ؟

تُقَصِّر الكلّيات العربيـــة والانكليزية عن تأدية رسالتهـــا كما ينبغي، لانها لا تُهيّىء الطالب للفهـــم والتفاعل مع العلم الـــذي يتعلّمه،بحيث يصير هذا العلم جُزءًا مـــن شخصيّته وكيانه وحياتـــه ؛ ففي كنفها يعيش

الطالب بشخصيَّتَين : شخصيةٍ عربيـــة حياتها ومعاملاتها بالعربيـــة ، ولكنْ لا يتعلم بهذه اللغـــة،ومن ثَمَّ فَعِلْمُه ليس عامـــلا على تهذيب لغـــة حياته ومعاملاته ؛ وشخصيّةٍ محـــيَّرةٍ تُحاوِل ان تتعلّـــم بالانجليزية وهي لا تَفْهَمها،وتحاول ان تُعَبِّـــر عن علمها بهذه اللغة فتتَعَثَّر . انهـــا ازدواجيةٌ ذاتِ وجهين : وجـــهٍ ساذج لا يوجَدُ ما يَصْقُلُـــه،ووجهٍ متخاذلٍ لا يَجد ما يبعث فيه نفحةً من ثقـــة او قبسا من قـــوّة .

وتُقَصِّرُ الكلّياتُ العربيـــة المحضة عن تأدية رسالتهـــا كما ينبغي، لانها بمعزل عن ينابيع العلـــم . كان ينبغي ان يرافِقَها جُهـــدٌ دائب لتعريب العلم ؛ اي تكوين اجهـــزة تَعْمَل باستمرار لنقل الفكـــر العلمي الى العربية ، كُتُبـــاً ومراجع ودوريات.وهـــذا يَقضي بإقامة مؤسســـات للترجمة والتعريب،تقـــوم بجانب المؤسسات الاكاديميـــة التي تُعْنَى بتخريج المتخصّصين،ســـواء في العلم او في التكنولوجيـــا ، حتّى يستطيع الطالـــب والمعلم على الســـواء ان يصلا الى ينابيع المعرفة بلغتهـــم انـــى شـــاءوا .

ولكنَّ اقامـــة مؤسسات الترجمة التي تُمِدُنا بمـــا نحتاج اليه من كتب ومراجع ودوريـــات مترجمة ومعرّبة،مشروعٌ يقتضـــي عملا دائباً غير منقطع،لـــن يؤتي أُكُله على نحوٍ مُرضٍ في اقَـــلَّ من نصف قرن . فهل ننتظر خمسينَ عامـــا حتى تتكاثر لدينا الكتب المترجمـــة في شتى فروع العلم،ثـــم نبدأ بتأدية رسالتنا ؟ لا ، فهنالك بالتاكيد حَـــلٌّ وسط يُغني قبل تعريب العلـــم،ويمهِّد لتعريبـــه .

يقتضي هـــذا الحل الوسط ان يجري التعليـــم في الكلّيات العلمية على نحـــو كالآتي :

١ ــ في السنة الأُولـــى الاكاديمية يتلقّى الطالب علومـــه الاساسية بالعربية وباستعمال كتـــب مترجمة ، أو غير مترجمـــة ، ويأخذ في كلّ فصل دراســـي مساقا في اللغة الانكليزية ، يُعَرِّفُـــه بالمصطلحات العلمية،ويـــزيده في هذه اللغة قـــوّة .

٢ ــ في السنة الثانية يُبدأ تخصُّص الطالب، وفيها يتلقّى علومه بالعربيّة، الا مساقا واحدا في كل فصل يتعلمه بالانكليزية ، من موضوعات تَخَصُّصه .

٣ ــ في السنتين التاليتين يُجري تعليمُ الطالب بالعربية، مع التأكيد على استعمال مَراجِعَ اجنبية ؛ على أن يأخذ في كلِّ فصل مساقا واحدا على الأقلّ من موضوعات تخصُّصِه بالانكليزية . ويُنظَّم استعمال الطالب للمراجع الأجنبية بحيث يغدو الرجوع اليها من مستلزمات تَخَرُّجه .

اذا جرى في الوقت نفسه ترجمةُ الكتب العلمية بنشاط ، امكن تحقيق الهدف المنشود في وقت غير طويل .

اننا نعتقد أنَّ مِثلَ هذا الحلّ الوسط أكثرُ فائدة للطالب العربي مما تنتجه الكلّيات العربية المحضة، والكلياتُ العربية الانكليزية ؛ وهو بالتأكيد اقلُّ خَطرا . انه يَضْمَن تقويةَ الطالب باللغة الانكليزية ، ثم هو نَهْجٌ مرنٌ قابل للتعديل. ولعلَّ مما يُلزمنا في هذه المرحلة من حياتنا أنْ نُقَوّيَ الطالبُ في لغتين، لا واحدة، بالاضافة الى اللغة الأم .

الزاوية اللغوية :

اما وقد بان من الزاوية التربوية ايّ نَهْج ينبغي أن نسلك، فذلك هو القول الفصل .

ولكنَّ هنالك من يتساءلون : أتستطيعُ العربيَّةُ أن تَستَوعِب لغة العلم والتكنولوجيا ؟

هل اللغةُ تَخْلِق الفكر ام الفكرُ يَخْلق اللغة ؟

وهنالك من يُجيبون، فيتحدّثون عن مرونة العربية واشتقاقيّتها ، وعن تجربتها السابقة. وفي طيّات هذا الحديث وذاك تَرِدُ اقوالٌ هي مثارُ جدل ونُقَطُ حوار . وهذه كلُّها في تقديري معارك جانبيّة لا تَضُرّ

ولا تنفع ، فلِكُلّ لغـــة خصائصُها وعبقريّتها ؛ ونحن نعرف مـــن خصائص اللغة العربية وطواعيّتهـــا للفكرة الدقيقة ما قـــد يَتّسع فيه مجال الحديث، ونخرج بـــه عما نستهدفه من هـــذه الكلمات .

ولكنَّ الخبرة الماثلـــة امامنا تشير الى انَّ لغـــاتٍ نجمت من لا شيء، وأُريدَ لها ان تنشـــأ وليس لها من الخصائص شيء ؛ ثـــم هي بإرادة اهلها استَوعَبَت لغـــة العلم والتكنولوجيا ، لـــم تَضِق بها ولم تَخْنُقها .

ان مئاتِ الأُقطـــار في الشرق والغرب تُعَلِّـــمُ بِلُغاتها، وتُسْهِم في خدمة العلم على قـــدر طاقتها، وتُحرِز انجازات ؛ واكثرُ هـــذه الاقطار لم تكن لغاتها ولا طاقاتهـــا حتى وقت قريب ذاتَ وزن فـــي المقاييس العالمية .

ومن التساؤلات التي تثـــار : هل نترجِم ام نُعَـــرِّب ؟

قـــد لا يكون هنالك قاعدة ذهبية عامّة اولـــى من قاعدة وضعها المجمع اللغـــوي في القاهرة، اذ قال : الاصطلاح العالمي نُعَرِّبُـــه ، اما غيرُ العالمـــي فنبحث له عن لفـــظ عربي .

وقد اعتبروا الاصطلاح عالميـًا اذا كان يُسْتَعْمَل فـــي الانكليزية والفرنسيـــة والألمانيـــة .

على ان الاستعمال هـــو وحدهُ الحَكَم في هذه الامور: فقـــد يشيع بالاستعمال لفـــظٌ اجنبيّ، ويَسْقُط لفـــظٌ عربيّ ؛ وذلك كله حسب ذوق الناس واستحسانهم اللفـــظ او استجاباتهم لـــه .

يبقى امر لا بـــد من ذكره لمـــن يتساءلون : هل تَتَّسع العربيةُ لغـــةً للعلم ، وامام مـــن يجيبون تغزُّلاً بخصائصهـــا .

تُقَـــدَّرُ الكلمات المختلفة التي استعملهـــا شكسبير في مسرحياته بنحو ١٤ الـــف كلمة ؛ وعلى هذا نستطيع ان نَفْتَرِض ان تلك هـــي سَعة اللغة الانكليزية في ايـــام شكسبير ، عندما كانت خلـــوًا من الالفاظ العلمية، لانَّ لغـــةَ العلم في البلاد الاوروبية كانت مـــا تزال هي اللاتينية .

امـــا الآن فقد أُحصِيَتْ المصطلحـــاتُ الانكليزية التي تُسْتَعمل في حقل الطـــبّ العام وحده،دون فـــروع التخصص، فبلغت ٧٤ الفـــا .

ماذا يعني ذلـــك ؟ اذ نحسب ان اللغة الانكليزية قـــد اتسعت حتى بلغت المصطلحاتُ العلمية فيهـــا مئات الآلاف،تَستَرعي انتباهَنـــا احصائيةٌ اخرى تشير الى انَّ معظم هـــذه المصطلحات هي نفسها فـــي الفرنسية والالمانيـــة . إنّ لغات البلاد المتقدّمة قـــد تفتّحت بعضُها على بعض، وتعاونت معـــا في استيعاب الأفكار العلميـــة .

ان العلم ينمـــو باسرع ممّا تنمو اللغة ، بـــل باسرع من خيال الشعراء ؛ وإنَّ كـــلّ لغة لتضيق عن استيعاب العلـــم او مجاراته . ولهذا تلهثُ اللغاتُ وراء العلـــم،ويَضيقُ العلماء بِلُهاثِها فَيلجأون الـــى الرمزيـــة يعبّرون بهـــا عن افكارهم .

امـــا رجالُ اللغة فيأخذُ بعضُهم مِـــن بعض دون تَحَرُّج،وهـــم يَعتَزّون بهـــا يأخذون ويَعُدّونه إثراءً لِلُغتهـــم .

واني اتمنّى لـــو نُنْسج نحن على هـــذا المنوال،فنأخذ عن اللغات دون تَحَرُّج الفاظـــاً وطُرُقَ تعبير،ونَعُدّ ذلك إثـــراء للعربية نعتزّ بـــه ؛ وذلك كيما نواكب التقـــدّم العلميّ،ونُساير الركب،ونعترف عمليّـــاً وواقعيّاً بأن اللغة كيـــان متطور .

هـــذا ما صَنَعَه أجدادُنا عندما قاموا بِنَقْل الفكـــر العالميّ الى العربية؛ومـــاذا يضيرنا ان تأخذ العربيّةُ من الـــدم العالمي الحديث كما اخذت في المـــاضي من الدماء الفارسيّـــة والهندية والإغريقية ؟

الزاويـــة القوميّة الوطنية :

اذا شئنا ان نتناول الموضـــوع من كلّ جوانبه ، فلا بُـــدّ من النظر فيه من الزاوية القوميّـــة والوطنية . وهنا يَتّســـع مجال الحديث ؛ فحامِلو لـــواء القوميّة والوطنية يقولون إن لغتنـــا هي هويّتنا،وهي مرآة شخصيّتنـــا العريقة المَميّزة ، ثـــم ان الاسلام والعربية همـــا اللذان يحفظان للأمـــة وحدتها،رغم ظواهر التفـــرق والتشرذم التي تنجم

لاسباب سياسية . وعلى هـذا فَهُم يرون أن تعريـب التعليم واجب قومي وطني، بـه نحافظ على هُويّتنا وشخصيّتنا،وبـه نقوّي روابط وحدتنـا .

ولكنَّ مِن النـاس مَن يجادلون،فَيُشيرون الى بـلاد متفرّقة رغم انها تتكلم لغـة واحدة،ويشيرون الى بـلاد مُتّحِدَة رغم ان فيهـا لغتـين رسميتـين .

وفي تقديري ان الخوض في هذيـن الرأيين،وتفاصيل مـا لهما وما عليهما،يُخرج بنـا عن موضوع التعريـب .

وفي يقيني انَّه لـو وقَف كلُّ اصحاب الراي ضـدَّ العمل من اجل وحدتنا وتوحيدنا،لوجـب ألاَّ يعوق ذلك العمل من اجـل الوحدة،لان بهـا بقاءنا وتكاملنـا وقوتنا .

ولكنَّ لذلـك حديثا آخـر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه

للمستشرق الفرنسي الأستاذ جيرار تروبو
استاذ فقه اللغة العربية في السوربون - باريس

لا شكَّ ان النظـــام النحويّ في كل لغـــة له اهمية كبرى ، لان النظام النحويّ يعبر عن بُنْيـــة اللغة ويصوغ فكر الناطقين بهـــا ؛ ويُمْكِنُنا القول إن النظـــام النحويّ العربيّ يحتلّ محـــلاً بارزا بين النُظُم النحوية الكبرى الموجـــودة في العالم ، من اجل موقعـــه المتوسِّط بين النظام اليوناني،في الغـــرب،والنظام الهندي،في الشرق ؛ فكان مـــن الطبيعيّ ان يلفت المستشرقون انظارهم اليـــه ، ليدرسوا نشأته وتطوُّره .

ان المستشرق الالمـــاني Merx ، الـــذي نشر في منتهى القرن التاسع عشر كتابا عنوانـــه « تاريخ صناعة النحـــو عند السريان » ، هو الذي زعـــم لأول مرة ان المنطق اليونانـــي اثَّر في النحو العربي ، لان الثاني قـــد اقتبس من الأول بضعـــة من المفاهيم والمصطلحات .

ثـــم نرى معظم المستشرقين قـــد اتخذوا هذا الرأي بدون تحفُّظ ؛ فقال المستشرق الفرنســـي Fleisch في كتاب ألّفـــه في علـــم اللغة : « انه مـــن الواجب ان نشير الى تأثيرٍ يونانيٍّ في النحـــو العربي ، فقد اقتبس الفكـــرُ النحويّ العربي مفاهيم أصلية من العلـــم اليوناني ، لا من النحـــو اليوناني ، ولكنْ من منطق ارسطـــو » .

غير انَّ المستشرق الانكليـــزي Carter رفَضَ هذا الـــرأي في مقالة نشرها منذ عدة سنوات،وسمّاها : « في اصول النحـــو العربي » . فَبَيَّن في هذه المقالـــة انّ سيبويه يستعمل في الكتـــاب مجموعتين من المصطلحات : مجموعـــة قليلة العدد تتضمّن مصطلحاتٍ لعلَّهـــا يونانية الأصل ، ومجموعة كثيرة العـــدد تتضمن المصطلحات العربيـــة الاصل ، منقولة من الفقـــه الى النحـــو .

ومـــع ذلك فان المستشرق الهنـــدي Versteegh نشر فـــي مستهلّ هـــذه السنة ، كتابا عنوانـــه « العناصر اليونانيـــة في الفكر اللساني العربي » ، يدافع فيـــه عن نظريّة التأثير اليوناني في النحـــو العربي ، فيعتبر ان النُحاة العـــرب القدامى قد اقتبســـوا بضعة من المفاهيم والمصطلحات ، لا مـــن المنطق اليوناني ، كما زعم Merx ، بل من النحـــو اليوناني ، وذلك بواسطـــة اتّصالهم المباشر باستعمال النحو اليوناني الحـــيّ،كما يقول ، في مراكـــز الثقافة اليونانية الموجودة في الشرق الأدنـــى بعد الفتح العربـــي .

سنعود في هذه المحاضرة ان افحص تلـــك الآراء المتناقضة في نشأة النحو العربي ؛ وهـــذا في ضوء كتاب سيبويـــه ، الذي سمّاه الناس "قـــرآن النحو" حسبما روى عنه النحوي الحلبي ابـــو الطيّب اللغوي .

* * *

ان المستشرقين ، ليُبيّنـــوا التأثير اليوناني في النحـــو العربي ، يحتجّون على العموم بـــأن النُحاة العرب القدامى قـــد اقتبسوا من المنطق اليوناني تقسيـــم الكلام الثلاثي ، ومصطلحاتٍ اربعة هـــي : الإعـــراب والصرف والتصريف والحركة . فينبغي لنـــا اولا ان نتساءل: هل كان من الممكـــن ، من الناحية اللسانيـــة ، ان يكون هؤلاء النحاة قد اقتبسوا هـــذا التقسيم .

إنّ تقسيم الكلام امـــر مهمّ جدا في كل نظـــام نحوي ، لانه يشترط هذا النظام ، وبالنسبة الى بُنية كل لغـــة،مُيّز النحاة عددا مختلفا مـــن الاقسام . فـــان النحاة اليونان قد مُيّزوا في لغتهـــم ثمانية اقسام،وهي، حسبما قـــال ارسطو في كتابه في الشعر : الحـــرف : stoikeion

المجموع : syllabe | الربـــاط : syndesmos الفاصلة : arthron

الاسم : onoma الكلمة : rhema الوقمة : ptosis القول : logos

امـــا النحاة العرب فانهم،كما تعلمون،لـــم يميّزوا في لغتهم الا ثلاثة اقسام،وهي، حسبما قـــال سيبويه في الكتاب : الاســـم والفعل والحرف .

ولكنْ ، على الرغم من الفرق الكبير الذي يظهر بين عدد الاقسام في النظامين ، يَدَّعي بعض المستشرقين ان النحاة العرب قد اقتبسوا هذا التقسيم عن المنطق اليوناني . فَلِنَسْتَطيع ان نَرُدَّ على هذا الادّعاء الفاسد ، سنبحث عن كل واحد من هذه الاقسام في النظام اليوناني ، وعن القسم المقابل له في النظام العربي .

ليس لِقِسْم الحرف اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لأنَّ سيبويه لم يجعل حروف الهجاء قسما مستقلاً في تقسيمه،كما فعل ارسطو . وكذلك ليس لقسم المجموع اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لان مفهوم المجموع المركّب من حرف غير مصوَّت وحرف مصوَّت ، مفهوم صوتيّ يختلف عن مفهوم الحرف الساكن والحرف المتحرك الذي نجده عند سيبويه .

اما قسم الرباط اليوناني فانه لا يقابِلُ الا جزءًا من قسم الحرف العربي ؛ ونجد فرقا بينهما ، لأنّ الرباط عند ارسطو لفظ خالٍ من المعنى ، بيد أن الحرف عند سيبويه لفظ له معنى .

يشتمل قسم الفاصلة اليونانيّ على آلة التعريف والاسم الموصول ، وهما عند ارسطو لفظان خاليان من المعنى؛فليس لهذا القسم قسم يقابله في النظام العربي ، لأنّ سيبويه يُعْتَبر ان الاسم الموصول اسمٌ غير تامٍّ،يحتاج الى صلة،فيدخله في قسم الاسم ، كما انه يُعْتَبر ان آلة التعريف لفظ له معنى،فيدخله في قسم الحرف .

اما قسم الاسم اليوناني فانه يقابِل قسم الاسم العربي ، غير اننا نجد فَرقًا بين القسمين ، لان الاسم عند ارسطو لفظ له معنى يدل على شيء ، بيد أن الاسم عند سيبويه لفظ يقع على الشيء،فهو ذلك الشيء بعينه .

وكذلك يقابل قسمُ الكلمة اليوناني قسمَ الفعل العربي ؛ فالكلمة عند ارسطو لفظٌ له معنى يدلّ على زمان ، والفعل عند سيبويه مثال اخذ من لفظ حدث الاسم ، فيه دليل على ما مضى وما

لـــم يمض ؛ غير اننا نجد فرقـــا بين القسمين ، لان الصيغة غـــير المبيَّنـــة aparemphatos مضمَّنة في قســـم الكلمة اليوناني ، بيـــد ان المصدر مضمَّنٌ في قسم الاســـم العربي ، كما ان الصيغـــة المشتركة metochikon مضمَّنة في قسمي الاســـم والكلمة معا في النظام اليوناني ؛ بيـــد ان اسم الفاعل مضمَّن في قســـم الاسم فقط في النظـــام العربي .

واخيرا، فليس لقســـم الوقعة اليوناني قســـم يقابله في النظام العربي ، لان مفهـــوم الوقعة التي تحدث فـــي آخر الاسم او في آخر الفعل ، مفهوم غـــير موجود عند سيبويه ؛ وكذلك قســـم القول ، الذي هو عند ارسطـــو مركَّب من الفاظ لها معنى ، ليس لـــه قسم يقابله في النظـــام العربي ، لأنّ سيبويه لـــم يجعل من القول قسما مستقـــلا فـــي تقسيمـــه .

فمن الناحيـــة اللسانية ، يظهر لنـــا انه من المستحيل أن يكون التقسيم العربيّ منقولا مـــن التقسيم اليوناني ، لان عـــدد الاقسام ومضمونها يختلف فـــي النظامين اختلافا تامـــا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثـــم يجب علينا أن نتساءل هـــل كان من الممكن ، من الناحيـــة اللغوية ، ان يكون النحـــــاة العرب القدامى قـــد اخذوا عن النحو اليونانـــي تلك المصطلحات الاربعـــة التي هي : الاعـــراب، والصرف، والتصريـــف، والحركـــة .

يزعم أتْباع التأثـــير اليونانيّ ان كلمة الإعراب نُقلـــت من الكلمة اليونانيـــة hellenismos . مـــا معنى هذه الكلمة في اصل اللغـــة اليونانية ؟ hellenismos اســـمُ فِعلٍ يوناني تعريبه: هَلَّـــنَ شيئا تهلينـــا ،اي صيَّره هِلّينيًّـــا .

قـــال ارسطو في كتابه في الخطابة : « ان اصـــل الكلام هو الوجه الهلّيني في التكلم"، اي الوجـــه الصحيح الذي يحصل عليـــه بمراعاة خمســـة اشيـــاء :

١ ــ باستعمال الروابــط،أي حروف العطــف ،

٢ ــ باستعمال الكلمــات الخاصة ،

٣ ــ بعــدم استعمال الكلمــات الملتَبِســة ،

٤ ــ بتمييز الأجناس في الأسمــاء ،

٥ ــ بتمييز الأعــداد فيهــا .

ويــرى فيلسوفٌ رواقيٌّ ان التهلــين هو التكلم الصحيح علــى وجــه الصناعة ، لا على وجــه العامة .

فنلاحظ ان الكلمــة hellenismos كلمــة عامة تختصّ بالكلام برمّتــه ؛ فانها اصطلاح خطابي وليس باصطلاح نحــوي .

امــا معاني الإعراب في أصل اللغــة العربية فهي ثلاثــة : اولا الإبانــة والإفصاح عن الخواطر ، ثانيا إزالــة الفساد في الكلام ، ثالثا تغير آخــر الكلمة .

فقــال ابن جني في كتاب الخصائص : « وكــأن الاعراب مــن قولهم : عربت معدتــه أي فسدت ، كأنها استحالت مــن حال الى حال ، كاستحالة الاعراب مــن صورة الى صورة » . وقال ابــن الأنباري في كتاب اسرار العربيــة : « ان الإعراب سُمّي إعرابا لانــه تَغَيُّرٌ يلحق اواخر الكلم ، مــن قولهم : عربت معــدة الفصيل اذا تغيرت » .

والواقع أن سيبويــه يستعمل كلمة الاعراب ليَــدلّ على ما يسميه « مجاري أواخر الكلــم »؛يعني التغيُّرات التي تَحدُث في آخــر الاسم المتمكــن،والفعل المضارع لاســم الفاعل . والاعراب عنــد سيبويه نقيض البنــاء الذي يدلّ على عدم التغيّر في آخــر الكلمة .

فنلاحــظ ان الإعراب كلمة تختص ببعض الكلمات فقــط في الكلام ، فانها اصطلاح نحــوي وليست باصطلاح خطابــي .

ثــم يَدَّعي انصار التأثير اليوناني ان كلمــة الصرف نُقِلت من

الكلمة اليونانيـــة klisis ، وان كلمة التصريف نُقِلـــت من الكلمة اليونانيـــة ptosis . ما هو السبب الـــذي دفعهم الى هـــذا الادعاء ؟ السبب هـــو ان النحاة اليونان كانـــوا يعتبرون ان الاسم ، بالنسبة الى حالته الاصلية التي هي حالـــة التسمية onomasticos ، لـــه ميل klisis الى حالات اخرى ، كمـــا ان الفعل بالنسبة الى حالته الاصلية التـــي هي حالة الحاضر enestos ، لـــه ميل الى حالات اخرى ؛ وكـــان النحاة اليونان يسمّون كـــل واحدة من هذه الحالات المتغيرة وقعـــة : ptosis

قـــال ارسطو في كتابه في الشعر : « امـــا الوقعة فهي للاســـم أو الفعل ، وتدل علـــى معنى حرف « ل » أو حـــرف « الى » وما اشبه ذلك ، أو على الإفـــراد أو الجمع او نوع كـــلام القائل ، مثل الاستفهام أو الأمـــر » .

وقال في كتابـــه في الخطابة : « تَغَيُّرات الاسم المـــائل هي وقعات الاسم ، كما ان تغيُّرات الفعل المـــائل هي وقعات الفعل » .

امـــا معنى كلمة الصرفة في كتـــاب سيبويه،فان هذه الكلمة تدلّ على إلحاق حـــرف النون للاسم،وللاسم فقـــط ، لان هذا الحرف علامة التمكّن ، يعني استـــقرار الكلمة في قسم الاســـم .

وامـــا معنى كلمة التصريف فَيَسْتَعمِل سيبويـــه هذه الكلمة للدلالة على التغيُّرات التي تَحـــدُث في داخل الكلمة،فانه لا يستعملها ابـــدا للدلالة على التغيُّرات التـــي تَحدُث في آخـــر الكلمة .

فنلاحـــظ ان مفهوم الميـــل ومفهوم الوقعة غير موجودين فـــي النظام العربي ، كما ان مفهـــوم التمكّن ليس بموجود في النظام اليوناني .

ثـــم يزعم أتباعُ التأثير اليونانـــيّ ان كلمة الحركة تُرجِمَت من الكلمة اليونانيـــة : kinesis ، وذلك لان بعض النحـــاة اليونان حَدّدوا الوقعة بأنها حركـــة تَحْدُث في آخر الاســـم ، فيستنتجون من هذا التحديد ان الحركـــة عند النحاة العرب كانت تَـــدلّ في الاصل على

المصوت الاساسي ، يعني ذلك المصوت الذي يشير الى الوقمة في آخر الاسم ، ومن ثم استُعْمِلَت هذه الكلمة بصفة عامة للاشارة الى المصوت .

نلاحظ اولا ان مفهوم التحريك في النظام الصوتي العربي لا يتفق ابدا ومفهوم التصويت في النظام الصوتي اليوناني ؛ فان ارسطو يقسم الحروف الى مصوَّتة ونصف مصوتة وغير مصوتة ، بيد ان سيبويه يقسم الحروف الى متحركة وساكنة .

ثم نلاحظ ان كلمة الحركة عند سيبويه تدلّ على حركات الشفة،من الضم والفتح والكسر، أو على حركات اللسان،من الرفع والنصب والجر او الخفض ، عند اخراج الصوت ؛ أَتَحَدَّث هذه الحركة في صدر الكلمة ام في وسطها ام في آخرها ، فان الحركة في نظام سيبويه كلمة عامة ، لا تدلّ على آخر الاسم المعرب ، لانها تُسْتَعْمَل ايضا لتدلّ على آخر الاسم المبني غير المعرب ، ويمكن ان تكون كلمة معربة مجرّدة من الحركة ، كالفعل المضارع المجزوم مثلا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فمن الناحية اللغوية ، يبدو لنا انه من المستحيل ان تكون هذه المصطلحات الأربعة منقولة من اليونانية الى العربية ، لان المفاهيم التي تدلّ عليها تتباعد في النظامين كل التباعد

* * *

يجب علينا الآن أن نتساءل: هل كان من الممكن،من الناحية التاريخية،ان يُعرف النحاةُ العرب القدامى النحوَ اليوناني والمنطق اليوناني فيتاثروا بهما ؟

اما النحو اليوناني فلم يستطع النحاة القدامى ان يعرفوه بطريقة مباشرة ، اذ انهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية ، ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجَم الى اللغة العربية ، فلم يستطيعوا اذن ان يعرفوا النحو اليوناني الا بواسطة النحو السرياني . فعلينا

أن نبحث عن العلاقـــات الموجودة بين النحو السريانـــي والنحو اليوناني من جهـــة ، والنحو العربي من جهـــة أخرى .

كان النظام النحـــويّ السريانيّ مرتكزا على الاقاويـــل الخمسة التي مَيَّزها منطق ارسطو في الكلام ؛ وهي حسبما قال ايليـــا بن شينايا : السؤال، والامـــر، والدعاء، والتعجب، والنـــداء .

فاخترَعَ النحـــاة السريان نظام النُقَـــط ، يعني نظام العلامات التي تقابِلُ في الكتابـــة الاشارات الدالّة على تلـــك الاقاويل في المشافهة . ثـــم يرتكز هذا النحو على القواعد الصوتيـــة والصرفية التي اقتبسها السريان من كتـــابٍ في النحو اليوناني كان قـــد تُرْجِم الى السريانية .

أمـــا النحاة السريان فنقتصر على ذكـــر اشهرهم، وهـــم ثلاثة :

في القـــرن السابع : الاسقف يعقوب الرهاوي ، الـــذي صنّف الكتـــاب الاول في النحـــو السرياني ،

في القـــرن التاسع : المترجِم المعروف حنين بـــن اسحاق ، الذي ألَّـــف كتابا في النحو سمـــاه « كتاب النُقَط » ،

في القـــرن الحادي عشر : ايليـــا بن شينايا ، مطران نصيبين ، الذي صَنَّف كتابـــا صغيرا في النحـــو .

امـــا تعليم النحو السرياني فكـــان منتشرا في اديرة السريـــان ومدارسهم ، كمدرسة ديـــر قنى المشهورة ، بالقرب من المدائـــن ، وكالمدارس العديدة التـــي كانت موجودة في الحيرة عاصمـــة العباد ، بالقرب من الكوفـــة . غير اننا لا نجد اي دليل في المصـــادر السريانية ، ولا في المصادر العربيـــة ، على ان النحاة العرب القدامى قـــد اتصلوا بالنحاة السريـــان ، او تَعَلَّموا اللغـــة السريانية .

وفضلا عن ذلـــك ، كان النحاة السريـــان انفسهم يُعتبرون أن النحـــو العربي يختلف عـــن النحو اليوناني من جهـــة ، وعن النحو السرياني من جهـــة اخرى ، اختلافا تامـــا . ومما يدل على ذلك أن

حنينا بـــن اسحاق ألّف كتابا في النحـــو العربي ، على المنهاج اليوناني ، سمّـــاه « كتاب أحكـــام الإعراب على مذهب اليونانيين ».وقد ذكـــر الخوارزمي فصلا صغيرا منـــــه في كتاب مفاتيح العلـــوم . وصنّف حنين كتابا آخـــر في النحو العربي ، زعـــم فيه ، حسبما روى عنـــه ايليا بـــن شينايا : « ان العرب ليس لهـــم نحو يُعرفون بـــه المعاني الغامضة كمـــا للسريانيين"، ويستدل من قوله ان نحـــو العرب غير كـــاف ولا مقنع لمـــا يحتاج اليه ! .

امـــا ايليا بن شينايا فأفرد مجلســـا من المجالس التي جَرَت بينه وبين الوزير الحسين بـــن علي المغربي ، بمقارنةٍ نفيســـة بين النحو العربي والنحـــو السرياني ، يوضح فيها الفـــرق بين النظامين ، كما يدلّ على ذلـــك الحوار التالي بـــين الرجلين :

« قال الوزيـــر : أترفعون الفاعل وتنصبون المفعـــول كما تفعل العرب ؟ قلـــت : لا .

قـــال : فكيف تعرفون الفاعـــل من المفعول ؟ قلـــــت : يُدخل السريان على المفعـــول حرف اللام ليُفرّق بينه وبين فاعله ؛ ولمـــا كان العرب انما يرفعون الفاعـــل وينصبون المفعول ، ليفرّقوا بينهما،وكـــان للسريان علامة تَدُلّهـــم على الفرق بين الفاعل والمفعـــول هي أبين من الرفع والنصب ، مـــا احتاجوا ان يرفعوا الفاعـــل وينصبوا المفعول كما تفعـــل العرب » .

فيدلّ كلُّ ذلك على ان النحـــو اليوناني لم يستطع ان يؤثـــر على النحو العربي بواسطة النحـــو السرياني ؛ وبعكس ذلـــك ، في القرن الحـــادي عشر ، نرى ايليـــا مطران طيرهان يصنّف كتابـــا في النحو السرياني يُدخِل فيـــه النظام العربي ؛ فالنحـــو العربي هو الذي اثـــر في النحـــو السرياني .

امـــا المنطق اليوناني فلم يستطع النحـــاة القدامى أن يعرفوه في القرن الثانـــي للهجرة،الثامن للميلاد ، اذ ان تآليـــف أرسطو لم تنقل

يعد الى اللغـــة العربية ؛ فاذا نعلم ان الكتاب فـي العبارة والكتاب في المقولات لـــم يُتَرجَما الا في القرن الثالث للهجـــرة ، التاسع للميلاد ، على يـــد حنين بن اسحاق ؛ كما نعلـــم أن الكتاب في الشعر لم يُتَرجَم الا في القرن الرابـــع للهجرة ، العاشر للميلاد ، على يـــد مَتّى بن يونس .

واذا اطَّلَعْنا على هـــذه الترجمات لاحظنا أن المترجِـــمَ السرياني لـــم يُسْتَعْمِل مصطلحات النحـــو العربي ليترجِمَ مصطلحات النحـــو اليوناني،ولكنه اختـــرع مصطلحات عربيـــة جديدة .

فانه ترجم اللفظـــة stoikeion بأسطقس ، ولـــم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظـــة syndesmos برباـــط ، ولم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظـــة rhema بكلمة ، ولـــم يترجمها بفعل ، وترجم اللفظـــة klisis بميل ، ولـــــم يترجمها بإعراب ، وترجم اللفظـــة phone بمصوّت ، ولـــم يترجمها بحركة .

وفي القـــرن الرابع للهجرة ، العاشر للميـــلاد ، نرى الفلاسفة العرب يخترعون مصطلحات جديـــدة ، ليُفسّروا كتب المنطـــق اليوناني في اللغة العربية . فـــان الفيلسوف المنطقي الكبير ، ابـــا نصر الفارابي ، يقول في كتاب الالفـــاظ المستعملة في المنطق ، بصـــدد حروف المعاني :

« ان هـــذه الحروف هي أصناف كثيرة ، غـــير أن العادة لم تَجْرِ في أصحاب علـــم النحو العربي الى زماننا هـــذا ، بأن يُفْرَد لكل صنف منها اسمٌ يَخُصُّـــه ؛ فينبغي أن نستعمل في تعديـــد أصنافها الاسامي التـــي تأدت الينا عن اهـــل العلم بالنحو من اهـــل اللسان اليوناني ، فانهم افردوا كـــلّ صنف منها باسم خـــاص » . فاخترع الفارابي خمسة مصطلحات ليدلّ على هـــــذه الاصناف من حروف المعانـــي ، وهي : الخوالف، والواصـــلات ،والواسطات ،والحواشي، والروابـــط .

وفي نفس الحقبة ، يروي لنـــا الفيلسوف ابو حيّـــان التوحيدي ، في كتاب الامتـــاع والمؤانسة ، مناظرة مشهورة جرت بين متّى بـــن يونس المنطقي وابـــــي سعيد السيرافي النحـــوي ؛ فمما يبيّن أن

متّـــى كان يعتبر ان المنطق ليست لـــه صلة بالنحو ؛ الحوار التالـــي بـــين العالـــمين :

« قا لأبـــو سـعيد : أسألك عن معاني حرف واحـــد،وهو دائر في كلام العرب،وهـــو الواو ، ما أحكامه،وكيـــف مواقعه،وهل هو على وجـــه أو وجوه ؟ فبهت متـــى وقال : هذا نحو،والنحو لم أنظر فيه ، لانه لا حاجة بالمنطقي اليـــه ، وبالنحوي حاجة شديـــدة الى المنطق ، لان المنطـــق يبحث عن المعنى،والنحـــو يبحث عن اللفـــظ » .

فيدلّ كـــلّ ذلك على ان المنطقيين السريان والفلاسفـــة العرب كانوا يشعرون بأن النحـــو العربي لا يتعلق بالمنطق البتّـــة .

فمـــن الناحية التاريخية ، يظهر لنا انـــه من المستحيل أن يكون النحاة العرب القدامى قـــد عرفوا النحو اليوناني والمنطـــق اليوناني فتأثروا بهمـــا في نظامهـــم .

* * *

ينبغي لنـــا اخيرا ، ان نتساءل:هل كـــان من الضروري ، مـــن الناحيـــة المنهاجية ، ان يكـــون النحاة العرب القدامـــى قد اقتبسوا بضعة مصطلحـــات من النحـــو اليوناني ؟

فـــاذا اطلعنا على كتاب سيبويه ، لاحظنا أن لغتـــه غنيّة جدًّا ، لانه يستعمل عـــددا وافرا من المفردات ليعرض نظامـــه النحوي . ولكنّنا لم نكن نعلـــم بالضبط مبلغ هذا العـــدد ؛ فعزمتُ أن أُحصي جميع المفـــردات التي استعملها سيبويه في لغتـــه الشخصية دون لغـــة الشواهد القـــرآنية والشعرية ، فوجدت أن عددها يبلغ : الفـــا وثمانمئـــة وعشريـــن .

مـــا هي المعلومات التي نستطيع أن نستنتجها من هـــذا الاحصاء ؟

اذا ضربنا صفحا عـــن المفردات المستعملة في معناها العـــام ، بدون معنـــى اصطلاحي ، وعددها مئتـــان وعشرون فقط ، استطعنا أن نُميِّز في الكتـــاب خمسة انواع من المفـــردات :

اولا : المفـــردات التي تتعلّق بالمفاهيـــم النحوية العامة ، يعني : بأقسام الكلام وانـــواع الالفاظ واحوالهـــا

ثانيا : المفـــردات التي تختص بتركيب الجُمَـــل ، يعني بمواضع الالفاظ في الكـــلام ومجراها من ناحية العمـــل

ثالثا : المفـــردات التي تتعلق بالتصريـــف ، يعني بتغيير الالفـــاظ في اللغـــة وصياغتها بالاشتقـــاق .

رابعا : المفـــردات التي تختص بالصوتيـــة ، يعني باخـــراج الاصوات ومجراهـــا في بنيـــة الالفاظ .

خامسا : المفـــردات التي تتعلق بالمنهـــاج ، يعني بالمفاهيم التي يستعملها سيبويـــه ليفسّر الوقائع النحويـــة والوسائل التي يستعملها ليوضحهـــا .

امـــا توزيع تلك المفردات العددي ، فـــانّ المفردات التي تتعلّق بالمنهـــاج هي الأكثر ، وعددها ستمئـــة وخمسون ، ثـــم تتبعها المفردات التي تختص بالمفاهيـــم العامة ، وعددها ثلاثمئـــة وتسعون ، ثـــم المفردات المتعلقة بالتصريف والتـــي تساوي المفردات المتعلقـــة بالصوتية ، وعددها ثلاثمئـــة وعشرون ، واخيرا المفـــردات التي تختص بالتركيب ، وعددها مئتـــان وخمسون .

فمن البـــيِّن انَّ عددًا وافرًا من المصطلحات النحويـــة كان تحت تصرف النحاة العـــرب القدامى ؛ فمن المستحيـــل ان يكونوا قد احتاجوا الى اقتباس بضعةٍ مـــن المصطلحات الأجنبية ، يونانيةً كانت ام سريانية ؛ فما تعني تلـــك العَشَرة من المصطلحات التي يزعـــم المستشرقون ان النحاة العرب قـــد اقتبسوها من اللغـــة اليونانية ؟ ما تعنـــي تلك العَشَرة بالنسبة الى المئـــات والمئـــات من المصطلحات التي كانـــت متناولَةً في لغتهـــم ؟

اظـــنُّ ان المستشرقين قـــد اخطأوا عندما اعتمدوا على بضعة مـــن مصطلحاتٍ يونانيـــة ليبرهنوا على مضارعـــة النظام العربي

للنظام اليوناني ، لانَّ كلّ واحـــد من المصطلحات جـــزء من نظام معقّد ، ليس لـــه معنى ، خارجا عن هـــذا النظام .

* * *

لقد بَيّنّـــا انه من المستحيل ان يكون النحـــو العربي القديم قد اقتَبَس مصطلحاتٍ من النحـــو اليوناني ، وذلك من جميع النواحـــي : من الناحية اللسانيـــة ، ومن الناحية اللغوية ، ومـــن الناحية التاريخية ، ومـــن الناحية المنهاجيـــة . غير انه تَبقَّى علينـــا الاجابة على هذا السؤال : كيف نشأت هـــذه المصطلحات التي نـــرى سيبويه يستعملها فـــي كتابـــه ؟

اذا فحصنا الكتـــابَ وجدنا ان سيبويه لـــم يُحدِّد المصطلحـــات التي يستعملها ؛ فهـــذا يدلّ على انه لـــم يَخْلِق مصطلحـــات جديدة ، وانـــه يستعمل تلك التي استعملها قَبْلَـــه النُحاة القُدامى الذين يذكرهم في الكتاب ؛ كما يـــدلّ ذلك على ان معاصريـــه كانوا يفهمون تلـــك المصطلحات بـــدون صعوبة وبدون تفسير ؛ لمـــاذا ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لانـــه من المحتمل ان سيبويـــه استعمل المصطلحـــات المشتركة بين العلوم الاســـلامية الأُصليّة التي هي : القراءات،والحديث،والفقـــه، والنحـــو . وقد تكَّونت تلـــك المصطلحاتُ في وقت واحـــد في النصف الثاني من القـــرن الثاني للهجرة ، الثامـــن للميلاد ، في مِصْرَي العراق المسلِمَـــين ، البَصرة والكوفـــة ، فكان القُرّاء والمحدِّثـــون والفقهاء والنحاة يستعملون نفس المنهـــاج ونفس المفاهيم ونفس المصطلحـــات ، لانهم كانوا يقصدون الـــى نفس الهدف الذي هو سلامة لغـــة التنزيل الإلُهـــي والحديث النبـــوي .

ويُمْكِننا القول إن النحـــو ، منذ بدايته ، كـــان مرتبطا بالحديث والفقـــه ، اذ ان كتب اخبار النحويين تروي لنـــا عن نصر بن عاصم الليثي ، وهو اول مـــن وضع العربية بعد أبـــي الاسود ، انه كان فقيها عالمـــا بالعربية والحديث ، كما انها تروي لنـــا عن يحيى بن يعمر ،

وهو اول من نَقّــط المصاحف ، انــه كان ايضا فقيها عالمــا بالعربية والحديـــث .

فكان العلماء ، في غالــب الاحيان ، يتلقّون جميــع العلوم الاسلامية قبل ان يتخصّصوا في واحــد منها . فنعلم مثلا ان النحــوي المشهور الخليل بن احمــد ، وهو واحــد من اساتذة سيبويه ، قبل ان ينصرف الى النحو ، تَعلّم الحديث والفقــه عن ايوب السختياني ، الــذي كان فقيهــا من فقهاء البصرة ومحدّثــا من محدّثيها .

وكذلك ، نعلــم ان سيبويه قَدِمَ البصرة ليكتــب الحديث ، فلزم حلقة حماد بــن سلمة ؛ ويروى عنه انــه بينما كان يستملي على حماد قول النبي صلى اللــه عليه وسلم : « ليس من اصحابــي الا من لو شئت لأخذت عليه ليس ابــا الدرداء » فقال سيبويه : « ليس ابو الدرداء » وظَنَّه اسم ليس ، فقــال حماد ، لَحنتَ يــا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، وانمــا « ليس » ههنــا استثناء ؛ فقال سيبويه : سأطلــب علمــا لا تلحنني فيه ؛ فلــزم الخليل فبرع .

وكذلــك ، يُرْوَى عن حمــاد بن سلمة انه كان يقول : « من لحــن في حديثي فقــد كذب » ؛ فَتَدُلُّنا هذه الروايــة على العلاقات الوثيقة التي كانت تربــط الحديث بالنحــو .

وكــان العلماء القدامى يُعتبرون ان النحــو اول العلوم الاسلامية واسبقها ، فكانــوا يفضّلونه على العلوم الاخــرى ؛ وذلك لان النحوَ العلمُ الاساسي الــذي يحتاج اليه جميع العلوم ، والــذي لا يستغني عنــه عالــم .

فَيُرْوَى عن ايــوب السختياني انــه قال : « تَعلّموا النحو فانه جمال للوضيع وَتُرْكُــه هجنة للشريف » ، كما يُروَى ايضا عن حمــاد بــن سلمة انه قال : « مَثَلُ الذي يطلب الحديــث ولا يعرف النحــو ، مَثَلُ الحمار عليــه مِخلاةٌ لا شعير فيهــا » .

وفي الختام ، فأنا اعتقد ان علــم النحو اعربُ العلوم الاســلامية ، وابعدُها عن التأثير الأجنبي في طــوره الأول ، كمــا حاولتُ ان أُبيِّن ذلك في ضوء كتــاب سيبويه ، ذلك الكتاب المشهــور الذي هو اقدم كتــب العــرب في النحــو .

العشرينيات والعشرينيات

للدكتور ناصر الدين الأسد

— ١ —

تجري الالسنة والاقلام من حين الى حين بتعبيرات والفاظ لا تلبث أن تشيعَ مِن خلال الصحف والاذاعات والتأليف شيوعا يستوقف الحريصين على سلامة اللغة ونقائها ، فاذا هم يُطيلون البحث فيها والطواف حولها ليتحققوا من صحتها،ومن انها جارية مجرى كلام العرب في الاستعمال،أو في القياس،أو فيهما معا . وما اكثرَ ما صَدَرَ من كتب في القديم وفي الحديث،بَناها مؤلفوها على تَتَبُّع هذه التعبيرات والألفاظ،وبيان ما فيها من خطأ،والتنبيه على الصحيح الذي يجب استعماله مكانها .

وهذا بابٌ من العلم ظاهِرُه اليُسرُ والاغراء بالدخول منه ، وباطِنُه محفوف بالمزالق والمكاره ، اذ لا بُدَّ للمتوغّل فيه من ان يكون محيطاً بكلام العرب او بأكثره ، بصيرًا بأساليبهم ، عالِمًا بشعرهم ونثرهم على مر العصور وتَعدُّد البيئات ، حافظًا ، ذاكرًا ، قادرًا على الأستشهاد وضرب المثل والإدلاء بالحجّة . واين مَن يَدَّعي لنفسه كلَّ هذا او بعضَه ؟

ومن اجل ذلك كَثُرَت الكتب التي أَلَّفها أصحابها للردّ على مؤلفي الكتب السابقة ، وبيان ما وقعوا فيه من تَسَرُّع الى التخطئة ، وتوضيحِ وجه الصواب فيما ظَنّوه وهْمًا او مخالفا لكلام العرب .

وكلا الفريقين من العلماء لا يُنْتَقِصُ مِن علم احدهم انه اخطأ في اجتهاده ، ولا يَعيبُه انه غاب عنه امرٌ عرفه غيره ؛ ولهم جميعا الاجر والثواب ان شاء الله .

ومـــا فَتِئْتُ اطلب هذا الضرب مـــن الثواب ، وارجو أَجْـــــر الاجتهاد ، مُلقيـــًا بدلوي بين الدلاء في الفـــاظٍ شاعت وراى غيري انها خطأ ، وكنتُ من الذيـــن راوا صوابها ، ونَشَرْتُ بعض ذلـــك في مجلّة مجمع اللغـــة العربية بالقاهرة (١) .

وأُحِبُّ الآن ان استزيد مـــن الخير ، فأواصل في مجلـــة مجمعنا الناشىء مـــا كنتُ بدأتُه في مجلّـــة مجمعنا العريق .

— ٢ —

وكـــان الذي قادني الى هـــذا الحديث مقالٌ نَشَرْتُـــه صحيفة يوميّـــة (٢) ، في مصرنا العربية ، الحبيبة لقلب كـــلِّ عربي ، كَتَبَه عالِمٌ جليل ، عضوٌ في مجمـــع اللغة العربية بالقاهرة ، معروف بالرويّـــة والتثبُّت ، طالَمَـــا أَنِسْنا بحديثه وأَفَدْنا منـــه . وتناولَ في مقاله كلمتين نقتصر هنا على الثانيـــة منهما ، ونبدأ بنقل مـــا كَتَبَه عنها بحروفه ، قال :

« وثَمَّـــت كلمة ثانية يستعملها النـــاس في عصرنا على انهـــا صواب ، وهي عريقة في الخطـــأ ، وهي كلمة : العشرينـــات والثلاثينات والاربعينات ، وما الـــى ذلك من سائر العقود . وَوَجْهُ الخطـــأ في هذا الاستعمال ان هـــذه الكلمات جموعٌ لعشرينـــة وثلاثينة واربعينة ، وليست هـــذه الكلمات في متـــن اللغة ، اذ كانت لا معنى لها .

والصواب في الاستعمـــال ان يقول القائل : هـــذا حَدَثَ في العشرينيّـــات والثلاثينيّات والأربعينيات ، بمعنى انـــه حدث في السنوات المنسوبة الـــى العشرين والثلاثين والاربعين ومـــا اليها . فالكلمة يجب أن تكون مستعمَلَةً على طريق يـــاء النسبة ، وحَذْفُ اليـــاء هذه خطأ ، شريـــق في باب الخطأ الـــذي يكاد يهبط الى منزلـــة الخطيئة ، لأن الفصحى من شعائر الاســـلام ، ولان الحرص على العربيـــة حرص على لغـــة القـــرآن .. » .

---

(١) الاجـــزاء ٢٥ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٤ .

(٢) جريدة الاخبار ، ١٩٧٧/٩/٢١ ، ص ٥ ، بعنوان « الصواب المظلوم » .

- ٣ -

ولِحِرْصنا جميعـــا على العربية ، لغـــة القرآن ، نستأذنُ الاستاذ الجليل في ان نأخـــذ بأطراف الأحاديث بيننـــا ، ونستأنف مجالسُ كانـــت لنـــا ، عَرْفناه فيها مُحِبًّا للحقيقة والحـــقّ ، حفيًّا عنهما ، لا يضيق صدره بِرَدٍّ او ســـؤال او تصحيح .

ولقد غاب عنّي فهـــمُ ما قصد اليه من قولـــه إنّ المشرينات، بغير يـــاء النسبة، « عريقة في الخطـــأ » وان « حذف الياء هذه خطـــأ عريق في باب الخطـــأ » ؛ فلم افهم معنى « العراقة » هنـــا ! إنّ الذي يتبادر الى الذهـــن من ظاهر اللفظة انها تعني القِـــدَم في الاستعمال على هذه الصورة . فهل وَردت « العشريـــات » وأضرابُها في كـــلام العرب قديما ؟ هل جاءت في شعرٍ او نثـــرٍ من عصور الاُحتجاج اللغوي ؟ إنْ كانـــت في مثل هـــذه العراقة فأولى ان نقول إنهـــا « عريقة في الصواب » ! وان لم تكن قـــد تَحَدَّرت الينا من تلـــك العصور ، ففي ايّ عصر بـــدا استعمالها ؟ فان كانت هـــذه اللفظةُ لم تَجْـــرِ في الاستعمال الاّ في المـــائة الاخيرة او قبلهـــا بقليل ، فليس لنا ان نقول عنها إنهـــا « عريقة » ، لا في خطـــأ ولا فـــي صواب .

وان كان المقصـــودُ من العراقة في الخطأ انهـــا مخالِفَةٌ لطريقة العرب في بنـــاء الكلمة وفي جمعها ، وليس في استعمال هـــذا الجمع بعينه قديما ، فذلـــك يقودُنا الى مسالك أخرى مـــن الحديث .

فالعشرينات والثلاثينـــات والاربعينات ليست بالضرورة « جموعـــا لعشرينة وثلاثينة وأربعينـــة » التي هي ليست « فـــي » متن اللغة ، اذ كانت لا معنـــى لها » .

والجمع الذي ينتهي بالألف والتاء ، والذي يُسَمُّونه جمع مؤنث سالما ، ليس دائما جمعـــا لمؤنث ، اذ كثيرٌ مـــا جُمِعت عليه الفاظٌ لمذكَّـــرٍ غير عاقل : اذ لـــم يكن هذه الالفاظ جمـــع تكسير ؛ فالفاظٌ مِثلُ : حَمَّام ،

وخَزّان ، وسِجِلّ ، وقرار ، ومُسَــوِّغ ، تُجْمَع على : حَمّامات، وخَزّانات ، وسِجِلّات، وقرارات، ومُسَــوِّغات ؛ وكُلُّها في مفردها تــدلّ على مذكّر غير عاقل . بــل استعملوه ايضا فــي القديم والحديث لجمع الجمــع ، للمذكر العاقل وغــير العاقل ؛ ففي العربية ، رجــالٌ ورجالات ، وجِمالٌ وجِمالات ، وبيــوتٌ وبيوتات ، وبُيوعٌ وبيوعات ، واهــرامٌ واهرامات . ومفردهــا مذكّــر .

ثــم اذا كنّا قد حَكمنا بــأن « العشرينة والثلاثينة ليست في متــن اللغة » فاننا كذلك لا بُــدَّ حاكمون بأن "العشرينيــة والثلاثينية والاربعينية" ليست كذلك في متــن اللغة على وجــه اليقين ، ولم يُجْرِ بها لسانُ أحدٍ من العرب في القديــم . ونحنُ نَعْلم ان مُجْمَعنــا في القاهرة قد بَحَثَ هذه الالفــاظ وجموعها،وذَهَبَ الى مــا ذهبَ اليه الاستاذ الجليل ، وعــدَّ « العشرينات » واضرابها خطــأ ، و « العشرينيات » واضرابها هــي الصــواب (١) .

ثــم ان هذه « اليــاء » المُقْحَمة التي قيل إنها للنسبة ، مشكلــة في التَصوُّر والفَهــم معا ؛ فما أظنّ احدًا ممَّــن يَستعمل هذه الجموع يَصدُر عن تَصَوُّر النسبــة الى مفرداتها ؛ وما اظنُّ احــدًا ممن يسمعها او يقراها يستقرُّ في فهمــه معنى هذه النسبة ، وانمــا يريد القائل ان يدلّ دلالة عامّــةً على حقبة زمنية تمتدُّ عشر سنوات ، تبــدأ بعدد في صورة الجمع،وليس فــي حقيقته جمعا ، وتتسلسل بعــده تسع سنوات تاليــة،بِوَضْع عَدَدٍ قَبْلَه بَينَهُما واو العطــف . هذه الدلالة العامة على حقبة زمنية معيّنة هــي التي يُقصدها القائل حينَ يريــد أن يتجنَّبَ تحديد سنة بعينهــا ، وهي التي يَفْهَمُها الســامع ، ولا يدور في خَلَــد احــد منهما أن ينسب شيئــا الى شيء .

---

(١) في الجلسة التاسعة مــن مؤتمر المجمع في الدورة التاسعــة والثلاثين ، وفي الجلسة السادسة والعشرين مــن المجلس في الدورة نفسها ؛ وانظر بحث الاستاذ محمــد شوقي امين،وبحــث الاستاذ الشيخ عطية الصوالحي في كتاب « الالفــاظ والاساليب » اصدار مجمع اللغــة العربية بالقاهرة ، ١٩٧٧ .

فاذا كان لا بُـدَّ من استعمال احد هٰذين الجمعين، فـانَّ تَرْك الياء اولى ، واستعمال العشرينـات والثلاثينات والاربعينات ، اقرب الـى ذوق العربية وادخـل في اساليبها ، وهو مـا شاع استعمالـه واستساغـه العـرف .

— ٤ —

ومع ذلك ، فقـد اْعْتَسَفْنا الطريق واصبحنا مُنْبَتّين ، حـين تَرْجَمْنا ترجمةً حرفيـة ما استعملته اللغات الاجنبية مـن جموع هذه الالفاظ ، ثـم دخلنا في تيـه من الجدل في تخطئة هذه الترجمات وتصويبها ، ولم نَرْجِعْ في كـلّ ذلك الى ما استعمله العرب منـذ اقدم عصورهم للدلالة على هذه الالفـاظ ، متوهّمين انها من المعانـي المصرية المستحدَثَة التي لم تَرِدْ في كـلام العرب ، على حين انهم عَرفوها وأداروهـا كثيرا في كلامهم منذ الجاهلية ؛ وهي لفظـة العقد نفسه — بغير جمع — مقرونة بالالف واللام ، وقد تُجَرَّدُ منهما في الشعـر بخاصة ، اذا دلّت القرينةُ على المعنى . فقالـوا : العشرين ، والثلاثين ، والاربعين ، الـى آخـر العقود ، بدلا من العشرينات او العشرينيـات واضرابها . وَيحْسُبِنا شواهـد معدودات نأنس اليها في هـذا الحكم وتطمئن اليها نفوسنـا :

قـال سُحَيْم بن وَثِيـل الرِّياحيّ (جاهلي اسـلامي) (١) :

ومـاذا يُدَّري الشعـراءُ منّـي وقـد جاوَزْتُ راسَ الأربعـينِ

اخـو خمسينَ ، مجتمعًا اَشُدّي وَنُجِّذنـي مـداورةُ الشـؤونِ

فللأربعينَ راسٌ هـو حَدُّها الأعلى ، ولهـا « ذَنَبٌ » هو حَدُّها الأدنى ، وهي تتدرَّج بينهمـا . فَسُحَيْم يَذكر انـه جاوز التاسعةَ والأربعين من عمـره ، وهي راسُ الأربعين وحَدُّهـا الاعلى ، ثم وَضَّحَ ذلك توضيحا ما بعده من مزيـد حين قال : « اخـو خمسين » .

---

(١) البيتان من القصيدة الاولى في الاسمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

ويقول دِعْبِـــل الخُزاعيّ (عبّاســـي) (١) :

انيقِي مِـــن مَلامِكِ يـــا ظَعينا كفَـــاكِ اللومَ مـــرَّ الأُربعينـــا

وهـــذا شبيه بقول سُحَيْـــم ؛ فالاربعون بكلّ سنواتها قـــد مَرَّت وانقضت، وصار شاعرنا « اخـــا خمسين » .

واشهَرُ بيـــت في هذا المضمار قول عـــوف بن مُحَلِّم الخزاعـــيّ (عبّاســـــي) (٢) :

إنَّ الثمانـــين ـــ وبُلِّغْتُهـــا ـــ قـــد احْوَجَتْ سمعي الى تَرْجُمانْ

ومَن عَـــرَفَ طريقة العرب في البيـــان ادركَ ان الشاعر هنـــا لا يريد ثمانين سنة على وجـــه التحديد والتخصيص ، لا يتجاوزهـــا ، ولكنّه اراد العقد بمجموع سنواتـــه ، فهو في « الثمانين » بين ادنـــى سنواتها و « راسهـــا » .

وقد ذكرنا أن هـــذه العقود قد تُجَرَّد من الألف واللام في الشعر بخاصة اذا دلّـــت القرينةُ على ذلك . ومِنْ اطرف ما نَسْتَشْهِد بـــه على ذلك ، واعذَبِـــه ، وأنفَسِه ، قول المُلَّـــيّ (٣) :

ولقـــد قالـــتْ لِأَتْـــرابٍ لهـــا كأُلَّهـــا يَلْعَبْـــنَ في حُجْرَتِهـــا

« خُذْنَ عنّي الخِلَّ ، لا يُفزِعُني » ومَضَـــتْ تسعى الـــى قُبّتِهـــا

بِنْتُ عَشْرٍ لـــم تُعانِـــقْ رَجُـــلاً صُـــوِّرَ البَـــدْرُ على صورَتِهـــا

ولقـــد قَبَّلْـــتُ فاهـــا قُبْلَـــةً كِـــدْتُ أُلْقَـــى اللّـــهَ من لَذَّتِهـــا

ولا أُحِـــبُّ لنفسي ولا لِغَيري ان نَعْتَسِـــف الطريق ونَقْتَحِم الكلام بغـــير دليل ، ولكنَّ الجـــوَّ يوحي بان الشـاعر لم يقصد الـــى تحديد سنّ

---

(١) ديوانه : ١٤٨ ، تحقيق الدكتور محمـــد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٢ م .

(٢) ترجمته في فوات الوفيات ، رقم : ٣٤٠ ، والبيت من شواهد النحو في اعراب الجمل .

(٣) من ابيات اطّلعتُ عليهـــا في مخطوطة كتاب نوادر الهجري ، في مكتبـــة استاذنا محمود محمـــد شاكر .

العاشرة ، وإنْ كـــان ذلك قد جاز، ولا يزال جائزاعلى نُـــدرة نادرة ، وانما أراد هـــذه السنَّ التي تزدهر بـــين العاشرة والتاسعة عشرة ، والتي يُطلقون على مـــن كان فيها من الفتيات والفتيـــان بالانجليزية « تِيْنْ ايجرز » ، ونحـــار في اختيار كلمة عربية مقابلة لهـــا .

وبعـــد ،

فمـــن أراد طريقةَ العرب وما ساروا عليـــه في كلامهم ، فأمامه هذا الشعر المُبِـــين ، ولْيَقُل : « حَدَثَ ذلك في العشريـــن أو الثلاثين أو الأربعين من هذه المئـــة ، أو من هذا القرن » ، ولا يخافَـــنَّ اللَّبْس ؛ فنحن لا نقول : حـــَدَث ذلك في العشرين من هذا القـــرن ، ونقصدُ سنة ١٩٢٠ ، وانما نُحَدِّدُهـــا ونقول ، حدث ذلك في سنـــة عشرين ، وليس فـــي العشريـــن .

ومن أرادَ المخالفـــة عن استعمالهم الذي اِلِفُـــوه ، وأرادَ ان يُحْدِثَ كلامًا جديدا، فـــلا بأس عليه أن يجمع لفـــظ العقد فيقول : العشرينات والثلاثينـــات . وقد وَرَد في كلام العـــرب تثنية العقد :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« قال الأخفش ، اخبرني المبرّد قال : انشدني سليمان بن عبد اللـــه بن طاهر لنفسه : « وقد مَضَتْ لـــي عشرونان ثنتان » . . فقلت لـــه : ايُّها الامير ، هذا لَحْـــنٌ لان إعراباً لا يَدْخُـــل على إعراب » (١) .

وإنكارُ المُبَـــرِّد لا ينصرف الى تثنية العقد، وانما انصرف الى وجود إعرابَين : فالـــواوُ والنون للرفع في جمع المذكـــر السالم، والالف والنون للرفع في المثنّى . ولو قال : لـــي عشرينان ثنتان ، ما انكر المبـــرِّد شيئا .

واذا جازت التثنيـــة على هذا الوجه جاز الجمـــع .

امـــا ما سِوى ذلك ، كإضافة يـــاء النسبة قَبْلَ الجمع ، فشيءٌ تنبـــو عنه الاسماع ، وتمجُّـــه الأذواق ، وليس ما يدعو اليه ، مَهْمـــا يُزَيِّنه لنـــا المزيّنون بتخريجاتهـــم .

---

(١) المرزبانـــي ، الموشـــح ٣٥٧ ، المطبعة السلفية بمصر سنـــة ١٣٤٣ هـ .

تعريبُ رموزِ نظامِ الوَحدات الدَّوْليَّة

الدكتور ابراهيم بدران

١ ــ خلفيّــة عامــة

يُقصَد بنظــام الوَحدات الدولي International Units System ،

بشكلٍ عــام ومبسَّط ، ذلك النظام الــذي يتناول تعريفَ وحدات القياس الطبيعية ، وتحديدَها علــى أساس ثابت من العلاقات المــادّية والرياضية التي تَحْكُمها قوانــينُ الطبيعة . وقَبْلَ تطوير هــذا النظام كانت الدُوَلُ المختلفة (ولا يزال بعض منهــا حتى الآن) تستعمل نظــام وحدات خاصًّا بها ، تُعطيها تعريفاتِهــا ومفاهيمَها المحلّيّة التي تطوَّرت عــن النظام الاقتصادي العلمــي السائد فيها . ومن الأمثلة الشائعة على ذلك : ــ

القَــدَم Foot ــ وحــدةُ قياس الطول في بريطانيا وامريكا .

المِتْــر metre ــ وحــدة قياس الطول في فرنسا وغيرهــا .

الــذِراع ــ وحــدة قياس الطول في البلاد العربيــة (وحــدةٌ قديمة وغــيرُ علميّة) .

وبِتَطَوُّر النظام الاقتصاديّ العالميّ،وزيادةِ حجوم الاتصالات والتبادلات التجاريةَ والعلميــة والتكنولوجية ، نشأت الحاجــةُ الى وضع نظامِ وَحداتٍ دوليّ يُمْكِــنُ تعميمُه واستعمالُــه دونَ الحاجة الى معادلــةِ الوحدات المستعمَلة من بلــد الى آخر ، وما يُتبَع ذلــك من صعوبات تكنولوجية معقّــدة،وتكاليف اقتصادية باهظــة .

ومن الناحية الأستعماليّة في مجــالات التعليم والأبحاث والدراسات والتدويــن والمراسلات ، نشأت الحاجة الى وضع رمــوزٍ موحَّدة ومتَّفقٍ عليهــا للوحدات المستعملــة ، يُشْتَرَط فيها أن تُحَقِّــق الاختصار

والسهولة ، من جهـــة ، وعدمَ الالتباس ، من جهة اخرى . وقد وَضَعَتْ منظمةُ القياسيّات الدَّوْليّة

International Standards Organization (ISO)

نظاما لتعريف الوحـــدات في النظام المِتريّ ، كمـــا وُضِعَت نظام تَرْميزٍ خاص لتلـــك الوحدات .

وفي هـــذا الصدد واجهَتْ الدوائـــرُ العلمية والتعليمية والصناعية والتجارية في البـــلاد العربية مشكلتين : ــ

الاولى : تعريب هـــذه الوحدات .

والثانية : وضـــع نظامِ رموزٍ لهـــا .

وقـــد بُذِلَتْ محاولاتٌ عديدة في مجـــال التعريب ، وأُسْفَرت عن نتائجَ مُرْضِيَة نسبيًـــا ، وإنْ كانت تُعْوزُها في احيـــانٍ كثيرة الدقَّةُ والضَبْط وسهولةُ التداول اللفظـــيّ او الكتابيّ .

وفي مجالِ الرمـــوز ، وهو ما يُهِمُّنا في هـــذا البحث ، بدأَتْ المحاولاتُ المتفرّقة منـــذ العشرينات من هذا القرن ، وكـــان الطابَعُ العامّ لتلـــك المحاولات انها فردية ، أو شبه فردية ، من جهة ، وانها لم تنظر الى نظام الوحدات بكلّيته ، بل كانت تَسْتَهْدِف الكلماتِ الأكثرَ شيوعا ، ولا سيما في مجالات التعليم المدرســـيّ ، لتعطيُها الرموز « الملائمـــة » ؛ وبذلك انتشر بعضُ الرموز وشـــاع . وهي رموزٌ مقبولة ، او علـــى الأصحّ مُقْنِعَة ، اذا ما أُخِذَتْ بمفردها وعلـــى النطاق المدرسي الضيّق ، ولكنها غـــيرُ ملائمة للاستعمالات الموسَّعـــة ، ولا سيّما في مجالات التعليـــم الجامعيّ وما في مستواه .ومـــن الامثلة على ذلك : ــ

وحدة القياس (متـــــر) رمزهـــا (م) .

وحدة القياس (كيلو متر) رمزهـــا (كم) .

وحدة القياس (ثانيـــــة) رمزهـــا (ث) .

وابتداءً مـــن الخمسينات ، ومع توسُّع التعليـــم الجامعي وانتشاره في الاقطار العربيـــة ، اصبحت الحاجة اكثر الحاحا ، كمـــا هو معروف ،

الى تعريب التعليـــم ، وتعريب العلوم ، وبالتالي الـــى تعريب الرموز الخاصـــة بالوحـــدات .

لقـــد بُذِلَتْ محاولاتٌ شَتَّى في هـــذا المجال على النطاق الفرديّ، وعلى نطاق المؤسسات (مثـــل بعض الجامعات والمجامـــع اللغوية ، وعلى الأُخصّ في مصر) إلاّ انَّ طبيعـــة العمل الفردي ، من جهـــة ، وطبيعة تركيب تلك المجامـــع اللغوية ، من جهـــة اخرى ، وتَدَفُّق الكُتُب والوثائق العلميـــة والتعليمية ، وسرعة تطوّر العلـــوم ، وعدم توافر القدرة على المتابعـــة والتطوّر في المفهوم العلمي واللغـــوي ، من جهة ثالثة ، أَدَّت بكثير من تلـــك المحاولات الى نهايات مســـدودة ، باستثناءِ الرموز الخاصّة بالمـــواد الكيميائية، وقد أُهْمِلَت في العديـــد من البلدان العربية بسبب عجزها عن النمـــوّ المتقدم ، واخذ العديد مـــن المدارس والمؤسسات يستعمل الرمـــوز اللاتينية بدلاً من العربيـــة .

ومنذ عـــدّة سنوات حاوَلَت المنظمةُ العربيّـــة للمواصفات والمقاييس معالجةَ الموضوع ، ولكنّهـــا ـــ رُبَّما لنفس الأسباب السابقة ـــ وَجَدَت نفسها غير قادرة علـــى تعريب الرموز كنظامٍ متكامل مُـــرِن . واصدرت المنظمة في أوائـــل السبعينات ترجمةً عربيـــة للمواصفات القياسيـــة الدوليـــة ، أَعْقَبَتْها في تشريـــن الاول ١٩٧٤ بترجمةٍ منقَّحةٍ باســـم « المواصفات القياسيـــة العربيّة رقم (١) وحدات النظـــام الدولي ، والتوصيـــات الخاصة باستخـــدام مضاعفاتها ، وبعض الوحـــدات الأُخـــرى المعيَّنـــة » .

وصدرت الترجمـــة المنقَّحة في طبعتين : ـــ

إحداهما تَحْمِل رمـــوزا عربيّة للمصطلحات العربيـــة .

والثانية تحمل رمـــوزا لاتينيّة للمصطلحات العربيـــة .

امـــا الرموز العربيّة،فالملاحَظُ انَّ استخدامهـــا بشكل غير منهجي ادى ببعض الرمـــوز الى ان تكون بعيدة عن روح اللغـــة العربية ، او ان تكون عمليـــةُ الترميز فيها « عملية شكلية » ، بمعنـــى أن يَنْقُص

الرمـــزُ عن الكلمة الكاملة حرفـــــا او حرفين ، او ان تُترَك بعـــض الاصطلاحات دون إحـــداث رموزٍ لها على الاطلاق ، بســبـــب التعقيد الناشيء عن تركيب الوحدات بعضها ببعض ، وكما هو في المثال التالي : ــ

وحدةُ الكتلة تقاس بالكيلوجرام (الكيلوغرام) ورمزها (كجم) أو (كغم).

وحدةُ التيار الكهربائي تقاس (بالأُمبير) ورمزها (مـــب) .

وحدةُ كمية المـــادة تقاس (بالمول) ورمزها (مول) .

وحدةُ شدة الاضاءة تقاس (بالقنديل) ورمزها (قنـــد) .

وحدةُ القُدْرة تقاس (بالواط) ورمزها (واط) .

وحدةُ الطاقة تقاس (بالجول) ورمزها (جـــل) .

وحدةُ كثافـــة التدفق المغنطيسي تقـــاس

(بالتســـلا) ورمزها (تســـلا) .

وحدة الحثّ تقاس (بالهنري) ورمزها (هنـــري) .

وحدة الفيض الضوئي تقاس (باللومن) ورمزها (لُمـــن) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

امـــا عن استخدام المضاعفات ، فـــان نظام الترميز الذي اقترحَتْه المنظمة العربية لـــم يَصْلُح للعمل ابـــدا ؛ وهذه امثلة منه : ــ

كمية الطاقـــة (كيلو جول) ورمزها (كيلو جل) .

كمية الطاقـــة (ميغا جول) ورمزها (ميغا جل) .

الكثافة الحجميـــة للشحنة ورمزها (ميكرو كمب/م٣) .

وهكذا نُلاحِظ انـــه في الوقت الذي رُمِّـــز الى الكيلو في وحدة الكيلو غرام بالرمـــز « ك » ، فانه لم يستطع ان يستعمـــل نفس الرمز في وحدة كميـــة الطاقة ، وتحوَّلَ الرمز الـــى الكلمة الكاملة . واما رَمْزُ الكثافة الحجمية للشحنة فواضح انـــه « نصف رمز » ، اذا صحَّ التعبير .

امّـــا عند استخدام الرموز اللاتينيـــة للمصطلحات العربية ، فـــان نظام الترميز القائم علـــى منهجية معيّنة ، مرتبطة باستخـــدام الحرف اللاتيني ، استطـــاع ان « يُثْبُت » ، وان يبدو غـــير متناقض مع نفسه . الا انـــه، بطبيعة الحال ، غير مقبول لعدم صلته باللغـــة العربية ، كما هو موضّح في المثـــال التالي : ـــ

وَحدة الطول تقاس بالمتـــر ورمزها (m)

وَحدة الزمن تقاس بالثانيـــة ورمزها (s)

وَحدة الزاويـــة المستوية تقاس بالزاويـــة

الدائـــرة ورمزها (rad)

وحدة القـــوة تقاس (نيوتن) ورمزها (N)

شدة المجـــال الكهربائي تقـــاس

(بالفولط / متـــر) ورمزها (kv / m)

ومنـــذ عدّة اشهر شَرَعت المنظمـــة العربية للمواصفات والمقاييس بمراجعـــة الترجمة المذكورة ، لتحديثهـــا وتنقيحها علـــى الأُسُس السابقـــة عينهـــا .

٢ ـــ تقييـــم العمـــل

رغـــمَ الجهود التي تبذلها المنظمـــة العربية للمواصفات والمقاييس في هذا المجال ، ورغم اهمية الموضوع ، فان اختيار الرموز العربية بشكل غير منهجي ودون رؤيـــة واضحة للموضوع باكملـــه ، وكذلك دون محاولة لتطوير مفهـــوم الحرف ووظيفته شكلا ومضمونـــا ، ادّى ، ويؤدّي الى طريـــق مسدود . وكذلك كـــان اختيار الرموز اللاتينية للكلمات العربيـــة ، وهي هنا الوحدات المعرَّبـــة ، يبدو في نظرنا غير صحيح وغير علمـــي ، لاسباب كثيرة ، اهمهـــا : ـــ

١ ـــ صعوبة استعمال الرمـــز اللاتيني في سياق الكتابـــة العربية ، سواء في الكتابـــة ام في الطباعـــة .

ب ــ ارتباط استعمال هــذه الرموز بالمستوى التعليمي ، مــن حيث ضرورة معرفة الأحــرف اللاتينية نُطْقًا وكتابةً؛وهــذا يتعذّر في كثير من الاحيان علــى تلاميــذ المدارس الابتدائية ، في حــين أنَّ تثبيت الرمــوز كجزءٍ اساسيّ من التفكــير العلمي ، يتطلب استعمال هذه الرمــوز في المراحل الاولى للدراســة ، وبشكل تدريجــي ومتنــام .

ج ــ ان اختلاف اللغــة العربية جُذْريًّا عن اللغــات الاوروبية ، سواء بأصولها اللاتينية أم السلافيــة أم الاغريقية ، يجعل من عمليــة الترميز بأحرفٍ غــير عربية عمليةً على قــدر من الافتعال ، وعدم التناسق مع التوجــه الذهني الذي تفرضه اللغــة .

د ــ ان الرموز العلميــة يجب ان لا يُنْظَر اليها كمــادة للتداول فقط في أوساط أو شرائح علميّــة معيّنة ، بل إنّ طبيعة العصر والتقــدّم التكنولوجي،وتَشَــارُك المستويات التعليمية المختلفــة بالعمليات الانتاجية على مختلــف انواعها ، يجعل مــن الضروري أن تكون الوحدات المستعملــة برموزها واشكالها مفهومــة ومتروءة ، ليس لدى الجامعيين فقط ، بــل لدى الفنيين المتوسطين وشبــهِ المَهَرة كذلك ، اضافةً الــى الانسان العادي . وهــذا لا يتأتّى حين تكون الرمــوز المستعملة غريبة عن اللغــة المحلّية .

هـ ــ ان التطوّر العلمــي المرتَقَب خلال السنين القادمــة يُنبىء عن تزايد المعرفة العلميــة والتكنولوجية ، وبالتالــي تَزايُد الحاجة الــى الرموز ، سواء في الوحدات أم في المــواد الكيميائية ، أو الرياضية أو الطبيعية أو غيرها . ومثل هــذا التزايُد لا يمكن أن يواجَــه الا من خلال نظــام للتعريب يَسْتَنِد كُلّيًّا الى الجذور الأساسية للُّغــة .

٣ ــ المفهــوم النظري للترميــز

يقوم الترميز أساســا على اختيار رموز ، علــى صورة اشكال معيَّنة متَّفَق عليهــا ، أو حروف لغوية (وهــي بطبيعتها اشكال مُتَّفَــق

عليهـــا) تُخْتَصِر الحجم والزمن اللازمَين للدلالة على المرموز لـــه ، وفي نفس الوقت تكون قابلـــــةً للاستعمال في مواقع متنوعـــة ، تبتدىء بالكتابة المُسْهَبـــة ، وتنتهي بالمعادلات الرياضيّة.وكذلـــك ينبغي أن تكون مُرنـــةً مرونةَ الارقام الرياضية عينهـــا ، لانها تُعبّر في كثير من الاحيان عن القيم الفيزيائية للكمّيـــات الرياضية . وما لـــم يتوافَرْ في الرمز مِثلُ هذه الخصائص ، فسيظل الرمـــزُ عاجزا عن تحقيق الغرض الذي انشىء مـــن اجلـــه .

ومن هـــذا المنطلق كان اختيارُ الرمـــز اللاتيني (او الياباني اذا شئت) يُعْتَبَر اختيـــارًا غير صحيح بالنسبة الى اللغـــة العربية .

على انَّ مرونـــة الحروف ذاتها وقابليّتَها للتشكيـــل تلعبان دورا كبيرا في امكانيـــة ملاءمة هذه الحروف لاغراض الترميـــز .

٤ ــ الاساسيات التي يقـــوم عليها نظام الترميز بالعربيـــة

لقـــد كانت صعوبةُ التصرُّف بالحرف العربـــي واحدةٌ من الاسباب الرئيسية التي دفعـــت العاملين في المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ، وغيرَهم من المشتغلين بالتعريـــب ، الى التراجُع عـــن استعمال الرموز العربية بعد ان استنفدوا الرصيـــد المعروف من الحروف ، وهـــــو لا يتجاوز في الاحوال الماديّة الملائِمـــة للاستعمال عشريـــن الى خمسة وعشرين حرفـــا ، لا تكاد تغطّي جزءا من نظـــام الوحدات الكامل .

ومن ناحية ثانيـــة ، اذا نظرنا الى الرموز الدوليـــة ، او الرموز المستعملة في بعض الـــدول ، ولا سيما في اوروبا وامريكا ، نجـــد ان الامكانيـــة العددية للأبجديـــة اللاتينية تصل الى اضعـــاف الامكانية العددية للأبجديـــة العربية ؛ عِلْمًا بأن عـــدد الاحرف الابجدية في معظم هذه اللغات يكـــاد يكون متقاربا .

يعود هـــذا الفرق بين الامكانيات اساســـا الى توافُر شكلَـــين للحرف في اللغات اللاتينية ، وهما الحرف الكبير والحرف الصغير (M, m) ،

على سبيل المثـــال) . ومع انه يتوافر اكثر من شكل واحـــد للحرف العربي (ونعني بذلـــك الاشكال الاولى والوسطى والاخيرة) فـــان طبيعة تكوين الاشكـــال الوسطى والاخيرة ، او الاولـــى ، بالنسبة الى بعض الحروف ، تَمْنَـــع في كثير من الاحيان مـــن استعمال هذه الاشكال بصورة مستقلّة ، كمـــا في الحروف الاوروبية . ان استعمال حرف النون ، على سبيل المثـــال ، هو اكثر ملاءمة حين تكون النـــون مستقلة ، اي على شكل (ن) في حـــين ان شكلها في الابتداء او الوســـط كثيرا ما يكون غير متميّز ، او يدعـــو للالتباس او الاختـــلاط . فعلى سبيل المثال ، اذا اخذنا حـــرف (النون) في العربيـــة مرة اخرى ، وحـــرف (N) بالانكليزية ، وَجَدْنا لدينـــا الاشكال التالية : ـــ

ن ڈ ڹ

n N

يضاف الى ذلـــك استعمال الاصول اللاتينيـــة او الاغريقية للحروف الاوروبية الحاليّة ، وهـــي كَشَكْلٍ او رمز تتميَّز عن الشكـــل الحالي للحـــرف الاوروبي ، وبالتالـــي تزيد من امكانية نظـــام الترميز . مثـــال : 𝒜 , B, b, R, r, ℛ A, a, 𝒶

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا كـــان تعريب الرموز الحالي يتضمَّـــن الأساسيات التالية : ـــ

ا ـــ تسمية الحروف العربيـــة بشكلها المستقلّ حروفـــا كبيرة (مثال : ا ، ب ، ج ، د .. الـــخ) .

ب ـــ تسمية الحروف العربيـــة بشكلها عند الابتداء بحروف صغـــيرة (مثال : بـ ، سـ ، صـ ، فـ ، يـ .. الـــخ).

وفي محاولة لاعطاء شكـــل الحرف عند الابتداء نوعـــا من الاستقلال ، اقترحنـــا اضافة حركة صغيرة الـــى آخره نسميها هنـــا « حركة الاستقلال » ، ليصبح علـــى النحو التالي : ـــ

(مثال : بـ ، سـ ، فـ ، الخ) . (انظر اللوحة رقم ١) .

ج ـــ تحقيقا لزيـــادة سعة نظام الترميز ، ولا سيمـــا عند استعمال المعادلات المتضمنة للكثير مـــن الرموز والمتغيرات ، مِـــن الممكن

« اضافة حركة » الـــى الحروف الكبيرة ، مشتقّـــة من انماط الكتابة العربيـــة ، وفي الوقت عينه تعطيها طابَعـــاً متميّزًا يماثل اشكال الاحرف المائلـــة في اللغات الاوروبية (مثال : س ، ص ، ط ، ظ ، ي ، ع ، ح ...

انظر اللوحة رقـــم (٢) .

ونسمي هـــذه الحركة هنا « حركـــة التميُّز » .

وبهذا يمكن تحقيق سَعَـــةٍ كبيرة للأبجدية العربية في مجـــال الرموز ، تكفي عندمـــا تُسْتَخْدَم استخداما منهجيًّـــا صحيحا لتغطية الاحتياجات المطلوبة ، عـــن طريق الاستعمال المفـــرد والمركّب والمتضاعـــف .

د ـــ استعمال الحَرْف الصغير للدلالة علـــى الوحدات العامة ، وغـــير المأخوذة عـــن أسماء أعلام مثل : ـــ

الشحنة الكهربائية ، ورمزها (شـ) .

الازاحة ، ورمزها (شـ / مـ ٢) .

الزمن مقاس بالثانية ، ورمزه (ث) ... الـــخ .

هـ ـــ استعمال الحروف الكبيرة أو الحـــرف الاعتيادي متّصلاً مع حـــرف كبير ، للدلالـــة على الوحدات المشتقّة مـــن اسماء أعلام ، مثل : ـــ

وَحدة الطاقة « جول » ، ورمزها (ج) .

وَحدة الجهد الكهربائي « فولت » ، ورمزها (ف) .

وَحدة التيار الكهربائي « أمبير » ، ورمزه (أ) .

وَحدة كمية الكهرباء « الكولمب » ، ورمزه (كب) .

وَحدة المنافذة « هنري » ، ورمزها (هن) .

وحدة المسامحة « سينمس » ، ورمزها (سيم) ... الخ .

و ـــ الوصول الى الوحدات المركّبـــة من خلال استعمال اشـــارات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الضَرب والقسمة الاعتياديـــة ، كما هو في المعادلات الرياضية .
مثـــال ذلـــك : ــ

كثافة التيّار الخطي « امبير لكـــل متر » ، ورمزها : (ا /م) .
العزم الكهرو مغناطيسي « امبير مضروبا بالمتر المربـــع » ،
ورمـــزه : (ا / م٢) .

الممانعة وهي مقلوب الهنري ، ورمزها : (هنـ١) ... الخ .

٥ ــ انواع الوحدات المعرَّبـــة

١ ــ الوحـــدات الأساسيّـــة :

وتشمـــل الوحدات الفيزيائية ، التـــي تُعْتَبَر الوحداتُ الاخرى جميعها مشتقة منها ؛ وهي ثمـــانٍ اساسيّة واثنتان مكملتان لهـــا ؛ وهذه تشمل وحداتٍ مشتقَّةً مـــن اسماء اعلام ، ووحداتٍ ليســـت كذلك ؛ وتُبَيِّن اللوحة رقم (٣) الرموز المعرَّبة للوحـــدات الاساسية . ويلاحَظ ان الرمزَين الدارجَين للمتـــر والكيلو غرام هما علـــى التوالي (م) و (كغم). ورغم أن هـــذه الرموز مقبولة باعتبارها قائمـــة بذاتها ، الا انـــه يجب تغيير الحروف الكبيرة فيهـــا الى حروف صغيرة ، لكي تتبـــع النظام المقترح وتصبح (م و كغم) .

٢ ــ الوحـــدات المشتقَّـــة : ــ

وهـــذه الوحدات يُعَبَّر عنها جُبْرِيـًّا بدلالة الوحدات الاساسية ، او الوحدات المكملـــة . ويمكن التعبير عـــن رموزها بالعلامات الرياضيـــة المعتادة . على سبيل المثال :
تقاس وحدة النظام الدولي للسرعة بالمتـــر لكل ثانية .
ووحدة النظام الدولي للسرعة الزاوية بالزاويـــة المستوية لكـــلّ ثانيـــة .

ورموزها في نظام الترميز المقترح هي م / ث ، مس / ث .
بينما كانت الرمـــوز التي اقترحَتْها المنظّمة العربيـــة للمواصفات والمقاييس هـــي :

m/s rad/s على التوالي .

كذلك نجـــد في الوحدات المشتقّة اسمـــاءٌ خاصّة لهذه الوحدات ، تتطلّب ايجـــاد رموز لها لكي يمكـــن اختصار كمية الرموز عنـــد استعمال الوحـــدات الاساسية للدلالة على الوحـــدات المشتقة .

والوحدات المشتقّة تتضمـــن العلوم الاساسية ، وهي : الكهرباء ــ الضوء ــ الصوت ... الـــخ ، كما هو فـــي اللوحة رقـــم (٤) .

تبيِّن اللوحة رقـــم (٥) الوحدات الكهربائيـــة الاساسية والمشتقة في الكهربـــاء . وقد ذُكِر تعريف الوحـــدة واسمها ورمزها العربـــي المقترح . ويلاحَظ ان نظـــام الترميز الجديد سهل الاستعمال ، وغـــير مسبِّب للالتباس . وقـــد وُضعنا الرمـــز بالحروف اللاتينية للمقارنة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ــ الوحـــدات المركَّبـــة : ــ

وهـــي الوحدات التي تتألف مـــن تركيبات متنوّعة من الوحدات الاساسية والمشتقّـــة ، عن طريق ضرب هـــذه الوحدات او قسمتهـــا . مثال ذلك : ــ

وحدة العزم ، وهي نيوتن مضروبا بالمتر ، ورمزها (ن . م) اللزوجة الديناميكية ، وتساوي بسكال مضروبا بالزمن ، ورمـــزه (بس . ث) .

وبالرجوع الـــى اللوحات (٦ ــ ٧ ــ ٨ ــ ٩ ــ ١٠ ــ ١١) نجـــد الرموز العربيـــة المقترحة لمختلف انـــواع الوحدات في العلـــوم الاساسية الطبيعيـــة .

(**ملاحظـــة** : إنَّ تعريب الوحدات ليس من عمـــل الكاتب .
ولديـــه بعض التَحَفُّظات على بعض هـــذا التعريب) .

٤ ــ المضاعفـــات : ــ

تُسْتَخْدَم في النظـــام الدولي مجموعة من البادئات لهـــا اسماؤها ورموزهـــا ، وتَتَكَوَّن من مضاعفات وأجزاء عشرية . والنظام الدَّوْلـــيّ يُفْتَرِض ان يكون رمـــزُ البادئة مُتَّحِدًا مع رمـــز الوحدة المتّصل بها مباشرة ، لتكوين رمـــز وحدة جديدة يُمْكِن رَفعُها الـــى أُسٍّ موجِب او ســـالب،يمكن ان يَتَّحد مع رموز وحـــدات اخرى . مثال ذلك : ــ

البادئة سنتي ، ورمزها باللاتينية (c) والعربية (سـ) .

الميكرو ، ورمزها باللاتينيـــة (u) والعربية (ميـ) .

النانو ، ورمزها باللاتينيـــة (n) والعربية (نـ) .

وتُبيِّن اللوحة رقـــم (١٢) أسماء البادئات ورموزهـــا اللاتينية والعربيـــة ، وقيمها الرياضيـــة ؛ ومثالا علـــى استعمالها بنظـــام الترميز المقترح .

٦ ــ استنتاجـــات

إنّ احرف اللغـــة العربية ، من حيث الأُساس ، صالحةٌ لاستخدامها في وضع نظام رمـــوز متكامل للوحدات الدولية . وهـــي ، اذا أُدخِل عليها بعضُ الاضافات او التعديـــلات البسيطة ، يُمكِن ان تُعطِي الحـــرف العربي مرونة كافيـــة في التطبيقات العملية ، ســـواء المكتوبة منها ، ام المقروءة،ام المتداولة لفظـــا . إنّ ادخال « حركة الاستقلال » و « حركة التَمَيُّز » على صورتَي الحـــرف العربي الصغير والكبير علـــى التوالي ، يُمكِّن من استعمال هـــذه الاحرف في المجالات العلميـــة المختلفة دون ان تكون هناك فرصـــــة للالتباس أو الغموض . ان حركتـــي الاستقلال

والتَمَيُّز مشتقّتان مـــن أنماط الخطوط العربيـــة ؛ فهي ليست غريبة او مفتعلة . ويمكـــن اضافتها كتابة وطباعـــة بسهولة واضحة .

إنّ نظام الترميـــز المقترح يفي،في راينـــا،بمتطلبات الرموز حسب النظـــام الدولـــي .

٧ ــ مَراجـــع :

١ ــ المنظمة العربيـــة للمواصفات والمقاييس ، المواصفـــات العربيـــة / القاهـــرة .

2. International Organization for Standards
SI Units,
Geneva, Switzerland

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة رقم (١)

الحروف الاعتيادية والحروف المستقلة المقترحة بإضافة حركة الاستقلال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحسنة أن الحركة الاعتيادية التي أُلحقت على الحرف الصغير ،

« حركة الاستقلال » ، مضافةً هنا على الحرف الطبيعي .

لوحة رقم (٢)

الأحرف الاعتيادية، والأحرف الكبيرة المتميزة، بإضافة حركة التمويز

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ

ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ

و ي

و ي

الجدول (٢)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوحدة رقم (٤)

الطرق الطبيعية التي تمكنه وحداتها في هذا البحث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE

ARCHIVE

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

احداث بلاد طرابلس الشام

١٠١٥ هـ / ١٠١٦ هـ
١٦٠٦ م / ١٦٠٧ م

للدكتور عدنان البخيت

بُعَيدَ نهاية القرن السادس عشر الميلادي بدأت السلطنة العثمانية تعاني من اسباب الضعف والانحطاط (١) ؛ ومن مظاهر هذا الضعف كثرة حركات العصيان التي أصبحت تلفّ مختلف الولايات العثمانية، حيث كان من ابرزها الحركة الجلالية التي اكتسحت بلاد الاناضول، مستغلّةً المظالم الاجتماعية التي كانت قد لحقت بِريف تلك الهضبة (٢). ولم تكن هذه الحركة لِتَمُرَّ دون ان تترك لها أثرا على المناطق الشامية، خاصّةً المحاذية لها كحلب وبلاد طرابلس الشام (٣) . ولعلّه من المفيد

---

(١) حول اسباب ضعف الدولة العثمانية في أواخر القرن السادس عشر انظر :
Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, 2nd edition, Oxford University Press, 1968, pp. 21 - 39, Inalcik, Halil, The Ottoman Empire: The Classical Age 1300 - 1600, Weidenfeld and Nicolson, London, 1973, pp. 41 - 52.

(٢) حول الحركة الجلالية انظر دراسة :
Mustafa Akdag, Turk Halkinin Dirlik Ve Duzenlik Kavgasi, Bilgi Yayinlari, Ankara, 1975.

وكذلك رسالة
Griswold, W. J., Political Unrest and Rebellion in Anatolia 1605 - 1609 Ph. D. Thesis, University of California, Los Angeles, 1966.

(٣) حول هذا الموضوع : انظر مزيدا من التفصيلات في الترجمة التي أوردها حسن ابن محمد البوريني (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) لعبد الحليم اليازجي « الباغي الخارجي » (ت ١٠١٠ هـ / ١٦٠١ م) ، تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، م ٢ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، م ٢ ، ص ٢٥٩ ــ ٢٧٠ ، كذلك انظر : المحبي ، محمد أمين (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩ م) ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ م ، تصوير دار صادر بيروت ، لا . ت ، م ٢ ، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٤ .

هنا ان نتذكّر ان السُلْطنة العثمانية،انسجاما مع سياستها التقليدية (٤) ، لم تُلْغِ الزعامات المحلّية المتعاونة معها في بلاد الشام بعد ضَمّ هذه البلاد الى الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الاول،بعد معركة مرج دابق (٢٥ رجب ٩٢٢ هـ / ٢٤ آب ١٥١٦ م) ، اذ ان معظم هذه الزعامات حافظت على وجودها مُستكينةً بإذْعان قوّة الدولة ضمن الاطار العثماني . الا أنها بدات تتحرّك في الربع الأُخير من القرن السادس عشر،لتُوَسِّع من دائرة نفوذها على حساب السلطة العثمانية المحلّية ، ولكنْ ليس بقصد الاستقلال عن السلطنة العثمانية . ولقد استفادت من انشغال الدولة العثمانية في حروبها الطويلة المستديمة على الجبهتين الصفوية والنمساوية،بالاضافة الى الخسائر التي تكبّدها العثمانيون في اخضاع حركات التمرّد والعصيان في اليمن وفي غيرها (٥) من بلدان سلطنتهم . كما انه كان قد تَرَتّب على انتصار تحالُف البابوية واسبانيا والبندقية في معركة ليبانتو Lepanto البحرية،في السابع من تشرين الاول سنة ١٥٧١ م،أن قوّة الدولة العثمانية البحرية،من حيث العَدد والعُدّة والنوعية والحالة النفسية، قد أصبحت دون مستوى الاساطيل الاوروبية (٦) ، وان الدول الاوروبية ، خاصة الكاثوليكية منها ، قد عاودتها من جديد الفكرة

---

(٤) انظر مقالة :

Inalcik, H., "Ottoman Methods of Conquest", Studia Islamica, Vol. II (1954), pp. 102 - 29.

(٥) انظر :

Bakhit, M. A., The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century. Ph. D. Thesis, SOAS, London, 1972, pp. 186 - 221.

(٦) حول معركة ليبانتو انظر :

Creasy, Edward S.,

Hisory of the Ottoman Turks, Reprint, Khayats, Beirut, 1961, pp. 219-22.

Inalick,H. The Ottoman Empire, pp. 41 - 42.

كذلك انظر التحليل العسكري لهذه المعركة من الناحية الحربية في دراسة :

Guilmartin JR., John Francis, Gunpowder and Galleys; Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the Sixteenth Century, Cambridge University Press, 1974, pp. 221 - 252.

الصليبية المستهدِفَة استخلاص فلسطين من أيدي المسلمين ، ولكنْ هذه المرة ليس بارسال حملات من اوروبا،بل بالاعتماد على بعض القوى المحلّية من الاقليات العِرْقيّة والمذهبيّة لتنفيذ هذا المخطط (٧) . وكان من ابرز هذه القوى الأُسرة المعنية الدرزية،والأُسرة الجانبولاطية الكردية في كلس واعزاز . ولقد وُسِّعت الاسرة الأُخيرة من دائرة نفوذها،بحيث أُنيطت ولاية حلب في مطلع القرن السابع عشر بزعيمها، آنذاك،حسين باشا جانبلاط،الذي نتيجةً لتلكُّئه في الانضمام الى حملة الوزير سنان باشا جفال زاده ضد الشاه عباس الاول (٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م ــ ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٩ م) أمر الوزيرُ المذكور بقتله في بلدة وان التركية سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م (٨) .

---

(٧) حول هذه الخطة انظر :

Salibi, K. "The Sayfas and the Eyalet of Tripoli" Arabica, Vol. xx, (1973), p. 33.

انظر ايضا لنفس المؤلف ، « فخر الدين المعني الثاني والفكرة اللبنانية » ، ابعاد القومية اللبنانية ، منشورات جامعة الكسليك ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٨٥ ــ ١١١ .

لمزيد من التفصيلات حول هذه الخطة انظر ايضا ما نشره الأبُ بولس قرالي :

١ ــ "فخر الدين الثاني وعلاقته بفردناند الاول وتزما الثاني أمير تسكانيا" ١٦٠٥ ــ ١٦٢١ ، حريصا ١٩٣٨ .

٢ ــ وكتابه الثاني "فخر الدين المعني امير لبنان وفردناند الثاني امير تسكانيا" ١٦٢١ ــ ١٦٣٥ ، حريصا ١٩٣٨ .

(٨) حسين بن جانبلاط ، كردي الاصل؛كان في ابتداء أمره من الطائفة العسكرية المعروفة باسم المتفرقة،ثم خَلَف والده في امارة كلس،وتدرّج في المناصب الى أن اوكلت اليه حلب،ولكنه تلكأ في مساندة الوزير سنان باشا في حملته الفاشلة على بلاد فارس ، وكان من نتيجة ذلك أن سنان باشا أمر بقتله في بلدة وان التركية في سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م . البوريني ، المصدر ذاته ، م ٢ ، ص ٢٧١ . انظر المحبي ، خلاصة ، م ٢ ، ص ٨٤ ــ ٨٧ .

أما سنان يوسف باشا المعروف باسم جفال زادة ، فلقد تربى في القصر السلطاني وتولّى عدة مناصب،منها ولاية ديار بكر في سنة ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م،كما تولى بعد ذلك بلاد وان وارضروم وبغداد . وفي سنة ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٧ م تولّى بلاد الشام لبضعة اشهر . في سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م ، اوكلت اليه مهمة قيادة الجيوش العثمانية ضد بلاد فارس ، وكانت وفاته في نفس العام في ديار بكر ؛ انظر ترجمة حياته في محمد ثريا ، سجل عثماني باخود تذكرة مشاهير عثمانية ، اسطنبول سنة ١٣١١ ، م ٣ ، ص ١١١ . كذلك أنظر محمد بن جمعة المقار الحنفي (ت ح ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) ، الباشات والقضاة ، نشره صلاح الدين المنجد مع نَصَّين آخرين باسم "ولاة دمشق في العهد العثماني" ، دمشق ، ١٩٤٩ م ، ص ٢٦ .

ولمـــا وصل خبر مقتله الى حلب ثـــار ابن اخيه علـــي جانبلاط، « ورفع علـــم العصيان،وجَمَعَ الطائفة الذين يقال لهـــم السكبانية حتى صار عنده منهم مـــا يزيد على عشرة آلاف،ومنع مـــال السلطنة (٩) » .في اثناء ذلك كانـــت قوات الدولة العثمانية مشغولة في حـــرب ضروس مع امبراطورية النمســـا،كما ان قوات الجلالية الخارجة عـــن طاعة السلطان كانت تصول وتجول فـــي بلاد الاناضول ؛ وكان قـــد سَبَق ذلك ان القوات العثمانية قـــد عادت خاسرة من حربها ضد الشـــاه عباس . في مثل تلك الظروف عرض الزعيـــم التركماني الاصل السنّي المذهـــب يوسف باشا سيفـــا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) صاحب عَكَّـــار ، والذي كان يُوَلَّى من حين لآخر بـــلاد طرابلس ، خدماته على السلطان،عَلَـــى « ان يكون اميرا على عساكر بـــلاد الشام،على ان تكون جمعيّته بحماة،ويلتـــزم بازالة علـــي بك المذكور عن حلب » . فلما جـــاءه الإذن السلطاني بذلك،أرسل يوسف باشا الـــى العساكر العثمانية في دمشـــق وفي غيرها من القلاع لملاقاتـــه عند حماة . وعند التقاء الجانبين تَمكَّن علـــي بك ابن جانبلاط بسهولة تلفت النظـــر من الحاق الهزيمة بالعساكـــر العثمانية بقيادة يوســـف باشا سيفا،الذي تَوَجَّه الى طرابلس الشـــام ليهرب منها بأمواله الى جزيرة قبرس،ومنها الى حيفـــا،ملتجئا الى الامير احمـــد الحارثي . ومن هناك عـــاد الى دمشق ليهرب منها الى طرابلس،مقـــرّ سلطته .

ولحسن الحظ يتوافر لدينـــا نَصّان لشاهِدَي عيان لتلـــك الاحداث . صاحب النص الاول،ويعرف باســـم مصطفى بن جمال الدين ابـــن كرامة،

---

(٩) البوريني المصدر ذاتـــه ، م ٢ ، ص ٢٧١ ، لاحظ تعريف البوريني للسكبانية حيث يقول : « والسكبانية عبارة عـــن طائفة كان وضعهم ان الواحد منهـــم يحمل البندقية على ظهره ويقـــود الكلب في ساجوره،ويمشي امـــام الامير او الكبير حين يسير الى الصيد . وهو لفـــظ فارسي مأخوذ من ســـك ، فاما سك فهو الكلـــب بلغتهم،واما بـــان فهو بمعنى الحامي،اي حامي الكلـــب » م ٢ ، ص ٢٥٩ ؛ وكانوا يشكّلـــون وحدة بارزة في فرقـــة الانكشارية.انظـــر :

Huart, CL. "Segban" E. I. , Vol. IV, pp. 203 - 4.

Gibb and Bowen, Islamic Society and the West, Oxford University Press, Reprint, 1963, vol. I, part I, pp. 59 - 61, p. 315.

من اهالي طرابلس الشـــام؛كتب تعليقة حول مـــا اصاب مدينته نتيجة لحركة علـــي بن جانبلاط ؛ والنَصّ الثاني للمـــؤرخ الدمشقي الشيـــخ حسن بن محمـــد البوريني (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) الذي يصف لنـــا دقائق تلك الاحـــداث ومجرياتها كما كان يراها من دمشـــق . والنَصّان يكملان ويُعْضُدان بعضهمـــا البعض،ومن هنا جاءت ضرورة نشرهما معـــاً، حيث انهما مـــا زالا مخطوطين .

والذي يُهِمّنا هنـــا ان التعليقة التي بين ايدينا تُصَوِّر لنـــا مشاعر احد ابناء طرابلس،قاعدة السُنَّـــة،ضمن اطار من الاقلّيات الاســـلامية والمسيحية ، كما انهـــا تبين مدى الولاء القوي مـــن جانب الرعية للسلطان،حيث انَّ مَـــن عصاه « قد اطاع الشيطان » . وتُصَوِّر لنـــا كذلك نظرة اهالـــي طرابلس ليوسف باشـــا سيفا ؛ وهي نظرة احترام، لأنّ معظم المصـــادر المتداوَلة بين ايدينا والمعروفة لدينـــا ، **كتاريخ الازمنة** للبطريرك اسطفان الدويهـــي (ت ١٦٩٩ م) **وتاريخ الامير حيدر أحمـــد الشهابي** (ت ١٨٣٥ م) **واخبـــار الاعيان في جبل لبنان** ، لطَنّوس الشدياق (ت ١٨٦١ م) ، قـــد اعتمدت المؤرخ السنّي ، الشيخ احمـــد بن محمد الخالدي الصفـــدي (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م) الذي كـــان معبّرًا عن وجهة نظر فخـــر الدين المعني الدرزي المتعاون مـــع العناصر المسيحية، خاصّة المارونيـــة منها ؛ بينما يوسف باشا سيفـــا ، كان سنّيًا ينعم بثقة ودعم الدولة العثمانية لـــه ، رُبّما الى درجة ان السكـــان كانوا ينظرون اليه على انـــه رجل الدولة ووكيلها (١٠) . كما ان هـــذه التعليقة تُبَيِّن

---

(١٠) حول مكانة اسطفان الدويهي وطنوس الشدياق في مدرســـة التاريخ اللبناني الماروني انظـــر :

Salibi, Kamal, Maronite Historians of Medieval Lebanon, Beirut, 1959, Ibid., "The traditional Historiography of the Maronites", Historians of the Middle East, edited by Bernard Lewis and P. M. Holt, Oxford University Press, 1967, pp. 212 - 225.

انظر في نفس الكتاب مقالـــة
A. H. Hourani, "Historians of Lebanon" pp. 226 - 245.

حول اهميـــة دور اسرة آل سيفا في التاريخ المحلـــي وعن علاقاتها مع القُوى المحلّية

لنـــا ان قسـما من اهالي طرابلس الشـــام كانوا قد هُجّروا مدينتهـــم وركبوا البحر،لعلمهم ان القـــوى المهاجمة هي قوى عاصيـــة خارجة على طاعة السلطان ، خاصـــة وان قسما منها كان درزيـــا بقيادة فخر الدين المعنـــي . ومما زاد في حراجة موقفهـــم،ان ذلك جاء في الوقت الذي كانت فيه الدولة مشـغولة فـــي اجتثاث الجلاليّة،ومشتبكة في حرب مع النمسـا ، بالاضافة الى هزيمـــة العثمانيين امام الشاه عبـــاس الاول،وما ترك ذلك من خيبة ومرارة . فلـــم يعد لدى سُكّان طرابلس من حيلـــة الا الهروب الى اقـــرب الجزر .

يُعرِّف صاحب هـــذه التعليقة نفسه بايجاز كبـــير حيث يصف نفسه بقوله : « ... العبـــد الفقير مصطفى بن جمال الدين المدعو بابن كرامة ». وعند العودة الـــى مخطوط **لطف السمر وقطف الثمـــر من تراجم الطبقة الاولـــى من القـــرن الحادي عشر** (١١) ، لنجم الدين محمـــــد الغزي (ت ١٠٦١ هـ / ١٦٥٠ م) والقسم غـــير المنشور من **تراجم الاعيان مـــن ابناء الزمان** (١٢) ، للحسـن بن محمد البوريني ، (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) ، **وخلاصة الاثـــر في اعيان القرن الحادي عشر** لمحمـــد امين الدين المحبي (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م) ، **وشذرات الذهب في اخبـار من ذهب** لعبـــد الحي بـــن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) فاننـــا لا نعثر على ذكـــر لهذا الشخص . زيادة على ذلك فان خـــير الدين الزركلي وعمـــر رضا كحالة لا يذكرانـــه في معجميهما . واما الرحالة رمضان بن موسى ابن احمـــد المعروف بالمطيفي الدمشقي الحنفي (ت ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م) الذي زار طرابلس الشـــام سنة ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٤ م فانـــه لا يذكر اسم

ـــ الاخرى انظـــر مقالتي الدكتور كمـــال الصليبي :

Kamal S. Salibi,"Northern Lebanon Under the Dominance of Gazir", Arabica, Vol. XIV, (1967), pp. 144 - 166.

"The Sayfas and the Eyalet of Tripoli 1579 - 1640", Arabica, Vol. XX, (1973), pp. 25 - 52.

(١١) مخطوط المكتبـــة الظاهرية رقم ٤١ ، الاوراق ١٦٨ ـــ ٢١٧ .

(١٢) المكتبة الوطنية،نيّـــا Cod. Arab. 1190 Mixt 346

هذا الشخص من ضمن العلماء الذين قابلهم في اثناء اقامته في طرابلس (١٣).

الا ان الشيخ والقطب الصوفي عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م) يذكر في **التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية**، التي دَوَّن فيها اخبار رحلته في سنة ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ م الى طرابلس ، أنّ مِن بين من لقيه « ... الشيخ الفاضل والبارع الكامل الشيخ علي بن كرامة »، ويذكر في مكان آخر ان عليّ بن كرامة قد زاره : « فزارنا في هذا اليوم ايضا عدّةٌ من الأفاضل المكرّمين والعلماء المدرّسين، منهم الشيخ الفاضل حاوي الفضائل الشيخ علي بن كرامة » . ويضيف ان عليًّا هذا قد زاره مرة ثالثة (١٤) . وعند العودة الى كتاب **تراجم علماء طرابلس وادبائها**، لعبد الله حبيب نوفل (ت ١٩٤٧ م) ، لا نجد ذكرا لمصطفى بن جمال الدين بن كرامة هذا، بل لافراد آخرين كعمر بن مصطفى ابي اللطف (ت ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م) ومصطفى بن عبد الحميد كرامة (١٥) . واذا ما رجعنا الى التعليقة نفسها فاننا نلمس، من ثناياها ومن لفتها ، ان مصطفى هذا كان على مستوى جيّد من حيث تَمَكُّنه من اللغة العربية ، وان له ولدا اسمه عمر ، وَقَعَ معه في الاسر ؛ وما عدا ذلك فان المعلومات التي يوردها عن نفسه تكاد تكون شبه معدومة .

---

(١٣) انظر نص الرحلة مع الدراسة التي قُدِّم لها بها ناشر الرحلة

Stefan Wild "Al-Utaifis Journey to Lebanon in 1043/1634"

مجلّة الأبحاث ، بيروت ، مجلد (٢٣) سنة ١٩٧٠ ، ص ٢١٣ ــ ٢٢٢ .

لسوء الحظ عند إعداد هذه الدراسة لم اتمكن من الاطلاع على نسخة رحلة يحيى المحاسني (ت ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م) ، "المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية"، المحفوظة في مكتبة جامعة اسطنبول تحت رقم ٤٣٢٩ .

(١٤) انظر النابلسي ، الشيخ عبد الغني (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م) ، "التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية"، حققها وقدّم لها هربرت بوسة ، بيروت ، ١٩٧١ م ، ص ٤٩ ، ص ٧٦ ، ص ٨٧ .

(١٥) نوفل ، عبد الله حبيب ، "تراجم علماء طرابلس وادبائها"، مطبعة الحضارة ، طرابلس ، ١٩٢٩ م ، ص ٣٥ ، ص ١٣٧ ــ ١٣٨ .

ان هذه التعليقة المصنَّفة ضمن مجموعة Levinus Warner (١٦) ، (ت ٢٢ حزيران ١٦٦٥ م) ، قنصل هولندا في اسطنبول ، مسجَّلة في مكتبة جامعة ليدن تحت رقم (١) Cod. Or. 944 (١٧) ، وهي تقع في اربع ورقات،ومجموع أسطُرها مائة وأربعة وسبعون سطرا مكتوبة بخط اعتيادي ، ومدونة بتاريخ ١٠١٦ هـ / ١٦٠٦ م ، وعلى الأرجح انها النسخة الأُمّ،حيث لم أعثُر على اية اشارة اخرى عنها في بقية فهارس المخطوطات المنشورة،وعلى الغالب انها وصلت فارنر باسطنبول عن طريق حلب،بواسطة محمد بن عمر العرضي الحلبي (ت ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م) ، الذي كان قد اتصل بفارنر، وكان يشتري له المخطوطات العربية ويُزوِّده بها (١٨) ، او عن طريق فردريك اخي

---

(١٦) ليفنوس فارنر Levinus Warner ، من طلبة جامعة ليدن، درس اللغات الشرقية فيها ، وسافر الى اسطنبول سنة ١٦٤٥ م . وفي سنة ١٦٥٥ م عُيِّن قنصلا لهولندا في العاصمة العثمانية ، وبقي في ذلك المنصب الى حين وفاته في ٢٢ حزيران سنة ١٦٦٥ م . واثناء اقامته الطويلة تلك تمكَّن من شراء عدد كبير من المخطوطات العربية والفارسية والتركية والعبرية التي اوصى بها قبل وفاته لمكتبة جامعة ليدن،لتكون بذلك النواة الاولى لمقتنيات تلك المكتبة من التراث الشرقي . حول حياته واقامته باسطنبول انظر بمقالة

Drewes, G. W. J., "The Legatum Warnerianum of Leiden University Library" in Levinus Warner and His Legacy, E. J. Brill, Leiden, 1970, pp. 1 - 31.

(١٧) انظر فهرس مكتبة جامعة ليدن Voorheove, P.

Handlist of Arabic Manuscripts in the Library of the University of Leiden and Other Collections in the Netherlands, in Bibliotheca Universitatis, Lugduni Batavorum, Leiden, 1957, p. 361.

(١٨) محمد بن عمر العرضي (ت ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م) نسبة الى بليدة العرض في برية الشام من اعمال حلب ، من اسرة حلبية معروفة بالعلم ؛ ولي القضاء بحلب،وتولّى افتاء الحنفية فيها لمدة سنتين ثم سافر الى اسطنبول حيث لم يستمرىء الاقامة هناك،وبعد عودته من العاصمة العثمانية نجده يتولى افتاء الشافعية بعد وفاة اخيه . ونعثر على رسالة منه لفارنر؛ونظرا لاهميتها فاننا نورد نصها :

« حضرة بكر مطارد وواحد الفرائد (نلاحظ انه يكرر مثل هذين التعبيرين حيث يورد له المحبي نصا يذكر فيه ... « حضرة شيخ الاسلام ودرة تاج الملك

فارنر، الذي كـــان قد عمل لفترة قصيرة كقنصل لهولندا في حلـــب (١٩) ، ممّا يدلّ علـــى ان فارنر كان على اتصال بحلـــب ، على مستوى النشاط التجاري ، وكذلك على مستوى تُجّـــار المخطوطات التي شُغِف بشرائها .

تعليقة مصطفى بـــن جمال الدين بن كرامة حول احـــداث سنة ١٠١٥ هـ / ١٠١٦ هـ ١٦٠٦ م /١٦٠٧ م .

= ونص الختام بكسر مطارد العلم وثاني الفرقد » ... خلاصـــة ، م ٤ ، ص ٩٣ ، ايلجي (السفير) بيك المكـــرم لا زال مدعي العلم لـــه مسلم ، نفاوض جنابـــه الترحاب (كـــذا النص) . هو أن الواصل اليكم من كتـــــب المرحوم كاتب چلبي (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) ستة كتـــب ، نزهة الخاطر للكاشي،وهـــو كتاب جليل مشتمل على اشعار عربيـــة وفارسية،وثمنه اثنـــا عشر غروشا،والمجلد الاول من تذكرة ابـــن حمدون وثمنه ستة عشر غروشا،وشرح شواهـــد التلخيص (لبدر الدين الغـــزى) وثمنه اربعة غروش ونصف،وشرح مقامات الحريري ، المتوســـط للشريشي وثمنه ثلثمائـــة عثماني،وجزء من العقد لابن عبد ربـــه وثمنه غرش واحـــد،وشرح العبدونية وثمنـــه غرشان،فالمجموع خمســـة وثلاثون غرشا وثلثمائة عثماني.واما تاريخ البناكتي (محمـــد بن سليمان الاشعري (ت ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م) صاحـــب كتاب روضة اولي الالباب في التاريخ، وتاريخ ختاي،وتاريخ خسروى،ورسائل الخوارزمي، فوعدنا الدلالون بهمـــا،يكون معلوما لكم،والفتون ان شاء اللـــه نحصلها والسلام . من الفقير محمـــد العرضي ».ويضيف في حاشية على تلـــك الرسالة ما يلي : « ولا تؤاخذونا باخلاف الوعـــد بالمجيء اليكم يـــوم الاحد الماضي،فانه صار لنا مانع بـــل موانـــع.وتبلغ شوقنا الى المربـــوط في الدار بمقتضى تسميتكم نقولا والســـلام . وقد اشترينا نحن لانفسنا تاليفـــا لجدّنا ابن الحنبلي (رضي الديـــن) بمائتي عثماني فتفضلوا بها لنـــا والسلام وان شاء اللـــه عن قريب ناتيكم » . من هـــذا النص نلحظ بوضوح مـــدى العلاقة الحميمة التي كانت تربط الاثنين . انظـــر الخفاجي ، شهاب الدين احمـــد بن محمـــد بن عمر (ت ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م) ريحانة الألبّـــا وزهرة الحياة الدنيـــا ، ٢ م ، تحقيق عبـــد الفتاح محمـــد الحلو ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م ، م ١ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٨ . المحبـــي ، خلاصة ، م ٤ ، ص ٨٩ — ١٠٢ ، البغدادي ، اسماعيل بن محمـــد أمين الباباني (ت ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م) ، هدية العارفين : اسماء المؤلفين وآثـــار المصنفين ، م ٢ ، منشورات مكتبة المثنـــى ، بغداد ١٩٥٥ ، ص ٢١٤ ؛ انظر ايضـــا : اللوحة رقم ١٢ ، المنشورة صورة لهـــا كملحق لكتـــاب Levinus Warner and His Legacy,

(١٩)

Drewes, G. W. J., "The Legatum Warnerianum", in Levinus Warner and His Legacy P. 16.

تعليقة تتضمن ذكـــر أسرِنا عند الكفّار والسبب الداعـــي للفرار وما احل الله بالباغي من الويل والدمار ، والحمد للـــه الملك القهار والصلاة والسلام على النبـــي المختار وعلى آلـــه وصحبه السادة الاخيار آنـــاء الليل واطراف النهـــار صلاة تمحو عن قائلهـــا الاوزار .

« بسم اللـــه الرحمن الرحيم وصلى اللـــه على سيدنا محمـــد وعلى آلـــه وصحبه وسلم وحسبي اللـــه « ونعم الوكيل » (٢٠) . الحمد للـــه الذي وعـــد الصابرين المراتب العلية والهمهم الشكر فنالوا بـــه أعظم مزية ، واشهد ان لا الـــه الا الله وحده لا شريك لـــه شهادة تدفع عَنّا كُلَّ بَلِيَّة ، وتورثنا سعادة ابدية سرمدية ، واشهد ان سيدنا محمد عبده ورسوله القائم بأعباء الرسالة وامـــر الرعية ، صلى اللـــه عليه وعلى آلـــه وصحبه المنعوتين بمكارم الاخـــلاق والصفات البهية صلاة دائمة متوالية يتضاعف ثوابهـــا كل بكرة وعشية . امـــا بعد فيقول العبد الفقير مصطفى بن جمال الدين المدعو بابن كرامة اجاره اللـــه من الزلل والندامة:

لمـــا كان بتاريخ اوائل شهر صفر سنة خمس عشرة بعـــد الالف وقد حصل على الديـــار الطرابلسية ما هو ليس بقابل للوصف ، ورد أمـــر من ظل اللـــه في أرضه القائم بسنته وفرضه المؤتمن على حقّـــه واليد المبسوطة على خلقـــه، من احتباه اللـــه لوراثة الرسالة وجعل طاعته فريقا بين الهدى والضلالة لا دنيا الا بـــه ومعه ولا دين الا لمـــن والا (٥) وتبعه ، كافل الأمّـــة وراعيها وسايس الملّـــة وحاميها ، نظام الجملة وجلاء الغمة ورباط النعمـــة ، من عصى السلطان فقـــد اطاع الشيطان ، من شايمه حمـــد في يومه وغده ورعى من العيش فـــي ارغده ومن نابذه صار في خسران وعانقه الخذلان ، جعل اللـــه رايته العليا وآيتـــه الكبرا ، مـــا تسابح القمران (٢١) ، وتوالى الملـــوان (٢٢) ، واستقر في مكانـــه جبـــل لبنـــان .

---

(٢٠) من سورة آل عمران آيـــة رقم (١٧٣) .

(٢١) القمران : الشمس والقمر ؛ انظر جمال الدين محمـــد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ ١٣١١ م) ، لســـان العرب ، ١٥ م ، بـــيروت ، ١٩٥٥ م ، م ٥ ، ص ١١٣ .

(٢٢) الملـــوان ، الليل والنهار، وقيل طرفا النهـــار ، ابن منظور ، لســـان العـــرب ، م ١٥ ، ص ٢٩٠ ــ ٢٩٢ .

بعد ان انهي لسدّته،لا زالت الايام طوع ارادته،أنّ علـــي بن جان (٢٣) بـــولاد بفى واستغنى فطفى وركـــب اضاليل الهوى واباطيل المنـــــى واحاديث النفوس الكواذب ووســـاوس الآمال الخوابث ، جال في تيهـــه وشقائه وسفاهة عقلـــه وقلّة رايه،ودخل في ظلمـــة المعصية وخرج من نـــور الطاعة وركب المركب الذي لا بـــــد ان يترجل راكبه بل ينخذل فارسه ، مُـــدَّ يدًا قصيرة ليتناول غايـــة بعيدة ، أضلّه عماه وزلّت بـــه قدماه ، امتطى ظهـــر الاغترار واداع دواعي البوار ، اوقـــد نارا للحرب بدر منها بوادر الفتنـــة وهزرت على يـــده شقاشق (٢٤) المحنة ، فلما

---

(٢٣) علـــي بك ابن الامير احمـــد ابن جانبلاط الكردي ، ابن اخي حسين باشـــا جانبلاط ، انابه عمـــه في حلب عند خروجه لملاقـــاة الوزير السردار سنان باشـــا جنال زادة، وعندما وصله نبـــأ قتل عمه بامر الوزير المذكور رفع رايـــة العصيان في حلـــب، وكان جيشـــه المكـــوّن من عناصر السكبان الهاربين مـــن الخدمة العسكرية يزيد على عشرة آلاف شخص . ومُنع الوالـــي المعيّن على حلب من الدخول اليها ، وســـار من حلب باتجاه الجنـــوب حيث هزم العساكر العثمانية بقيادة يوســـف باشـــا سيفا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) قـــرب حماة ، سنة ١٠١٥ هـ / ١٦٠٦ م وغنم اشياء كثيرة من معســـكر العساكر الشامية ؛ وبعد هـــذا الانتصار استدعى فخر الدين الذي أجاب دعوتـــه وانضم اليه في حركة العصيان،فارســـلا واحتلاّ مناطق يوســـف باشـــا سيفا باستثناء قلعـــة طرابلس ، وخرّبا بعلبك وتوجها باتجاه دمشـــق حيث هزما عساكرها للمـــرة الثانية في نواحي المرادء ومـــن هناك اتجهت عساكرهم لتهاجم دمشق من جهة المزة،وبـــدأ افراد السكبانية والدروز - بنهب الاحياء الخارجية لمدينـــة دمشق ، ولم يرفع الحصار الا بعد أن دفعت لـــه أهالي دمشق مائة وخمسة وعشرين الـــف غرش . وفي طريق عودته مَـــرَّ على حمص الاكراد وجرت اتصالات لـــه مع يوسف باشـــا سيفا ، ادت الى عقـــد مصاهرة ما بين ابـــن جانبلاط ويوسف باشـــا ســـيفـــا ، ومن هناك عـــاد الى حلب فارسل السلطان لـــه الوزير الكبير مراد باشـــا « لأنه (أي علـــي بك) كان قد قارب أن يملك البـــــلاد بالاستقلال » وفي القتال الذي نشب قـــرب مرعش نجا علي بك جانبلاط برأســـه الـــى مدينة حلب ومنها الى بلاطية،ومـــن هناك قصد اسطنبول حيث عفـــا عنه السلطان وولاّه حكومـــة طمشوار ليُقتَل فيما بعـــد حوالي ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ . انظـــر ترجمته في البوريني ، المصدر ذاتـــه ، م ٢ ، ص ٢٧١ ــ ٢٩١ ، المحبـــي ، المصدر ذاتـــه ، م ٣ ، ص ١٢٥ ــ ١٤٠ .

(٢٤) شقاشـــق : جمـــع الشقشقة وهي « لهـــاة البعير،ولا تكون الا للعربي من الابـــل » « وقيل هو شيء كالرئـــة يخرجها البعير من فيـــه اذا هاج » . ابـــن منظور ، لســـان العرب ، م ١٠ ، ص ١٨٥ .

تقررت احواله لديـــه،لا زالت حمائم النصر ترفرف بين يديـــه ، عيّن عليه سردارا كافل المملكة الطرابلسيـــة (٢٥) ، لا برحت مـــدا الايام من الاغيار محمية ، امـــير الامرا الكرام كبـــير الكبرا الفخام : حضرة يوسف باشا بـــن سيفا (٢٦) ، اسعفه اللـــــه في اموره اسعافا وادام اللـــه ايامه

---

(٢٥) المملكة الطرابلسية : كانت تشكل احدى ممالك ونيابات بلاد الشام في العهد المملوكي • حول هـــذه المملكة انظر ابـــا عبد اللـــه بن محمد المعروف بشيخ الربوة الدمشقي الانصاري (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م) ، نخبة الدهـــر في عجائب البـــر والبحر ، تحقيق أ . مهران ، بريل ، ليـــدن ، ١٩٢٣ ، ص ٢٠٧ ــ ٢٠٩ ؛ كذلك احمـــد بن علـــي القلقشندي ، (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، صبح الاعشى في صناعـــة الانشا ، القاهرة ، م ٤ ، ص ١٤٢ ــ ١٤٩ • حول هـــذه المملكة في اواخر العهد المملوكي راجع فرس الديـــن خليل بن شاهين الظاهـــري ، (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) ، زبدة كشف الممالك وبيـــان الطرق والمسالك ، نشره بولس راويس ، بـــاريس ، ١٨٩٤ م ، ص ١٣٢ . امـــا فيما يتعلق بالحياة الثقافية في طرابلس فـــي العصور الوسطى ،فتراجَع المـــادة المجموعة عند عمـــر عبد السلام التدمري ، الحياة الثقافية في طرابلس الشـــام خلال العصور الوسطى ، بـــيروت ، ١٩٧٢ ، هذا بجانب المـــادة المتوافرة في كتاب اخبار الاعيـــان في جبل لبنـــان ، ٢ م لطنوس الشدياق (ت ١٨٥٩ م) الذي حققه فـــؤاد افرام البستاني ، بـــيروت ، ١٩٧٠ م ، م ١ ، ص ١١ . كذلك انظـــر

FR. Buhl, "Tarabulus" E. I. vol. iv, P. 660

وترجمة المقالـــة نفسها في دائرة المعارف الاســـلامية ، م ١٥ ، ص ١١٧ ــ ١٢٠ ؛ امـــا مصطلح « كافل » فهو مرادف لمصطلح « نائـــب » وهو من القاب كبار النواب كنائب دمشق ، راجـــع القلقشندي ، المصدر ذاتـــه ، م ٤ ، ص ٥٣ .

(٢٦) يوسف باشا سيفا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) ، زعيم سُنّي مـــن اصل تركماني او كردي ، كانت اسرتـــه من القُوَى المحلّية البارزة في منطقـــة عكار ، واوكلت اليه ولايـــة طرابلس الشام اكثر من مـــرة ؛ عرف عنه زعامته للجناح اليمني ضـــد الجناح القيســـي بقيـــادة فخر الدين المعني ، ربطتـــه علاقات المصاهرة مع المعنيين والجنبلاطيين . حول حياته انظـــر : البوريني ، تراجم الاعيان من ابنـــاء الزمان ، انظـــر النص المنشور ادناه . المحبـــي ، خلاصة الاثر ، م ٤ ، ص ٤٧ ــ ٤٩ ، ص ٥٠٣ ، الدويهي ، البطريرك اسطفان (ت ١٧٠٤ م) ، تاريخ الازمنـــة ، نشرة الاب فرديناد توتل اليسوعي ، المطبعـــة الكاثوليكية ، ١٩٥١ ، ص ٣٢٠ ، كذلك انظـــر مقالـــة

Salibi, K., "The Sayfas and the Eyalet of Tripoli, 1579 - 1640," Arabica, vol. XX (1973), PP. 25 - 52.

الزاهرة واعلا مقامـــه في الدنيا والآخـــرة . بولايته الرعية تنام وهـــم آمنـــون ويصحون (١١ أ) بوجوده مسرورون ، نفوسهـــم في ظلال السكون وادعة ، وفي رياض الامـــن راتعة . فتَوَجَّه امتثالا لأمـــره المطاع الواجب الاتباع نفذه اللـــه في سائر الاقطار والبقاع ليخرجه مـــن محروسة حلب ، وجمع العساكر وحـــثّ بالطلب ، هدى الى اجهاد النفس فـــي المصالح ووقفهـــا على سبيل المراشـــد والمناجح (٢٧) : بين ثَفر يُسَـــدّ وعضد يُشَدّ وشتات يُجمَـــع وخَرْق يُرقَع وذمام يؤكّد وعهـــد يؤيَّد . فلما بارز في عاشر شهر ربيع خارج حمـــاة كاتب (أ) بن جان بـــولاد لبعض امراء العرب (على الهامش الاعراب) علـــى مبلغ فأركبه هواه ، هيهات مـــا اضلَّ فِعْلُ ذلـــك الشقيّ من راي واسواه ، تَيَمَّن الامانـــي الكاذبة وظن الظنون الخائبة ؛ فلمـــا تلاقى العسكران وتصادم الجيشـــان واصطفّ الخيل والرجـــل وامتلأ الحَزَن (٢٨) والسهل وبرقت الابصـــار بشعاع السيوف وسفرت رســـل الحتوف بين الصفوف ودار كأس المـــوت دهاقا وعاد لقـــا الفريق بالفريق عناقا ، وصـــار الفارس اقرب من ظِلّـــه والسيـــف ادنى للوريد من حبلـــه ففي ذلك المحل فـــرَّ الشقي الموعود بالاموال وزيَّن لـــه الشيطان فعله وحثّه بالاستعجال وصوَّر لـــه الاماني الفاسدة والآمال ، فلما شاهـــد فراره العساكر صار رأي كـــل لصاحبه مغاير وعاد (ت) السواعد غـــير مساعد (ة) والاعضاء غير معاضد (ة) . ولم يزل صاحب الدولـــة والسعادة ، بلَّغه اللـــه الحسنى وزيادة ، ثابت الجنان لا تهولـــه (جاءت يهوله) صدمات الفرســـان ، وصار كلما حَرَّض من العسكر جحفلا ، يُظهِـــر ضعفا وتجلجلا ، فعنـــد ذلك تطايرت من حوله العساكر قاصدين حمـــاة ولم يمكث معه الا الذي ربـــاه في حماه ، فسار عند ذلك صاحب الدولة وقـــد ادخر سعيه ليوم لا ينفـــع الانسان قوَّتـــه ولا حوله والسما تحسد الارض بوطيه لهـــا في سيره والنجوم تَوَدّ لاجل الثواب لـــو خرَّت مع سنابك خيله ، ودخـــل محروسة طرابلس في

---

(٢٧) المناجح جـــاء في اللسان : « وانجح الرجل ، صار ذا نجح فهـــو منجح من قوم مناجح ومناجيح » ، لســـان العرب ، م ٢ ، ص ٦١١ .

(٢٨) الحَزَن : « مـــا غلظ من الارض في ارتفاع » ، لسان العرب ، م ١٣ ، ص ١١٤ .

خامس عشر شهـــر ربيع الاول،وانسَرَّ الناس بقدومه لأنّـــه عليه المعوَّل .

واما ابن جان بولاد طاوع شيطانه اذ اضلّـــه وزلّ معه حين استزلّه أبى الّا امتـــداد عنانه في الانقياد لشيطانه ، واستنفاذ قـــواه في الاستسلام لهواه ، فدعا ابـــن معن (٢٩) فاستجاب لدعائه واسرع لندائـــه،وسوَّل لهـــم الشيطا (ن) تسويلا واستغواهم تَغَرُّرا وتضليـــلا وحَبَّب اليهم العناد حتى شيط بلحمهـــم ودمهم وكره اليهم الرشـــاد حتى القوه وراء ظهرهم وصافح بينهـــم (١ ب) فغادرهم رهينـــا وقارنهم وسا (ء) قرينا،ولم يزل يلحـــم في اسفاح الشحنا (ء) وهـــم له يجيبون حتى وصلوا ظاهر طرابلس ونزلـــوا بأرض الجون (٣٠) ، جعلـــوا يغيرون وينشرون

---

(٢٩) فخر الدين المعنـــي (ت ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٥ م) ، درزي المذهـــب ، كان زعيم الجناح القيسي في بـــلاد الشام ؛ بنى جيشا قويـــا من العناصر الهاربة من الخدمـــة التي كانت تعرف بالسكبانية ، استفاد مـــن علاقاته بأوروبا عـــن طريق الموارنة وشجع التجارة مع اوروبـــا فازدهرت موانيء لبنـــان،خاصة صيدا ، نشطت الزراعة فـــي عهده،خاصة زراعـــة شجرة التوت لتربية دودة القـــز ، حارب بني سيفا ، وبنى القلاع وشحنها بالجنود ؛ تـــم القضاء عليه في عهد السلطان مـــراد الرابع • من اجل المزيـــد عن حياته انظر احمـــد بن محمد الخالدي الصفدي (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م) ، تاريخ الامير فخـــر الدين المعني ، تحقيق اسعد رستم وفؤاد البستاني ، بيروت ، ١٩٦٩ ؛ المحبـــي ، خلاصة ، م ٣ ، ص ٢٦٦ ــ ٢٧١ ؛ عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخـــر الدين المعني الثاني ، المطبعـــة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٦ ؛ الاب بولس قرألي ، فخـــر الدين المعني الثاني امير لبنـــان : ادارته وسياسته ، ١٥٩٠ ــ ١٦٣٥ ، حريصـــا ١٩٣٧ ؛ لنفس المؤلف ، لبنـــان والدولة العثمانية في عهد فخـــر الدين المعني الثاني ، مطبعة مصر الجديـــدة ، ١٩٥٢ ؛ انظر ايضا محاضرة كمال الصليبي : « فخـــر الدين المعني الثاني والفكرة اللبنانية » ، ابعاد القومية اللبنانيـــة ، ص ٨٥ ــ ١١١،ولنفس المؤلـــف .

"Fakhr al-Dīn" E. I. , vol. ii, PP. 749-51.

(٣٠) الجون : يفيـــد معنى الزاوية ويذكر عـــادة مضافا الى عكار ، جون عكار ، وفـــي سنة ١٥٨٤ م ، نُهبت الخزنـــة المصرية التي كانت في طريقها الـــى اسطنبول في ذلك الموقـــع ، مما دعا الدولة العثمانية الـــى تجريد حملة على تلك المنطقة كان من نتائجها ضرب الزعامات في جبل لبنـــان،خاصة الزعامة المعنيـــة . حول هذه الحادثة انظر ، الدويهي ، اسطفان ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ ، الشدياق ، طنوس ، اخبار الاعيان في جبل لبنـــان ، م ١ ، ص ٦٧ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٨ ؛ حول معنى كلمة جون ، انظـــر فريحة ، انيس ، اسماء المـــدن والقرى اللبنانية وتفســـير معانيها ، جونيـــة ، ١٩٥٦ م ، ص ٩٧ .

من الفتن مـــا ينشرون،لا عن الدما (ء) كَفّوا ولا عـــن المحارم عُفّوا ، ما الذئب بالقياس اليهـــم الا من الصالحين ولا الحَجّـــاج في العراق معهم الا اول العادلين ولا فرعـــون في بني اسرائيل اذا قابلته بهـــم الا من المقربين ، مـــا تركوا للرعايا فضة الا فَضّوهـــا ولا ذهبا الا ذهبوا بـــه ولا ضيعة الا اضاعوها ولا فرســـا الا افترسوه ، توالت مظالمهـــم وظلمهم واتّصلت غائمهـــم وغُمُّهم ؛ عَيَّنوا درويش بن جان بولاد (٢١) مع شرذمة هي فراش النار واوباش الامصار فتتابعت اليـــه كلاب الغارة الشعوا (ء) وتعاوت لديـــه ذئاب الفتنة الصمّا (ء) . دخل طرابلس في اواخـــر شهر ربيع ، فالاعيان من اهلهـــا دخلوا السفن والبعض آوى (جاءت آوا) الى حصن منيـــع دخلها بمن لفّ لُفّيته وصافح علـــى الضلال لكفته من اشياع الغواية واتبـــاع الغباوة اولئك الكلاب العاوية والعصبـــة الضالة الباغية،لا يقيمون لـــه وزنا ولا يمتثلون له اذنا وانمـــا صار لهم سُلّما الـــى الاموال المستهلكة والموارد المُرْدِيَـــة المهلكة . وفي صبيحة نهـــار السبت رابع عشرى ربيـــع سافر بعض المراكب فبكـــت لمصابهم الارض والكواكب قاصديـــن الجزيرة (٢٢) والناس تبكـــي بأدمع غزيرة.فلما اسفر نهار الاحد وكان يسوم يثنيب فيه لهوله الغـــراب والولد ، غلايين (٢٣) ،

---

(٢١) درويش بـــن جان بولاد : يُعَرِّفـــه البوريني بقوله،درويش بيك ابن عـــم علي بيك وانـــه اخذ مدينة طرابلس الشام لكنه لـــم يتمكن من احتلال القلعة التي تحصن فيها مملوك يوســـف باشا سيفا ، الذي كان يعرف ايضا باســـم يوسف ، انظر النص المنشـــور ادنـــاه .

(٢٢) المقصود بالجزيرة هنـــا جزيرة قبرس ؛ انظـــر نص البوريني المنشور ادنـــاه والملاحظات المدونـــة عنها في الهامش .

(٢٣) غلايين : جمع كلمـــة غليون التي هي تحريف لكلمة galleon, galion الانجليزية و galeone الايطالية ، وهي سفينة اكبر مـــن galley كان يستخدمها الاسبان في التجـــارة خاصة مع ممتلكاتهم في العالـــم الجديد . والجدير بالذكر ان الشيخ عبـــد الغني النابلسي في رحلته الى طرابلس يذكر مـــا يلي « وقد رأينا على حافة المينـــا انواع المراكب والسفن،وقـــد ذكر لنا اسماءهم صديقنا الحاج نـــور الديـــن الطرابلسي المذكور ... فاعلم ان انواع المراكـــب واسماءها كثيرة بلغت عشرين نوعا بعضهـــا يخالف بعضا في الصورة والهيئـــة واسماؤها متعددة كل اسم يطلق على مركـــب مخصوص لا يتناول المركب الآخر لكنه يطلق على الجميع المركبـــة

النصارى علينـــا اقبلت ، فالعقول طارت والدمـــوع فارت والاصوات قد علت لهذه النازلـــة الهائلة والفظيعة والحادثة الكارثة ، يـــا لها من مصيبة لا يداوي كَلْمها آسٍ ، ولا يســـدّ ثلمها تَناسٍ ، ففي لمحـــــة ادركونا ، وضربونا بالمكاحل الطيّارة فاهالونـــا وبِشَرَر نارهم الهبونا واحاطوا بنـــا فاخذونا . كـــان في السفينة من المسلمين مائتـــا (جاءت ماتا) نفـــر وسبعة انفـــار رجال ونساء واطفال ، عبيـــد واحرار صاروا بأجمعهم في قبضة الحربيين الكُفّـــار الاشقياء الفُجّار بين مقتول، نقل اللـــه روحه الى دار السلام، واســـير موثق بين ايدي الكَفَرة اللئام وجريح تَمَنّـــل لـــه الاجل فقال لسان حاله هذا اقصى المـــرام ؛ ما الحيلة وقد حصل القضـا (ء) ونـــزل البلا (ء) وكُتِب الرضى والتسليم ونحن بـــه آمنون لا حول ولا قوّة الا باللـــه « انا للـــه وانا اليه راجعون » (٢٤) ، لا نسخط لقدر اللـــه وهو عدل ولا ننتكر (٢ أ) لقضاء اللـــه وهو فصل ومن عنده الفضل ، يولي ويبلـــي ويسلب ويعطي لـــه الخلق وفعله الحق ، أمـــر اللـــه سبحانه وتعالى لا يقابـــل الا بالرضى والصبر على مـــا قضى وامضى ، علما بـــأن مقاديره لا تجرى الا على موجبات الحكمـــة وتدبيره لا يخلو مـــن باطن المصلحة وظاهر النعمـــة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

= والسفينة » . ويعدد عشرين نوعا : منها الغليون .انظـــر : التحفة النابلسية في الرحلـــة الطرابلسية ، ص ٧٠ ــ ٧١ ، كذلك

Dozy, R., Supplement aux Dictionnaires Arabes, vol. ii, P. 226.

انظـــر كذلك The Oxford English Dictionary, vol. iv, P. 21.

ونجد ان ابـــن اياس ، (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) يستخدم هـــذا المصطلح فيقول في اخبـــار سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م ما يلي : « ثـــم احضر السلطان قايتباي بالقرب من (الجيزة) المركـــب الكبير الغليون الذي عمره واصرف عليـــه نحوا من عشرين الـــف دينار فارسوا بـــه قبالة المقياس ، وصنعوا لـــه ثمانية مراسي وعلقوا في صواريه القناديل في الامشـــاط .. » بدائع الزهور في وقائـــع الدهور ، م ٤ ، تحقيق محمـــد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢٧٦ ؛ أنظر ايضا حبيب الزيات ؛ « معجم المراكب والسفن في الاسلام » المشرق ، مجلد ٤٣ (١٩٤٩ م) ، ص ٣٥٥ ، والجدير بالذكـــر ان الاستاذ انيس فريحة لـــم يذكره في معجمه ، معجم الالفاظ العاميـــة في اللهجة اللبنانيـــة ، بيروت ١٩٤٧ ، كما ان الدكتور البســـتاني مطلق لم يذكره في معجم الفـــاظ حرفة صيد السمك في الســـاحل اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٣ .

(٢٤) من سورة البقرة ، آيـــة رقم ١٥٦ .

استمرَّينا بذلك الأُسر نكابد المشقات والقهر بقلب هلوع ، وروع مروع نبكي على ايامنا الماضيات ونحسد من تقدَّمنا من الاموات . ثم لما تجلَّت عنا غمة الخطوب ودارت لنا بشاير الرضا من المحبوب وانشقّت سحابة محنته وتجلّت غمرة كربته وطلعت نجوم ارادته وهطلت سحابة سعادته واذن الله سبحانه وتعالى باخراجنا من الضيق الى السعة ومن الانزعاج الى الدعة ، القى (جاءت القا) الله سبحانه وتعالى الرافة في قلب ذلك العلج النصراني فأمرني بالخروج الى محروسة صيدا في ثامن عشرى شهر ربيع الثاني وطلب فدوى (عني) وعن ثلاثة وعشرين نسمة ضممتهم الي من الاهالي : نساء واطفال اربعة آلاف وثمانمائة ذهبا عال ، فعاهدته على ذلك واسرعت بالذهاب من غير تكاسل ولا اهمال مستجيرا برسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله واصحابه خير صحب وآل مستشفعا مستغيثا متوسلا به في البكور والآصال ، فأعطف الله الكبير المتعال على هذا الضعيف قلوب سراة ذي اموال ، اعطونا تلك (جاءت ذلك) العشرة بخمسة عشر الى مضيّ شهرين، فقبلت منهم على ذا الحكم جميع ذلك الغبن ثم قالوا نحن سخينا بمالنا عليك فلا تدعنا نطالبك ، نحيل بكتابك على من يكاتبك ؛ فشكرت فعلهم ومدحت فضلهم وقلت هذه المداينة لا اعدها الا كأنها عطية وهي عندي بمنزلة الهدية وانشا (ء) الله قبل تمام المدة نوصلكم جميع هذه المدة ، ثم اني قبضت تلك (جاءت ذلك) النقود بالتمام والكمال واقبضتها للحربيين فأخرجوا في الحين جميع العيال . فلما شاهدتُ الولد الأعزّ عمر لطف الله به وبفضله له غمر تهللت مني وجوه الانس وكانت قبل عابسة واورقت (جاءت وأورق) غصون من الفرج بعد أن كانت يابسة . ثم في اوائل شهر جمادي الاول دخلنا محروسة بيروت اقمنا برهة من الزمان . وفي غُرّة شهر شعبان من السنة المزبور (ة) جئنا (٢ ب) الى الاوطان فلاح لنا النجاح وانتشر نوره واومض برق الفلاح ولمعت تباشيره فوجدنا صاحب الدولة والسعادة حضرة يوسف باشا بلغه الله من خيري الدنيا والاخرى ما يشا (ء) دخل الديار الطرابلسية وحكمها ، ومن ايدي الخوارج والبغاة

قد انقذها ، وقطـــع عروق البغاة اهـــل المناد واطلع فيهـــا كواكب السداد . فكأنما بُدِّلَت مـــن الظلمة نورا ، واعقبـــت من موتها نشورا .

ونرجع الى ذكـــر الباحث عن مديته المتعجل الـــى انقطاع مدته . بسط يده في المظالم يحتقبها والمحارم يرتكبها وضرب على اهالي حلب ضرايب ضربت الاموال بالتمحيق والبضائـــع بالتمزيق.تلك البـــلاد تلهبت بجمرات ظلمه ، وتنهّبت ببدرات (٣٥) غشمه فالمحـــارم مهتوكة والدما (ء) مسفوكة ولسان الحال يقول،قـــد يكون للباطل دولة وللفســـاد صولة ، ثم ياتي من الانتقام والاصطلام ، مـــا يسقط الهام على الاقدام ، اما علـــم ان العزيمة من امـــير المؤمنين تنزل امثاله مثلا وتجعله لاهـــل الشقاق والنفاق مثلا ! اما علـــم انه اذا رماه بشعبة من افكاره ومسّـــه بجذوة من ناره عاد حرصه ندمـــا وصار وجوده عدما ! وغُودِرَ اشياعه بددا بـــل طرائق قددا ! نصب عليـــه سردارا الصدر الاعظم والدستـــور المعظم نظام العالم مدبر جمهور بنـــي آدم مراد باشـا (٣٦) ادام اللـــه اجلاله وبَلَّغه من خيرَي الدنيـــا والاخرى آماله،فسار اليـــه بأسعد الطوالع والفواتح وايمن المحامـــد والمناجح فخيلت لركوبه الارض مائجـــة والبحار هائجة والمناجح تطرق بين يديـــه والميامن تسير حواليه وآيـــات الظفر تقرا

---

(٣٥) البدرة : هي « جلـد السخلة اذا فطـم ويقال ثلاث بدرات » واستخدم بمعنـى كيس فيه الـف او عشرة آلاف ، لسـان العرب ، م ٤ ، ص ٤٩ .

(٣٦) مـراد باشا « صاحب الحروب مع المجـر والعجم والجلالية » ، عُـيِّن حاكما لليمن سنة ٩٨٤ هـ / ١٥٧٦ م ، واعطي بعـد ذلك حكومة ترمان ، شارك في الحـرب ضد بلاد فارس،ولـي دمشق حيث شيد فيهـا سنة ١٠٠٢ هـ / ١٩٥٣ م سوقا عرف باسمه ، عقـد صلح سنتا ثروك سنة ١٦٠٦ م ، مع النمسا ، عُيِّن بعد ذلك سردارا علـى الشرق لاخضاع الحركـة الجلالية وحركة علـي بيك ابن جانبلاط ، كانت وفاتـه سنة ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م انظـر الغزي ، لطف السمـر وقطف الثمر ، ورقة ، ٤٤ ب ــ ٤٥ ا . المحبـي ، خلاصة الاثر ، م ٤ ، ص ٣٥٥ ــ ٣٥٨ ، ابن جمعة المقـار ، ولاة دمشق ، ص ٢٣ ، عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م)، منادمـة الاطلال ومسامرة الخيال ، منشورات المكتـب الاسلامي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ، ص ٣٧٩ ــ ٣٨١ . صلاح الدين المنجـد « خطط دمشق » مجلـة الشرق ، م ٤٢ ، (١٩٤٨) ، ص ٦٢ ــ ٦٤ .

عليه والنصر يتراءى من ذائب أعلامه وبنوده وعناية الله محيطة على مواكبه وجنوده.ولم يزل سائرا والسعود تواكبه ولطائف (جاءت الطايف) الله تصاحبه حتى قرب من مدينة حلب،فخرج علي بن جان بولاد قاصدا له بالطلب يحضره الى مصرعه الاغاليل ويعجله الى هلكه الاباطيل ، حدتهم (؟) لاستعجال (جاءت الاستعجال) الآجال ، وتصورت لهم المنايا في سور الاماني والآمال،ساروا وآجالهم تفسح في مطامعهم ومناياهم تحثّ خطاهم الى مصارعهم . نتلهم الله بأقدامهم الى مصارع حمامهم (١٣) فلما التقوا وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة دارت على أعدا (ء) الله به الدائرة من شهور سنة ست عشرة بعد الالف . وما احلّ اللّه بهم من الانتقام ما شبّ عن طوق الوصف وعلت ريح الاقبال « لحزب الله » (٣٧) ، وذرت ريح الادبار على أعدا « حزب الله » متعهدون بالمنايح الزهر وأعدا (ء) الله بوزر المعاندين ازداد « حزب الله » شدة مراس وقوة بأس مترصدون بالمنايا الحمر ، فاز « حزب الله » بأجر المجاهدين واعدا (ء) الله بوزر المعاندين ازداد « حزب الله » شدة مراس وقوة بأس وثبات مقام ، وصدق انتقام ، واعدا (ء) الله انتلبت مواكبها وتضعضعت مراكبها وانخفض بيارقها لما شاهدوا الرايات المنصورة تزحف اليهم زحفا ، ملأت قلوبهم رجفا وهي تخفق بالنجح ، والطبول تنطق بالفتح ، أمر بتسوية الصفوف التي لا فلول يعتريها ولا رجوف ، وجعل الجيوش ميامن يقاربها اليمن والنجاح ، وميامر اقتضت اليسر والفلاح، وصار هو وقواده قلبا قالبا لمن قابله وناكسا لمن واجهه.فحين ترآى الجمعان وأفضى الامر الى قرب العيان والتهبت جمرة الضراب والطعان التقى الجمع بالجمع وقرع النبع بالنبع (٣٨) وبلغت القلوب الحناجر وشافهت المناحر المناخر فعند ذلك صمتت الالسنة وخَطَبت السيوف

---

(٣٧) « حزب الله » من سورة المائدة آية رقم (٥٦) ، وكذلك ذكرت في سورة المجادلة آية رقم (٥٨) .

(٣٨) النبع : من اشجار الجبال تصنع منها القسيّ ، لسان العرب ، م ٨ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

على المنابـــر واستمخرت (٣٩) سمر الرماح وتصافحـــت بيض الصفاح بلـــغ « حزب اللـــه » من اقتناص الاعدا (ء) اقصى المبالغ ووطئوهـــم وطء القانع الدافـــع زحموا الاعدا (ء) مـــن جوانبهم وتمكنوا مـــن نقض مواكبهم فضاق بهـــم المجال وتحكّمت بهم الآجال فلم تَـــرَ (جاءت تـــرا) الا رؤوسا تندر ودمـــا تهدر واعضا (ء) تتطاير واجساما تتزايل، اوسعهم ضربا وشقّـــا وطعنا ورشقا وجرحـــا وزرقا؛ وطئوهم بسنابك الخيل وتركوهم كجفا (ء) السيل صبوا عليهم سوط (جاءت صوط) (عذاب) فأسلموهم لعوادي بتـــار وتباب بين قتيل عجل اللـــه بروحه الى دار جزائه وأسير قـــد اوثقه ما ارتكب من سوء رايـــه ، وابن جان بولاد نكص على عقبـــه وقد كادت صروف الايـــام تفترسه وبأنيابها تنتهشه،لم ينـــج الا بشرذمة لاذت بذمّة الهرب ولن يفوتوا يـــد الطلب،اطار الرعب قلوبهم وسكن الخـــوف لبهم ، خرجوا من تحت طـــي السيوف وقد شارفتهم ، وشبـــا (٤٠) الحتوف وقد شافهتهم ، ولم يزل دائرا في البلاد ليجد من يعينه علـــى البغي والعناد فلم يجد (٣ ب) لـــه مساعد ولا خل معاضد،فأحـــب عند ذلك قرب الموت لمـــا رأى من ضيق العيش وبعد الاوطان وقهـــر الجيش،ودخل على بعض البغاة فـــأراد (جاءت فارد) بعضهم أن يوثقـــه ويجعله اسيرا وبعضهم ظاهره وكـــان في خلاصه نصيرا.فانهزم وقصـــد الاعتاب العليّة والســـدّة العالية السنيّة في سابع عشرى شهر رمضـــان سنة ست عشرة بعـــد الالف من هجرة سيد ولـــد عدنان يلتمس العفـــو ، وَرَمَقُه على تَلَف وشفاهته علـــى شرف،فأُخِّر لأُجَل مضروب وانسيء لأُمـــل مكتوب .

واما « حزب اللـــه » عادوا منصورين مؤيدين موفورين لـــم يَمَسَّهم جِراح ولا عضّهـــم سلاح،غنموا اموالهم التي لـــم يؤدوا منها حقا معلوما ولم يفنوا منهـــا سائلا ولا محروما ، ودخـــل الصدر الاعظم مدينة حلـــب والزمان ضاحك متظاهر البشر مـــن الفتح الذي نطقت بـــه

---

(٣٩) من مخـــر : استمخر قابل ، لســـان العرب ، م ٥ ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

(٤٠) شبـــا : الشباة طرف السيف وحَـــدُّه،وجمعها شبا ، لســـان العرب ، م ١٤ ، ص ٤٢٠ .

ألسنةُ الشكر وفتحت لـــه ابواب البشر ، والممالك ملأى (جاءت مليء) تهاني وبشارات والأوليـــا شورى بين افراح ومسرات ، وسلمـــت قلعة حلـــب الشهبا بعد دخوله بثلاثة ايـــام من غير حصار ولا اهتمام لعظيم سطوته (جـــاءت حطوته) ، منحة مـــن الكبير المتعال ، عَرّتهم هـــزّة وتحكّمت بهـــم الأوجال ، طلبوا الذين (جاءت الذي) كانـــوا في القلعة الامان فأعطاهم ، فنزلـــوا على اسوأ الاحوال ، هناه اللـــه بالطوالع السعيدة عنـــد نهضته ودلت عليه البشائر الحميـــدة في سفرته وقد دانت لـــه الطوائف وآمن بـــه الخائف . كان حلوله بمركز غرة الديمة الوطفا عن السنة الشهبـــا والنور المنتشر بعد الظلام المعتكـــر ، انحسرت الغمّة بتلألؤ جبينه ودرت النعمـــة بأخلاق يمينه فأصبح العـــدل ممدود الرواق والسلطان نصره اللـــه ساطع الاشراق ، محروسا بعين عناية الملـــك الخلاق الواضع قدمه على ناصية الشمس ، الساحق بضيائه انوار البدر ، الضارب برواقه مـــن فوق النجم، المبسوط بـــين المغربين شعاعه المدود على الخافقين شراعه ؛ فاللـــه يديم له الفتح يمينا ويسارا ويزيـــد اعداه ذلاً وخسارا ويجعـــل أعداه حصائد سيوفـــه ورهائن خطوب الدهـــر وصروفـــــه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ترجمة يوسف باشـــا سيفا للشيخ حسن بن محمـــد البوريني (٤١)

« الامير يوسف بـــن سيفا واخوه الامير علـــي ، قد اتفق (١٤٩ ب) مسيرنا الـــى طرابلس الشام فنهضت اليهـــا من دمشق في شوال سنة ثمان والف من الهجرة النبويـــة، على مهاجرها الف الف تحيـــة. ومررنا

---

(٤١) الشيخ حسن بن محمـــد البوريني (٩٦٢ هـ / ١٥٥٦ م ــ ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) ، مؤرخ من اصـــل نابلسي عاصر احداث سنـــة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٥ م ، حول حياته وثقافته ومنزلته العلمية ومؤلفاته ، أنظر الترجمة الوافية ومصادرها التي أفردها لـــه صلاح الديـــن المنجّـــد في تقديمه للمجلد الاول من تراجـــم الاعيان من ابنـــاء الزمـــان ، دمشق ١٩٥٩ م ، ص ٥ ــ ٢٦ . النص الذي ننشره ماخوذ من مخطوط تراجم الاعيان من ابنـــاء الزمان ، نسخة ثمينّـــا ، رقم

Cod. Arab, 1190, Mixt. 346

وهذا النص يقع في خمس صفحات ونصف في كـــل صفحة تســـعة وثلاثون سطرا .

على مدينة عكـــار (٤٢) فاجتمعنا بالاميرين المذكورين وكان الامير علـــي لـــه تعلق بأهداب الآداب ، وتوثق من معرفته بأوثق الاسبـــاب ؛ ولعمري لقد شاهدت دولـــة سيفية وشهدت بسعادة يوسفيـــة وعاينت مجدا عاليا وجـــودا وافيا يشمل البعيـــد والقريب . وكانت بهما عكـــار صافية ، ووعود الزمان بالمراد لمـــن قصدها وافية ، فاشتهرت بعـــد الخمول وقُصِدَت حتى صارت محـــطّ الحمول ؛ ولعمري ان الدولـــة السيفية كانت وريفة الظلال باسمـــة الثغور عن عقـــود الاقبال . وقد مدحتُ صاحب انشاء الدولـــة المذكورة ، الامير يوســـف ذو السيرة المشكورة بقصيدة ميميـــة ومدحت اخاه عليـًّا باخرى رائية ، وانصرفتُ من عكار الى طرابلس الشـــام وطرفي لبرق اقبـــال هانيك الديار قد شـــام ، ورايت في الطريق بقايـــا حصن يقال له عِرْقا (٤٣) وقـــد عرقه الدهر الجاير بمديـــة جوره عَرْقا ، وشاهدتُ تحامل الزمـــان على نواحيه وتشتيته لجموع ساكنيـــه واهليه مع انـــه من الحصون القديمة التي

---

(٤٢) النصوص المتوافرة بين ايدينا لا تشير الى مدينة تعرف بعكار بل تشير الى حصن عكـــار . فيقول عماد الدين اسماعيل أبـــو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، : « وعكـــار حصن في الجبل المذكور (جبل عكـــار) » . امـــا القلقشندي فيذكر ما يلي : « وهي قلعـــة على مرحلة من طرابلس في جهـــة الشرق بوسط جبل لبنـــان في واد ، والجبل محيط بهـــا وشرب أهلها من عين تجري اليهـــا من ذيل لبنان المذكور ولها ربض ليس بالكبـــير » . وكانت تشكل نيابات مملكة طرابلس الشـــام في العهد المملوكي ونيابتها امرة عشرة ونائبهـــا يخاطب « النائب بحصن عكار » انظـــر ، تقويم البلدان ، حققه م . رينود والبارون ماك كوكين دي سلان ، المطبعـــة الملكية ، باريس ، ١٨٤٠ م ، ص ٦٨ ؛ صبح الاعشى في صناعة الانشـــا ، م ٤ ، ص ٨٥ ، ص ١٤٤ ، ص ٢٢٥ ، م ٧ ، ص ١٧٦ ، م ٩ ، ص ٢٥٣ ، م ١٢ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٥ ، يورد المؤلـــف هنا نص كتاب تقليد لاحـــد النواب .

(٤٣) يعرف ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ، عِرْقَة ، بقولـــه : « عرقة بكسر اولـــه وسكون ثانيه ... بلدة في شرقي طرابلس بينهمـــا اربعة فراسخ وهي اخـــر عمل دمشق وهي في سفـــح جبل بينهما وبين البحر نحو ميـــل وعلى جبلها قلعة لها » ويذكرها ابـــو الفداء بقوله : « هي بلدة صغيرة ذات قلعـــة صغيرة ولها بساتين ونهـــر صغير ... » ، انظر معجـــم البلدان ، م ٦ ، تحقيق فردناند وستنفلد ليبزج ، ١٨٦٨ ، م ٣ ، ص ٦٥٣ — ٦٥٤ ، تقويـــم البلدان ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

محت رسومه كل ديمة مستدمة . فلما دخلتُ طرابلس عجبتُ من محاسنها ورايتُ عجايب البحر بالقرب من مساكنها ودخلتُ اليها مسا ليلة الاحد من اواسط ذي القعدة المنتظم في سلك شهور سنة ثمان بعد الالف من هجرة خير الانام عليه من الله الصلاة والسلام . ونزلتُ في منزل وكيل الامير علي اليوسفي السيفي وهو المسمى بعلي ابن المقدم،وكان بين جماعته هو المشكور المقدم وكان النزول عنده باشارة أستاذه المذكور بل بأمره الذي يطيعه كل مأمور ، فأكرمنا اكراما وواصل الينا انعاما وحبانا الطافا ومَنَّ علينا إسعادا وإسعافا ، وحضر الينا علماء طرابلس مسلّمين ولدعوى العلم من جانبنا مسلمين . وقد صدر أن الامير يوسف بن سيفا حاكم مدينة طرابلس صاحب هذه الترجمة ارسل في اواسط سنة خمسة عشر بعد الالف الى باب السلطنة العلية بقسطنطينية المحمية يتطلب حكما سلطانيا منشورا خاقانيا ، بأن يكون راس العساكر الشاميَّة وامير الامرا في هاتيك الولاية السنية لينتقم من علي بيك ابن الامير احمد بن جان بلاد الخارج بحلب الشهبا الذي تباعد عن الطاعة وابى ؛ فأجيب الى ذلك ، وظَنَّ السلطان أيده الله تعالى انه قادر على ما هنالك وأرسل اليه الحكم المطاع الواجب الاتباع بأن يكون راسا على جميع العساكر ورئيسا لجميع الجماهر من حدود غزة والقدس ونابلس واللَّجُّون وعجلون والكرك الى حدود طرابلس وجبلة واللاذقية وحمص وحماة وما هناك من الاكراد والترك والعرب،وان يسعى على ازالة حكمه من حلب ونواحيها وان يعيد الحكم السلطاني في البلاد المذكورة من قوادمها الى خوافيها . فلما جاء الامر المذكور وتَقَدَّر عنده الحكم المنشور ارسل الى حكام العباد وراسل الامرا في ساير البلاد فاجتمعوا في حماة وجعلها موطنه وُحِماه،وذهب هو ايضا اليها ونصب سرادقه عليها. ونهض علي بيك من حلب الى هناك وتقابلا وتقاولا وتجاولا ، ذاك مع السكبانية الباغين وابنُ سيفا مع عساكر حضرة سلطان المسلمين ، فقدَّر الله تعالى ان الكسيرة الكبيرة وقعت على جانب عسكر السلطان، وخرج سيف ابن سيفا من الاجفان ولكنه ما عاد اليها بعد الخروج،

وقد قبل قـــدم الخروج قبل الولوج ، ففر الى الشـــام وما عرجوا على الخيام ، فيالهـــا (١١٥٠) من كسرة ما وجدوا بعدهـــا نصره ، فلما دخل علـــي بيك الى مخيم الشاميين وابن سيفـــا ورأى هناك سعادة وسلاحا ورمحا وسيفا، قُوِي مزاجه وعـــزّ مع الغير امتزاجه، فأرسل الـــى ابن معن فخـــر الدين يطلبه للاقبال اليه بعـــد انكسار الشاميين. فأقبل اليه وورد عليه وكـــان اجتماعهما عند منبع العاصي، وكـــان ذلك رسما لاجتماع العصاة من الدانـــي والقاصي ، فاتفق رايهما أن يرســـلا الى طرابلس عسكر (ا) يأخذها من يـــد ابن سيفا واتباعه ؛ فعيَّنا لذلك درويش بيك ابن عم علـــي بيك مع جماعة لتفريق جيش ابـــن سيفا بعد اجتماعه ، فبادر ابن سيفا الى الهرب من شـــدة الخوف والرهب الى ركـــوب السفينة بنفس لفراق وطنـــه حزينة وابقى قلعـــة طرابلس حصينة بجيوش في ضمنها كمينة وجعل رأسهـــم مملوكه يوسف ، ودعا لـــه بالحماية من موجبات التلهُّف والتأسُّف، واتخـــذ سبيله في البحر سربـــا وقضى الناس من فراقه لاوطانه عجبـــا ، واخذ معه امواله الكثيرة وصحب محاسن امتعته العزيزة وســـار معه غالب أهـــل طرابلس من الرجال والنساء في مراكب متعددة وسفن في البحر متبددة فأ (ما) سفينتـــه التي سار فيها فقد جَرَّتها الريح الـــى قبرص «٤٤» ونواحيها، ودخل الـــى بعض مداين الجزيرة المذكورة ولم يجد ما رامـــه عندما قدم عبوره فطـــار في السفينة بأجنحة الشراع واقلع عـــن ذلك الساحل بقوادم القلاع وســـار الى الجانـــب القبلي ملججا ولم يلـــو على طرابلس معرجا حتى خـــرج من ساحل حيفـــا «٤٥» من توابع اللجون (جاءت الجون) ولـــم يسمع نصيحة

---

(٤٤) حـــول تاريخ جزيرة قبرص في العهـــد العثماني انظـــر :

Hill, Sir George, A History of Cyprus, vol. iv, Cambridge University Press, 1952, PP. 1 - 99.

ومقالـــة : Dakkot, Besim, "Kibris" I. A., vol. vi, PP. 672 - 76.

(٤٥) حول النصـــوص الجغرافية التي تذكر حيفـــا انظر ما جمعه الاب مرمرجي الدومنيكي في بلدانية فلسطـــين ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ٦٥ . في سنـــة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م كان عدد سكان حيفـــا عشرين خانة جميعهم من المسلمـــين وربع حاصلاتها المدنـــوع

اخوانه الذين في نصحه يَلِجّون. واما السفينة التي حملت امتعته المصونة واحتملت درره المكنونة فانها صارت للنصارى غُنْما ولقي بذهابها خسرانا وغرما،وكاد (جاءت وكان) يقتل وكيلها الذي اقامه عليها وجعله ناظرا وحافظا لديها ؛ والذاهب لا يعود والطوالع ليست متمخّضة للسعود.واما مَن سار من رجال طرابلس ونسائها في صحبة الامير ابن سيفا فانهم وَجَدوا بالأُسر حَيْفًا وليتهم لو تبعوه حتى دخلوا حيفا ، فاخذتهم النصارى وصاروا في قبضتهم اسارى،فكم عزيزة صارت في ايديهم ذليلة ومن مصونة اصبحت في قبضتهم بعد الصحة عليلة،وكم من عزيز في ايديهم قد ذَلّ ومن عظيم قد احتُقِر بعد ما جَلّ ؛ ولعمري انها كانت لفضيحة قبيحة ومصيبة اصابت لعدم قبول النصيحة . ثم ان الطاغية الذي أسر نساء اهل طرابلس الشام مكث في نواحي قبرس

- للدولة كان يساوي ٤٧٨١ اقجة . كما يشار الى وجود اسكلة (ميناء) فيها تتقاضى الدولة رسوما عن السفن التي ترده ، مقدارها الف اقجة سنويا ؛ والجدير بالذكر أن البحار العثماني بيري محي الدين ريس (ت ح ١٥٥٥ م) يشير في وصفه لساحل فلسطين الى وجود قلعة مدمرة في حيفا الا ان ميناءها كان يصلح للرسو ، وبموجب احصاءات سنة ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م ، كان عدد سكان حيفا ٣٢ خانة جميعهم من المسلمين ومجموع ما يتحصل منها عشرة آلاف اقجة . الا ان هذا الاحصاء لا يشير الى رسوم الاسكلة مما قد يوحي بانها كانت معطلة كميناء . انظر طابو دفتري رقم ١٩٢ (اسطنبول) ، ص ٣ ، طابو دفتري رقم ١٨١ (انقرة) ، ص ١٩ — ٢٠ .

Heyd, U. "A Turkish Description of the Coast of Palestine in the Early Sixteen Century", Israel Exploration Journal, vol. vi, (1956), pp.210-211.

انظر ايضا : "Hayfa", E. I^{3} . vol. iii, PP. 324 - 26.

راجع بالاضافة الى ما ذكر اعلاه جميل البحري ، تاريخ حيفا ، المكتبة الوطنية ، حيفا ١٩٢٢ م .

من اجل مقارنة حيفا مع كل من يافا والناصرة في القرن السادس عشر انظر مقالتي :

Bernard Lewis : "Nazareth in the Sixteenth Century, According to the Ottoman Tapu Registers".

"Jaffa in the 16th Century, According to the Ottoman Tahrir Registers", in Studies in Classical and ottoman Islam Variorum Reprint, London, 1977, PP. 416 - 446.

كاسبا للآثام ، وشرع يبيع النســـا لرجالها ، وينادي لكـــل فرقة وعيالها ، فبلـــغ الناس في النســـا مبلغا عظيما وثمنـــا جسيما لكنّ مع الفضيحة الكاملة والحسرة الشاملـــة التي احرقت القلوب وعَظّمت الكروب ، وكـــان الرجل ينظر زوجتـــه مأسورة ، ويرى جاريته منظورة والمنـــادي ينادي في كل نادي،فمنهم مـــن يقدر على الفكاك ومنهم من يسقـــى من الإشراك في الأشراك،ومنهم مـــن يُفكّ نفسه دون اهلـــه فيذهب عنها وقد فقد نور عقله،فكم من بِكْـــرٍ جميلة الصورة اصبحت في يـــد المشركين وهي مأسورة ، وكـــم من غلام يفوق البدر عند التمام ، وقـــد ناح عليه ابواه عند الفراق وذاب منهما الجســـم بشديد الاحتراق،وذلك من اعظـــم المصايب واشدّ النوايب . وامـــا ابن سيفا فانه خرج من البحـــر ضيفا عند الامـــير احمـــد (٤٦) ابن المرحوم الامير طرباي ابن الامير علـــي الحارثي،وهو الآن امير لـــواء اللجون (٤٧) فقام اليـــه مكرّما ولنزوله معظّما واظهر لـــه ما يليق بامثاله من اكارم الأُمرا وأُمرا الاكارم ، وابرز لـــه ما يساوي

---

(٤٦) حول حياة الشيخ أحمـــد بن طرباي الحارثي ، (ت ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م) ، امـــير لـــواء اللجون ودور اسرته في تاريـــخ سنجق اللجون بشمالي فلسطـــين منذ اواخر العهد المملوكي،انظر المحبـــي ، خلاصة الاثـــر ، م ١ ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ . كذلك مقالـــة موشي شارون :

"The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", in Studies on Palestine during the Ottoman Period, edited by Moshe Maoz, Jerusalem, 1975, PP. 11 - 30.

كذلك دراسَتي : الأسرة الحارثية في مرج بنـــي عامر ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م ــ ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م . المقدمـــة لندوة تاريخ العرب الحديث ، جامعة عـــين شمس ، القاهرة ، ٧ ــ ١٢ أيـــار ١٩٧٧ ، (تحـــت الطبـــع) .

(٤٧) حول لـــواء اللجون انظر دراستي المشار اليهـــا سابقا خاصة هامش رقـــم ٢ ، ص ٢٥ . ولقد كـــان هذا اللواء يشمل النواحي التالية : ثفا ، ساحل عثليت ، ناحية شعرا وناحية جنـــين ، لمزيـــد من التفاصيل انظر :

Wolf Dieter Hutteroth and Kamal Abdulfattah, Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the late 16th Century, Erlangen, 1977, PP. 157 - 161.

البحار الزاخرة من المكارم ؛ والحال ان ابن سيفا طَلَع الى الامير المذكور وليس معه من جماعته سوى سبعة رجال على ما هو مشهور (١٥٠ ب) غير ان معه من الاموال مالا يدخل تحت الاحصا ولا يشمله الاستقصا ، وارسل علي بيك ابن جان بُلاد الى الأُمير احمد طرباي رسالة تشتمل على ما معناه،انك يا امير احمد أُجتُهِد في قتل ابن سيفا وجَرِّد في قتله وقتاله رمحا وسيفا ولك المال بأسره وتحزُّ لنا الراس فبادر بذلك فلا حرج عليك ولا بأس ، وان لم تفعل جوزيت منا بالعتاب او بغاية التعزير والعقاب . فأجاب بأن هذه كلمة لا تقال،ومَن وقع في مثل هذا فعثرته لا تُقال ، ليس ذلك من فعل الامرا ولا من شأن الاعيان والكبرا ؛ كيف يكون ضيفي وينالـه رمحي وسيفي ؟ ثم انه بادر الى اهداء الخيول المسوّمة (٤٨) وتقديم الضيافات المعظّمة وقال له مرحبا بك يا امير واهلا بجودك الخطير ، لو كان لي مال لقَدَّمته اليك ووضعته بين يديك ، ولكن عندي خيول ليس لها مثيل ولا يشابهها جواد ولا في التمثيل،وفيها جواد جيد قوي أيد جموح ابيّ ما علا ظهره احد بعد ابي ، وهو لك مني عطية راضية مَرْضيّة ليس فيها منّة عليك بل هي نعمة منك اليك ؛ ثم انه اضافه اياما عديدة وخَدَّمه خِدْمَةً سعيدة واكرم مثواه واجلّ ممشاهُ ؛ ثم انه ارسل الى عسكر الشام يطلبهم الى بلاد اللجون فساروا اليه ووردوا عليه ، فسار معهم على

---

(٤٨) يلاحظ انه عند عودة الامير فخر الدين المعني من ايطاليا،بناء على موافقة السلطات العثمانية سنة ١٠٢٧ هـ / ١٦١٧ م ، الى صيدا عبر عكا ، ان الامير احمد الحارثي « ارسل كتخداة بتقدمة الخيل ايضا التي ترتضيها الغواة ». راجع الشيخ احمد بن محمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين المعني ، ص ٦٩ .

طريـــق حوران (٤٩) ولـــم يسر على جُـــبّ يوســـف ، (٥٠) وارض كنعان (٥١) خوفـــا من الامير فخر الدين ابن معن فانـــه عَدُوُّه وعند (٥) اصحاب الضرب والطعن ، فلمـــا دخل الى ارض الشام وجـــد اهلها في

---

(٤٩) في اواخر القـــرن السادس عشر الميـــلادي كانت حوران تشكل قضاء مـــن ضمن سنجق دمشـــق الشام ، وشمل هذا القضاء النواحي التاليـــة : ناحية البطيحة ، ناحية الجولان الغربـــي ، ناحية الجولان الشرقي ، ناحيـــة الكفارات ، ناحية بنـــي كنانـــة ، ناحية بنـــي جهمة ، ناحية بنـــي عاتكة ، ناحية بنـــي الاعسر ، ناحية جيدور ، ناحية بنـــي كلاب ، ناحية بني مالك الصدير ، ناحية بني مالك الاشراف ، ناحية البثنية ، ناحية بني عبد اللـــه ، ناحية بنـــي صرما ، ناحية بنـــي مقلـــد وناحية بنـــي نشبة،وليست نشية كما جاءت عنـــد Hutteroth انظـــر :

Bakhit, M. A. The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century, Ph. D. Thesis, London, 1972, PP. 85 - 93, (in the press),

والملاحظ ان الاســـتاذ هوتروث يضيف ناحية اخرى هـــي ناحية بني عطية ، انظـــر هوتروث ، المرجع ذاتـــه ، ص ٢٠٤ ـــ ٢٠٥ .

(٥٠) جـــب يوسف بالقرب من نابلس ؛ فيما يتعلق بهـــذا المكان انظر ما جمعه عنه الاب مرمرجي الدومنيكي ، بلدانية فلسطـــين ، ص ٤٩ ـــ ٥٠ .

(٥١) ارض كنعان (الارض المنخفضة او الغـــور) ، كانت في البداية تُطْلَق على بـــــلاد الساحل ثـــم اتّسع مدلولها ليشمل بـــلاد سورية الجنوبية الغربية باكملها . الا ان مفهـــوم الجغرافيين المسلمين لهـــذه البلاد كان على الارجح يقتصر على الشمـــال الشرقي لبـــلاد فلسطين . يذكر ابو الفداء واديًا يُعْرَف بوادي كنعان فيـــه ضيعة تعرف باســـم كفرلا تبعد عن جـــب يوسف اثني عشر ميلا وانها بالقرب من باتياس . كما ان الشيخ صدر الدين ابـــا عبد اللـــه محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي العثماني (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٦ م) يذكر صنـــد بقوله « اما صفد نفسها فحصـــن منيع بقنّة جبـــل كنعان » راجع ياقـــوت : معجم البلـــدان ، م ٤ ، ص ٣١١ ـــ ٣١٢ ، ابـــو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٨ ـــ ٢٤٩ ، ص ٢٧٠ ـــ ٢٧١ .

Bernard Lewis, "An Arabic Account of the Province of Safad" BSOAS, vol. xv, (1953), P. 479.

فيما يتعلق بالمفهـــوم التوراتي لهذه البلاد ، انظـــر :

Smith George Adam, The Historical Geography of the Holy Land, New York 1907, PP. 4 - 5.

كذلك الخارطة رقـــم (٢) المرفقـــة بكتاب :

Yeivin, Sh., The Israelite Conquest of Canaan, Nederlands Historishch — Archaelogisch Institute, Istanbul, 1971.

النيام وهم في انتظار العساكر القادمة من الأطراف لحصوا الإسعاد منهم والاسعاف على ابن جان بلاط ومن معه من الاخلاط كابن معن ويونس (٥٢) ابن الحرفوش،وكلّ من باطنه خاين مغشوش ؛ فانهم لما كسروا جيوش ابن سيفا على حماه حرس كلّ منهم بيت المغرور وحماه،وقصدوا طرابلس الشام فهتكوا حريمها ولم يبق لها احترام، وأقام بها درويش ابن حبيب ابن جان بلاط مدة يفسد فيها ومن معه من الاخلاط الى ان اصبحت قاعا صفصفا وما عفا عن أهلها ، فما هي من ظلمه عفا ، لا سيّما بيوت توابع ابن سيفا فانه قد أورثهم حيفا،اللهم الا قلعة طرابلس المحمية فانها نجت من حوادث البليّة،وما ذاك الا ان يوسف مملوك ابن سيفا حماها وحصّن ربعها وموطنها وحماها ، وكان يلقي من باطن القلعة المذكورة نيرانا محرقة يخرب بها بيوت اكابر طرابلس،لا سيما بيوت التابعين لابن سيفا . ولما وصل درويش ابن حبيب الى طرابلس الشام وأوصل الى اهلها ما قدر عليه من التعدي والآلام ذهب على بيك ابن عمه وابن معن الى نواحي بعلبك فأحرقوا ربضها ونهبوا المدينة وما قدروا عليه من قراها،واستمرّوا راحلين الى ان استقرّوا في البقاع وانزلوها في الحضيض بعد اليفاع. ولنذكر في اثناء هذه الحكاية (التي) توجب غاية النكاية،وهي أن الامير موسى ابن الحرفوش امير الامراء ودار الاماجد الكبرا فخر بني حرفوش بالاتفاق؛ بل هو فخر امراء الشام على الاطلاق،كرم لا يباريه الغمام وعهد صادق العقدة في غاية الابرام وشجاعة فاقت على الاسود وأصالت على كل ذي أصل يسود ، نهض من بعلبك وهو حاكمها الى نواحي حمص مستقبلا لابن جان بلاط وجيوشه ، مداراة

---

(٥٢) جاءت في النص يوسف بن الحرفوش،والأصحّ كان اسمه يونس بن حسين بن موسى الحرفوش الذي أصبح « أمين بلاد بعلبك » بدل عمه الامير موسى بن علي الحرفوش الذي كان ذا ميول سنّية،وتدخّل للصلح ما بين علي بن جانبلاط من جهة وما بين يوسف باشا سيفا من جهة اخرى،الا أنه فشل في مهمته وهرب مع يوسف باشا سيفا ؛ انظر البوريني ، تراجم الاعيان ، م ٢ ، ص ٢٧٥ ، ايضا ورقة ١٤٨ ب ، ١٤٩ ا ، المحبي ، خلاصة ، م ٤ ، ص ٤٣٢ ــ ٤٣٣ .

عن عِرضه ومحامـــاةً عن ارضه،فتحادثا وتقـــاولا وتشاورا فيما صدر وتجاولا،فقال الامـــير موسى هلّا تعطيني عهدا على الصلح بـــه جرح الخراب يوسى ، وانـــا اذهب الى الشام وآخـــذ لك العهد الوثيق من الانام؟فقال اذهب سليمـــا وكن يا موسى كليما ؛ فحضر الى الشـــام ورمي من عسكرها بغايـــة الكِلام لشدّة مـــا اوجعوه بغيظ الكَلام ظنًّا من جهلائهم انـــه عليهم،وما كان الاّ ناويا ســـوق الخير اليهم ، (١٥١ أ) فلما حضر الى امـــير الامرا قال له بما قد جيئت على قدر يـــا موسى فجرِّدْ سيف عزمـــك لعلَّه يُذهِب البوسى،فقال يـــا امير الامرا : ابن جان بـــلاط يطلب منك ان تعطـــوا حوران لعمرو (٥٢) البدوي مـــن العرب المفارجة،والبقاع العزيـــزي لابن الفريخ (٥٤) منصور بـــن بكري،وأدخِلوا

---

(٥٢) عمـــرو البدوي هو عمرو بن جبر شيخ عشيرة المفارجة ، حليف فخـــر الدين المعني ؛ كان رشيد بـــن سلامة بن نعيم شيخ السرديين مـــن المفارجة يناصبه على المشيخة في حوران،وكان رشيـــد موضع عطف الدولة العثمانية ، حيث اعطي سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م ، المشيخـــة بحوران ، حول دورهما في معركة الصراع القيسي ــ اليمني ؛ انظر البوريني ، المصدر ذاتـــه ، م ٢ ، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣ ، انظـــر كذلك نص البوريني الموجود في مكتبة جامعة ليـــدن باسم : كراستان نُقِلتـــا من خـــط الشيخ حسن البوريني Cod. or. 1515 ورقة ٤ أ ، حيث ان هـــذا النص يتفق مع النص الـــذي نشره صلاح الدين المنجّـــد في هامش ص ٢٢٥ من المجلـــد الثاني ، راجع ايضا الشيخ احمـــد الخالدي الصفدي ، المصدر ذاتـــه ، ص ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ص ١١ ، ص ١٢ .

(٥٤) الامير منصور بـــن الفريخ (ت ١٢ ربيع الثاني ١٠٠٢ هـ / ٦ كانون الثاني ١٥٩٤ م) قُتِـــل في دمشق بامر من السلطان بنـــاء على رغبة والي دمشق آنذاك مراد باشا ، ولقد كـــان امير البقاع العزيزي بعد القضاء علـــى اسرة آل الحنش البدوية السنية اعطي حكومة نابلس وامارة الحـــاج والتزم اموالا للدولة على صفـــد ، كان يقف ضد الدروز والمعنيين خاصة : ترك عشرة أولاد اكبرهـــم قرقماس الذي قُتِل على يـــد الامير موسى بن الحرفوش في ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م ، بايعاز من فخـــر الدين المعني بعد ان رفض الامـــير يوسف باشا سيفا ايواءه . مـــن هنا نرى ان منصور بـــن الفريخ قد قُتِل قبل هذه الحوادث . ولربما اختلـــط الامر على الناسخ فخلط ما بين اسم ابـــن الفريخ واسم الامير فروخ بن عبد اللـــه الجركسي امير الحاج الذي تولّى حكومـــة نابلس وعجلون والكرك سنـــة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م ، وامارة الحاج ، ولـــم يزل في هذا المنصب الى ان مـــات بمكة المشرفة في سنة ثلاثين والف

كيوان (٥٥) الى الشـــام كما كان ، واكتبوا عرضا بـــأن ابن جان بلاط لم يدخل الى أرض الشـــام ، وان ابن معن فخر الديـــن يؤدي ما عليه من مـــال السلطان،وبلاده موصوفة بالامان ؛ فعَقَدَ امير الأُمَـــرا ديوانا لهذه المطالب ، التي جـــاء الامير موسى وهو لها طالب ، فاتفقوا علـــى أن حوران تعطى لعمـــرو ولكنْ في السنة القابلة،واما البقاع فان اعطاءه لمنصور المذكور غـــير معقول ، لكونه عند الرعايا غـــير مقبول ، واما كيوان فانه يرجع الـــى الاوطان وعليه ما علـــى الناس من الامان ، واليمين من جانبنا لازمـــة لجميع الاخوان وقد كنت حاضر (ا) فـــي الديوان بدعوة من وكيـــل السلطان،فقال امير الامرا وهـــو الوكيل للفقير العليل : اكتب لنـــا صورة مكتوب الى ابن جـــان بلاط واخبره بما جرى عليه الاتفاق مـــن قبول دخول كيوان والعفو عنـــه وعن ذنوبه،ومن وعده باعطـــا (جاءت بااعطا) حوران ، لعمرو في السنـــة القابلة،ومن الاعتذار من عـــدم اعطا البقاع لمنصور بـــن الفريخ ابن بكري.واُخبِرْه بأن المحضر سيصل اليـــه بما طلب في حقّه وفي حـــقّ ابن معن . فلما انفض الديوان علـــى ذلك وقع الاتفاق على أن يحضروا في اليـــوم الثاني الى بيـــت رجل من الجند الشامي يقال لـــه تركمان (٥٦) حسن فاجتمع

= (١٦٢٠ م) ، انظر احمـــد الخالدي الصفدي ، المصدر ذاتـــه ، ص ٧ ، ص ٨ ، ص ٩ ، ص ١٦ ، ص ٢٧ ، ص ٣٥ ، الغزي ، لطـــف السمر ، ورقة ٢١٢ ب — ٢١٣ ا ، المحبـــي ، المصدر ذاتـــه ، م ٣ ، ص ٢٧١ ، م ٤ ، ص ٤٢٦ — ٤٣٢ .

(٥٥) كيوان بن عبد اللـــه (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م) ، زعيم الجنـــاح العسكري بدمشق المتعاون مع فخـــر الدين المعني ، كانت نهايته على يـــد فخر الدين نفسه . حول دوره في معركة الصراع ما بـــين العسكر في دمشـــق واستغلال العسكـــر للصراع القيســـي — اليمني في صراعهم ذاك ، انظر الغزي ، لطـــف السمر ، ورقة ٤٣ ب — ٤٤ ا ، ب ، المحبـــي ، المصدر ذاتـــه ، م ٣ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٢ .

(٥٦) تركمان حسن المقصود بـــه حسن باشا ابن عبد اللـــه الامين الكبير المعروف بشويزة حســـن مـــن صدور دمشق واعيانها الذي كـــان يرجع اليه في المهمّـــات ويعول عليه في الامور،وكانت تناط به أمور دمشق عند غياب ولاتها . توفي سنة ١٠٢٧ هـ/ ١٦١٧م. احتلّ ابنه محمـــد دورا مماثلا الى حين وفاته سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م . حول حياتهما انظـــر ، الغزي ، لطف السمر ، ورقة ٢٩ ب ، ٣٠ ا ، المحبـــي ، المصدر ذاته ، م ٢ ، ص ٢٤ — ٢٧ ، م ٣ ، ص ٤٢٧ — ٤٢٨ .

الجند كلُّه في بيـت الجندي المذكور ما عـدا الوكيل الاكبر عن السلطان وقاضي القضاة فانهما مـا حضرا ولا استحضرا.فوقـع الاتفاق على كتابة مكتوب مرغوب خطابا لعلـي بيك ابن جانبلاط بما سبق مـن الاتفاق، وعلى كتابة ديباجـة محضر بأن المذكور مـا وطىء ارض الشام،وأن ابن معن يوصل مـال السلطان في محله ، وبلاده آمنـة الطرقات . فأما المكتوب فقد كَتَبْتُـه وخَتَمَه اعيان الجند،وأمـا المحضر فانه عرض على الشيخ محمـد بن سعد الدين (٥٧) فما قبل معناه ولا رضـي بفحواه، وابرق وارعد وما وعد ، بل توعد و (قال) انا انا لا اكتب هذا ولا ارتضيه ولا اقبله ولا امضيـه ؛ فرجع الامير موسى الـى ابن جانبلاط بغير المـراد ، فعند ذلك قال ابـن جان بلاط ما يظهر مقامي عند جنـد الشام الا باظهار البرهان ، واظهـار السيوف البارقة والخرصان (٥٨). وقـام من يومه قاصدا بلاد بعلبـك وبلاد البقاع،وتخريب الاماكن والبقاع ؛ وأمـا الامير موسى ابـن الحرفوش فانه استمر هاربا مـن ابن جانبلاط الى دمشق، فأخبرهم بأنه ترك الجماعـة قصدا للموت على الطاعة ، واقتضـى حضوره الى دمشـق حضور جند ابن جانبـلاط وحشرات ابن معن الى بعلبك فنهبوهـا ، والى من بقي من النسـا والرجال مفرَّقوها ، وخيَّم ابن جان بلاط وابـن معن في البقاع العزيزي ، وانحاز اليهم يونس بـن الحرفوش ومن معه من اولاد عمـه مغاضبا لحضرة الامير الكبـير ذو القدر الخطير الامـير موسى ابن عم يونس المذكـور ، وخرج الجنـد الشامـي الى الميـدان الاخضر بدمشق وخيّموا هنـاك،واستحضروا سنجق القـدس وسنجق نابلس وسنجق غـزة وسنجق اللجون وسنجق

---

(٥٧) الشيخ محمـد بن سعد الدين الجباوي (ت ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م) ، شيـخ الطريقة الجباوية بدمشق كـان ملّاكا كبيرا ، وكان يتوسط لـدى الحكام نيابة عن الرعية خاصة عنـد زيادة الضرائب،لمزيـد من التفاصيل حول حياته راجـع البوريني ، المصدر ذاتـه ، م ١ ، ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦ ، الغزي ، لطـف السمر ، ورقة ٦ ب ــ ١٧ ا ، المحبي ، المصدر ذاتـه ، م ٤ ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

(٥٨) خرصان : جاءت خرصاز ، امـا الخرصان فهي الرماح ، انظر لسـان العرب ، م ٧ ، ص ٢١ ــ ٢٤ .

عجلون،واما صفد فانها كانت مع فخر الدين بن معن وهو كان مع المخالفين الخارجين.ولم تزل الجند تتزايد في دمشق،وكذلك عسكر الخوارج فانه ايضا كان يزيد.وترددت الرسل في الصلح من الجانبين فما حصل اتفاق،واختلفت آراء الجند الشامي فمنهم من كان يميل الى الصلح ومنهم من كان يميل الى القتال،حتى ان ابن جان بلاط ارسل من خوارجه جماعة الى دمشق (١٥١ ب) يطلبون الصلح فما رضي بذلك راس جاويشة العسكر الدمشقي،وهو محمد الشهير بابن الدزدار (٥٩). وخرج العسكر الشامي من الميدان الاخضر الى مكان يسمى المراد (٦٠) وزحف ابن جان بلاط وابن معن ومن معهم الى مقابلة العسكر الشامي. ومع ذلك ايضا فان ابن جان بلاط كان يُظهِر إرادة الصلح،فما وافق على ذلك ابن الدزدار المذكور ومن تبعه من الجند الشامي ؛ والقدرة غالبة ويد الله غالبة . وفي اواسط جمادى الآخرة من شهور سنة خمس عشرة بعد الالف زحف الفريقان،ووقع بينهما القتال،فما فاتت ساعة او قريب من ساعتين واذا بالعسكر الشامي قد رهب فهرب ، مع كثرة عدده ووفور عدده.وبالله لقد اخبرني من راى الفريقين ان خيل اهل الشام حزرت فكانت تناهز اربعين الف فرس،وكانت عددهم وآلة (جاءت الت) حربهم في غاية القوة والمتانة،ولكنّ جند الله غالب وقدره سالب ؛ ولما هرب اهل الشام انقسموا فرقتين،فواحدة ذهبت الى اذرعات (٦١) في اواخر ارض حوران هربا من ابن جان بلاط

---

(٥٩) لم اعثر له على ترجمة في المصادر المتوافرة لدي .

(٦٠) المراد تقع الى الجنوب الغربي من دمشق .

(٦١) اذرعات ، كانت في العهد الفاطمي كما نقل ابو الفداء من حسين بن احمد المهلبي (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) صاحب كتاب المسالك والممالك المعروف بالعزيزي ، « مدينة كورة البثنية » ؛ ويذكر ياقوت انها « بلد في اطراف الشام بجاور ارض البلقاء وعمان،ينسب اليه الخمر ».في القرن السادس عشر كانت تقع في ناحية بني مقلد.وتذكرها دفاتر الطابو باسم « قرية مدينة اذرعات » وانها كانت خاص ميرميران . بلغ عدد سكانها حوالي سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م ثماني عشرة خانة مسلمة ، ليرتفع عدد سكانها حوالي سنة ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م ، الى ثمان واربعين خانة مسلمة وخمسة مجردين وخانة مسيحية واحدة ،

وابن معن،واخـــرى رجعت الى الشام.والراجعة الى الشـــام قسمان: القسم الاول ســـاروا متفرقين مشتتين،والقســـم الثاني مكثوا في دمشق محاصرين،وغلقـــت الابواب وتهيأ من بهـــا للحراب؛فقصدها حزب العدوّ ونهبوا ما كـــان خارج السور من المســـاجد والخانات والاسواق والدور ، وانبثّ الخوارج الأشقيـــا في البيوت الواقعة خارج دمشـــق،واخذوا الأسباب عـــن آخرها الا قليلا تَخَبّوا تحـــت الارض،وأسروا كثيرا مـــن الاولاد وتحاموا الحريم مـــن النسا ؛ وذهب ابن سعد الديـــن الشيخ محمـــد الى ابن جان بلاط وهـــو نازل على قرية المِـــزَّة (٦٢) فما قابله بالعزة ، وطلب منـــه حاميا يحمي محلّته المعروفة بالقبيبات (٦٣) فأعطاه

= انظـــر : ياقوت ، معجـــم البلدان ، م ١ ، ص ١٧٥ ــ ١٧٧ ، ابـــو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣ ، طابـــو دفتري ٤٣٠ (اسطنبـــول) ، ص ٥٥٥ ، طابـــو دفتري ٤٠١ (اسطنبـــول) ، ص ٦٧٠ .

(٦٢) المـــزة بالكسر ثم التشديد .. وهي قريـــة كبيرة غناء في وســـط بساتين دمشـــق ويقال لها مـــزة كلب . كان عدد سكانها في النصـــف الاول من القرن السادس عشر على النحـــو التالي :

طابو دفتري رقم (٤٠١)	طابو دفتري رقم (٢٦٣)
(ح ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م) اسطنبول	(٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م) اسطنبول
(١٥٠) خانـــة مسلمة	(٢٦٢) خانـــة مسلمـــة
(٣٥) مجـــرد مسلـــم	(ـــــــــــ)
(١) خانـــة مسيحية	(٣ خانـــة مسيحية)
طابو دفتري رقم (٤٠١) ص ٦٠ ــ ٦١	طابو دفتري رقم (٢٦٣) ص ١٨٢ ــ ١٨٥

ياقوت ، معجـــم البلدان ، م ٤ ، ص ٥٢٢

(٦٣) القبيبات : يُعرِّفها الشيخ محمـــد احمد دهمان بانها « محلة مشهورة في الميـــدان قرب الجامع الكريمي « جامع الداساق »،سميت بذلك لان اكثر بيوتهـــا ذات قباب ولا يزال بعضها باقيـــا الى الآن ».انظر القلائـــد الجوهرية في تاريخ الصالحيـــة لابـــن طولون ، م ٢ ، تحقيـــق الشيخ دهمان،دمشـــق ١٩٤٩ ، ١٩٥٦ ، م ١ ، ص ١١٠ (الهامش) . كان عـــدد سكان هذا الحي بموجب دفاتـــر الطابو على النحـــو التالـــي :

طابو دفتر (٤٠١)	طابو دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٤٧٤)
(ح ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م)	(٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م)	(٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م)
(٢٧٣) خانـــة مسلمة	(٢٧٩) خانة مسلمة	(٢٩٨) خانة مسلمة
(٦) مجـــرد	(٦) مجـــرد	(١٢) مجـــرد
ص ٤٤ ــ ٤٥	(١) خانة مسيحية	(١) خانة مسيحية
	ص ٤٢ ــ ٤٨	ص ٧٢ ــ ٧٩

رجلا من السكبانية يقال لـــه عقيل فمكث عنده حاميا بيتـــه وحده ، ولم يَحْمِ بيتـــا من القبيبات سوى بيته.على ان بيته قـــد اخذ منه خيله وبغاله ودوابه وغالب مالـــه النقد،فكان الحامي يحمي لنفسه . اما اهـــل القبيبات فقد غُدِروا من شيخهـــم المذكور لانه قال لهم من رفع يـــده للقتال كان من المقتولين ، فألقـــوا سلاحهم وظنوا انهم يُرْحَمون بترك قتالهـــم؛فما كان القاء السلاح الا سببـــا لخراب الديار وعدم حماية الذمـــار ، فاجتمع عليهم الذلّ والجبن ونهبُ المـــال وبعض الاولاد،واللـــه تعالى ينتقم من اهل الغرور والعنـــاد ؛ واستمرّ النهب في المحـــلات الخارجة عن سور دمشق ثلاثة ايـــام ولم يبقوا صامتا ولا ناطقا ولا ولـــدا صغيرا من اهل الاسلام،وما نجـــا سوى اهل محلة الشاغور (٦٤) فانهـــم حاربوا الخوارج خارج السور وقتلـــوا منهم ما يزيد على ثلاثين رجـــلا بالخصوص.وقد قتل من الخوارج في الايـــام الثلاثة في نواحي بساتين دمشق وعلـــى ابوابهـــا وبين بيوتها ما يقرب من الفـــي رجل ، وغالب القتل كـــان من شباب دمشـــق واحداثها . واما ابن سيفا فانـــه ما خرج مع الجند الشامي الى القتـــال،فاستمرّ محتجبا في البيوت مع النســـا لا الرجال زاعما انـــه مريض؛فلما بلغته كسر العسكر خاف وعَـــمَّ اعضاءه الارتجاف

---

(٦٤) الشاغور ، احـــد الاحياء الخارجية لمدينـــة دمشق ، تذكر دفاتـــر الطابو الشاغور البرانـــي والشاغور الجواني.وكان عـــدد سكانها كما يلي :

١ ــ الشاغور البرانـــي

طابو دفتري (٤٠١)	طابون دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٤٧٤)
(٥٥٩) خانة مسلمة	(٤٣٦) خانة مسلمة	(٥٣٦) خانة مسلمة
(٤٢) مجـــرد	(ــــــــ)	(١٧) مجرد مسلم
(٢) خانة مسيحية	(ــــــــ)	(٤) خانة مسيحية
ص ٢٦ ــ ٢٩	ص ٨٢ ــ ٨٨	ص ٩٢ ــ ١١٠

ب ــ الشاغور الجوانـــي

طابو دفتري (٤٠١)	طابون دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٤٧٤)
(٣٢٧) خانة مسلمة	(٢٦١) خانة مسلمة	(٢٢٠) خانة مسلمة
(٣٠) مجرد مسلم	(١٩) مجرد مسلم	(٨) مجرد مسلم
(٦) خانة مسيحية	(٤) خانة مسيحية	(٢) خانة مسيحية
(١٣) شريـــف	ص ٨٨ ــ ٩٢	ص ٨٧ ــ ٩٢
ص ٢٩ ــ ٣٢		

فوزن لقاضي دمشـــق وبعض اعيانها ما يزيد على مائـــة الف غرش،وهي التي كانت سببـــا لخلاص المدينة من حصار ابـــن جان بلاط وابن معن؛ وذلك انه اعطى المـــال المذكور وفتحت له ابواب دمشق ليـــلا ونجا براس حمراه،ونجـــا وخرج مع البازي عليه ســـواد وسار معه بعض الجند الشامي،وسار معـــه ايضا المرحوم الامير موسى ابـــن الحرفوش؛ولم يزالوا معه حتـــى وصل الى حصن الاكراد (٦٥) واستحصن بـــه لانه كان محفوظا مع عمـــه الامير محمود ابن سيفا.وقبض ابن جان بلاط المـــال (١١٥٢ أ) الذي اعطاه ابـــن سيفا ورحل عن دمشق بعد الايـــام الثلاثة، وذهب متوجها الى نواحي حلـــب،وسيشرب في مجلسه مـــا جلب وحلب. وللقصة تتمـــة مفيدة تذكر ان شاء اللـــه تعالى في هذا الكتاب بالخصوص لانها مشروحة في فصـــل بها مخصوص،واللـــه اعلم .

---

(٦٥) يذكرها ياقوت في عهده بقوله « حصن الاكراد علـــى الجبل المقابل،وهو بين بعلبك وحمص.وكـــان بعض امراء الشام قد بنـــى في موضعه برجا وجعل فيـــه قوما من الاكراد طليعةً بينه وبين الفرنج،وأجرى لهـــم ارزاقا فتدبروها بأهاليهم ثـــم خانوا علـــى انفســهم في غـــارة فجعلوا يحصنونه الى ان صارت قلعـــه حصينة منعت الفرنج عن كثير مـــن غاراتهم؛فنازلوه فباعه الاكراد منهـــم ورجعوا الى بلادهـــم. وملكه الافرنج وهـــو في ايديهم الى هذه الغاية.وبينه وبين حمص يـــوم ولا يستطيع صاحبها انتزاعها من ايديهم.ويذكر ابو الفداء انه كان مقرّ ولاية السلطنة قبل فتح طرابلس . امـــا القلقشندي فيذكر انه احدى نيابات مملكة طرابلس الشام ونيابتـــه امـــرة عشرة ورســـم المكاتبة للنائب « النائـــب بحصن الاكـــراد ».ياقـــوت ، معجم البلدان ، م ٢ ، ص ٢٧٦ ، ابـــو الفداء ، كتاب تقويم البلـــدان ، ص ٢٥٩ ، القلقشندي ، صبـــح الاعشى ، م ٤ ، ص ٨٥ ، ٢٣٥ ، م ٧ ، ص ١٧٦ . راجع المـــادة التي اوردها عـــز الدين بن شداد (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) . عن حصن الاكراد في كتابـــه "الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشـــام والجزيرة"، تحقيق ســـامي الدهان ، منشورات المعهـــد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٦٢ ، الجـــزء المتعلق بلبنان والاردن وفلســطـــين ، ص ١١٥ ـــ ١٢٠ .

انظـــر كذلـــك :

Elisseeff, N., "Hisnal-Akrad" E. I. vol. iii, PP. 503 - 506.